ترجمان

مارفن هاريس

التحريم والتقديس

نشوء الثقافات والدول

ترجمة: أحمد م. أحمد




التحريم والتقديس

نشوء الثقافات والدول

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

التحريم والتقديس

نشوء الثقافات والدول

مارفن هاريس

ترجمة

أحمد م. أحمد

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

هاريس، مارفن

التحريم والتقديس: نشوء الثقافات والدول/ مارفن هاريس؛ ترجمة أحمد م. أحمد.

296 ص؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 261-277) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-364-3

1.الثقافة. 2. الاجتماع الثقافي، علم. 3. الأنثروبولوجيا الثقافية. 4. التغير الاجتماعي.
أ. أحمد، أحمد م. ب. العنوان. ج. السلسلة.

306

هذه ترجمة لكتاب

Cannibals and Kings
The Origins of Cultures
by Marvin Harris

عن دار النشر
Fontana/Collins, 1979

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2020

المحتويات

مقدمة

رَكَنَ العالم الغربي على مدى قرون إلى الاعتقاد أن التقدمَ المادي لا نهاية له أبدًا. وكإثباتٍ على أن حياتنا اليوم أسهل بكثير مما كانت عليه في زمن أسلافنا نأخذ في الاعتبار سياراتنا وهواتفنا ونظم التدفئة المركزية. وعلى الرغم من إدراكنا بأن هذا التقدم قد يكون بطيئًا ومتفاوتًا، ومشوبًا بانتكاسات آنية، فإننا نشعر بأن العيش، في المحصلة، سيكون أسهل بكثير في المستقبل مما هو عليه الآن.

تدعمُ النظريات العلمية، التي استُخلِصَت على مدى مئة عام، الجزء الأكبر من هذا الاعتقاد. ومن وجهة نظر العلماء الفيكتوريين، فإن تطور الثقافة بدا كأنه حجٌّ إلى سفح جبلٍ شاهقٍ تستطيع الشعوبُ المتحضرة من على قمته أن تنظر إلى مستوياتٍ متفاوتة من الوحشية والبربرية التي تصدر عن ثقافاتٍ «أدنى». وقد ضخّمَ الفيكتوريون مسألة الفقر المادي لدى مَن يُسَمَّون بـ«المتوحشين»، وفي الوقت ذاته رفعوا من شأن مكتسبات «الحضارة» الصناعية. فقد صوروا العصر الحجري القديم على أنه حقبة من الخوف وانعدام الأمن، أمضى فيه البشر نهاراتهم في بحث متواصل عن الطعام، ولياليهم مجتمعين حول النار في كهوف لا تبعث دواخلها على الراحة أبدًا كما أن خارجها محاطٌ بنمور ووحوش فتاكة ذات أنياب. ولم ينعم أسلافنا «المتوحشون» بوقت فراغ وتسليةٍ إلا بعد أن اكتشفوا سرّ زراعة المحاصيل، الأمر الذي أعطاهم فرصة الاستقرار في القرى وبناء المنازل المريحة، وتخزين فائض الطعام، وإيجاد وقتٍ للتفكير، وتجريب أفكارٍ جديدة. ومن المفترض أن يكون هذا بدوره قد أدى إلى ابتكار الكتابة، وبناء المدن، وتشكيل حكومات منظمة، وازدهار الفن والعلم. ثم جاء المحرك البخاري

مبشرًا بمرحلة جديدة من التطور وأكثر سرعة، هي مرحلة الثورة الصناعية بوفرتها الخارقة بما انطوت عليه من وتيرة متجددة ومتسارعة من التقدم، والآلات ذات الإنتاج الهائل بأقلّ حجم من العمالة.

ليس من السهل التغلب على مثل هذا النوع من التلقين. إلا أن عددًا متناميًا من الناس لا يخفون شعورهم بأن المجتمع الصناعي خاوٍ في جوهره، وأنه على الرغم من تصوير الإعلام لساعات التسلية المليئة بالمتعة والمرح، فإن على ذريتنا العمل بجدٍّ ومثابرةٍ للحفاظ على بعض مصادر الترف الذي ننعم به الآن. لم تعمل الوفرة الصناعية على تلويث الأرض بالنفايات والسموم فحسب، بل أفرزت بشكلٍ متزايدٍ خدماتٍ ومُنتجاتٍ رديئة مكلفة وكثيرة الأعطال.

غرضي من هذا الكتاب أن أستبدلَ فكرةَ التقدّم ما قبل الحقبة الفيكتورية وما بعدها ببيانٍ أكثر واقعية للارتقاء الثقافي. إن ما يحدث لمستوى معيشة الوقت الحاضر قد حدث في السابق. وإن ثقافتنا ليست أول تكنولوجيا يصيبها الفشل. وليست الأولى التي بلغت ذروة النمو. فقد فشلت تكنولوجيا الثقافات السابقة مرارًا وتكرارًا، مجرد أنها استُبدلت بتكنولوجيا جديدة. ولم تصل إلى ذروة نموٍ، ومن ثم تجاوزتها، إلا لتصل إلى ذروة أخرى سيتم تجاوزها مجددًا. إن الكثير مما نظنه اليومَ تقدمًا معاصرًا ما هو في الواقع إلا استعادة لمستوياتِ معيشةٍ كانت قد تمتعت بها الشعوب في أزمنة ما قبل التاريخ.

عاشت شعوب العصر الحجري بشكلٍ أكثر صحة وعافية مما عاشته الشعوب التي أتت مباشرة بعدها: فقد تفشى المَرض خلال العصور الرومانية أكثر مما كان عليه من قبل، وحتى معدل عمر الأطفال، في مطلع القرن التاسع عشر في إنكلترا، لم يكن على الأرجح مختلفًا كثيرًا عما كان عليه قبل 20,000 سنة. علاوة على ذلك، اشتغل الصيادون في العصر الحجري لكسب قوتهم ساعاتٍ أقل مما اشتغله فلاحو مصر والصين وقَروِيّوهُما، أو حتى عمال المصانع في أيامنا هذه، على الرغم من انضمامهم إلى اتحادات العمال. أما بالنسبة إلى الخدمات والتسهيلات مثل الطعام الجيد، ومتع الجمال والتسلية، فقد تمتّعَ الصيادون الأوائل وجامعو النباتات برفاهية لا يستطيع أن يحظى بها إلا أغنياء أميركا اليوم. وكي يتمكن مديرٌ تنفيذيٌ في هذا العصر من قضاء يومين بين الأشجار والبحيرات

والهواء النقي، يتحتّم عليه أن يعمل في هذا الوقت خمسةَ أيام. وفي أيامنا هذه، تكدح عائلات بكاملها وتدخر لـ 30 سنة كي تحصل على امتياز رؤية بضعة أقدام مربعة من العشب خارج نوافذها. وقلةٌ هم الذين يحصلون على امتيازٍ كهذا. يقول الأميركيون: «وجبة الطعام عمادها اللحم»، وحميتهم الغذائية غنية (بعضهم يقول غنية جدًا) بالبروتينات الحيوانية، غير أن ثلثي البشر اليوم يعيشون رغمًا عنهم نباتيين. اتبعت شعوب العصر الحجري نظامًا غذائيًا ذا كمية عالية من البروتينات والنشاء القليل. ولم يكن اللحم مجمدًا أو محقونًا بالمضادات الحيوية أو الملونات الصناعية آنذاك.

غير أني لم أؤلّف هذا الكتاب بهدف الحطّ من مستويات المعيشة الأوروبية والأميركية؛ إذ لا يمكن لأحد إنكار أننا نعيش بشكل أفضل مما كان عليه أجدادُ أجدادِنا في القرن الماضي. كما لا يمكن أحدًا إنكار أن العلم والتكنولوجيا قد عملا على تطوير نوعية الغذاء والصحة، وعلى إطالة عمر الإنسان ورفاه مئات ملايين البشر. ففي قضايا مثل منع الحمل، والأمن والسلامة ضد الكوارث الطبيعية، وتسهيل عملية النقل والاتصال، تخطينا بما لا يقبل الشك حتى أكثر المجتمعات السابقة وفرةً. والمسألة الأسمى في ذهني ليست فيما إذا كان ما اكتسبناه عبر السنوات الـ 150 الأخيرة حقيقيًا أم لا، بل فيما إذا كان يتّصف بالديمومة. هل يمكن النظر إلى الوفرة الصناعية الحالية على أنها رأسٌ لِمُنْحَنٍ واحد من النهوض المادي والروحي يرتفعُ باطّراد أم أنها حدبةٌ– فُقاعة على مُنحَنًى ينزلق نحو الأسفل بعديدٍ انزلاقاته نحو الأعلى؟ أظن أن الرأي الثاني أكثر انسجامًا مع مبادئ البرهان والتأويل في الأنثروبولوجيا المعاصرة.

إن هدفي هو إظهار العلاقة بين الرفاه المادي والروحي من جهة وتكلفة/مكاسب نظمٍ متعددة لزيادة الإنتاج وضبط النمو السكاني من جهة ثانية. ففي الماضي، أدتّ الضغوط التكاثرية التي لا يمكن مقاومتها والناتجة من نقص وسائل منع حملٍ آمنة وفاعلة، بشكلٍ متكرر، إلى تكثيف الإنتاج. هذا التكثيف الذي كثيرًا ما أدى إلى استنزاف بيئي، والذي أسفر عمومًا عن نظم إنتاج جديدةٍ؛ اتخذ كلّ منها خصيصةً مُستمَدة من العنفِ المنظم والممأسس أو الكدح أو الاستغلال أو القسوة. بذلك يلوح أن ضغط الإنجاب، والكثافة السكانية، والاستنزاف البيئي

ستعطينا المفتاح لفهم تطور مؤسسة العائلة، وعلاقات الملكية، والاقتصاد السياسي، والمعتقدات الدينية بما فيها خيارات الغذاء ومحرمات الأطعمة. تدخل وسائل منع الحمل والإجهاض الحديثة هذه الصورة بوصفها عناصر جديدة حاسمة، من حيث إنها تزيل الآثار الموجعة المرافقة للأساليب السابقة بما يخصّ التعامل بشكل مباشر مع الضغوط التكاثرية من خلال التحكم بالخصوبة؛ مع أن تكنولوجيا منع الحمل والإجهاض قد أتت متأخرة للغاية. تأخذ مجتمعات الدولة الحالية على عاتقها تكثيف نمط الإنتاج الصناعي. وقد بدأنا للتوّ بدفع غرامات الاستنزاف البيئي المرتبطة بدورة التكثيف الجديدة هذه، وليس ثمة من يستطيع التكهّن بماهية الضوابط الضرورية لتجاوز حدود نمو النظام الصناعي.

أدرك أن نظرياتي في الحتمية التاريخية يحتمَل أن تثير ردة فعل غير محببة. سيُصدَم بعض القراء من الروابط السببية التي أتحدث عنها بين فينة وأخرى من نزعة أكل لحم البشر، وديانات الحب والرحمة، والنزعة النباتية، وقتل الأطفال، وتكلفة/ جدوى الإنجاب. في المحصلة، قد أُتَّهم بالسعي إلى تقييد الروح البشرية ضمن نظام مُحكَم من العلاقات الميكانيكية. لكن مقصدي هو العكس تمامًا. ذلك أن صيغة الحتمية المبهمة التي حكمت الماضي لم تكن ترمي إلى أنها ستحكم المستقبل.

قبل المضي أبعد من ذلك، عليَّ إيضاح معنى كلمة «حتمية». ففي سياق علوم القرن العشرين، ما عاد هناك من يتحدث عن السبب والنتيجة بما هما رهن علاقة ندِّيّة ميكانيكية بين المتغيرات التابعة والمتبوع لها. في الفيزياء الذرية، كان لـ «مبدأ اللانهائية» عند هايزنبرغ (Heisenberg)، في استبداله احتمالات السبب–و–النتيجة بيقينيات العلّةِ–و–النتيجة، أن بقي محتفظًا بسطوته أمدًا طويلًا. ومن حيث إن أنموذج «**استثناءٌ واحدٌ يدحضُ القاعدة**» قد فَقَد مكانته في الفيزياء، فإني، بغض النظر عن رأي الجميع، لا أنوي فرضه على الظاهرة الثقافية. وأعني بالضبط، بمقتضى العلاقة الحتمية ضمن الظاهرة الثقافية، أن المتغيرات المتشابهة في ظلّ أحوال متشابهة تميلُ إلى أن تُسفر عن نتائج متشابهة.

بما أنني أعتقد أن العلاقة بين العمليات المادية والخيارات الأخلاقية هي واحدة من المرجّحات والتشابهات أكثر مما هي نتاج اليقينيات والهويات، فلا

صعوبة لدي بالاعتقاد بمسألتيّ أن التاريخ محتومٌ سلفًا، وأن البشر قادرون على ممارسة الخيار الأخلاقي والإرادة الحرة. في الحقيقة، أُصّرُ على احتمال أن الأحداث التاريخية غير المرجحة التي تنطوي على تقلُّب غير متوقع لعلاقات السبب – النتيجة المألوفة بين العمليات المادية والقيم يمكن أن تقع، وأننا بذلك مسؤولون جميعًا عن مساهمتنا في التاريخ. ولكن أن نناقش في مسألة أننا، نحن البشر، نمتلك المقدرة لصنع ثقافة وتاريخ يتفقان ومعايير حرية اختيارنا لا يعني القول إن التاريخ هو الدليل المعبِّر واقعيًا عن تلك المقدرة. على العكس، كما سأبيّن، فإن الثقافات بالمجمل نشأت وفق المسارات المتوازية والمتقاطعة التي كان من الممكن التكهن بها من خلال الإلمام بعمليات الإنتاج، وإعادة الإنتاج، والكثافة والاستنزاف. وسأوردُ هنا كلًا من المكروه والمحبّب من المعتقدات والطقوس حول العالم.

في رأيي، لم يكن للإرادة الحرة والخيار الأخلاقي واقعيًا تأثير بليغ على الوِجهات المتبَّعة حتى الآن في تطوير نظم الحياة الاجتماعية. وإذا لم أكن مخطئًا، فإنه يتعين على أولئك المعنيين بصون الكرامة الإنسانية من تهديد الحتمية الميكانيكية الانضمام إليَّ في التأمل مليًّا في هذا السؤال: لمَ تضمنت الحياة الاجتماعية حتى الآن، بشكلٍ ساحقٍ، ترتيبات متوقعة، ولمَ تتألف من أخرى غير متوقعة؟ أنا على يقين أن إحدى أكبر عقبات ممارسة الخيار الحر لمصلحة تحقيق الأهداف المادية غير المحتملة كالسلام والمساواة ورغد العيش تكمن في فشل استصلاح العمليات التطورية المادية التي تسوّغ انتشار الحروب والتحيّز والفقر. ونتيجةً لما عهدناه من إهمال علم الثقافة، يحفل العالم بدعاةِ الأخلاق الذين يصرون على أنهم اختاروا بمحض إرادتهم ما أُرغموا على أن يكونوا عليه، بينما، في عمق لاوعيهم أدركوا أنهم اصطفّوا ضد الخيار الحرّ، فأسلَمَ الملايين ممن يريدون أن يكونوا أحرارًا أنفسهم إلى صيغ جديدة من العبودية. لتغيير الحياة الاجتماعية نحو الأفضل، على المرء أن يبدأ بمعرفة سبب انحدارها نحو الأسوأ. ولهذا أعتبرُ تجاهلَ العوامل السببية في التطور الثقافي، والاستخفافَ بالاصطفاف ضد نتيجة مرجوّةٍ شكلًا من أشكال الازدواج الأخلاقي.



1

الثقافة والطبيعة

كان المستكشفون الذين أرسلوا خلال عصر الاكتشاف الأوروبي الكبير بطيئين في وعيهم النمطَ الشمولي للنظُم والعادات. في مناطق مثل أستراليا والقطب الشمالي والأطراف الجنوبية في أميركا الجنوبية وأفريقيا، وجدوا جماعات لا تزال تعيش كما عاش الأسلاف المنسيون في العصر الحجري في أوروبا: وجدوا منها ما هو مؤلف من عشرين إلى ثلاثين شخصًا موزعين عبر أقاليم واسعة، دائمي الترحال، ومعتمدين بالكامل على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية. وعُرف عن أولئك الصيادين وجامعي النباتات أنهم أفراد من سلالات مهددة بالانقراض. وفي مناطق أخرى مثل الغابات الشرقية لأميركا الشمالية، وغابات أميركا الجنوبية وشرق آسيا، وجدوا مجموعاتٍ سكانيةً أكثر كثافة، تكاد تعيش في قرى دائمة، تعتمد على الزراعة وتتألف على الأرجح من بنية واحدة مشتركة أو اثنتين. ولكن هنا أيضًا كانت الأسلحة والأدوات من بقايا عصور ما قبل التاريخ.

على ضفاف نهري المسيسيبي والأمازون، وعلى قرى المحيط الهادئ، كانت القرى أكبر وأحيانًا تحتوي ألفًا من السكان أو أكثر. بعضها انتظم في أحلاف كما في مرحلة اقترابها من الدولة. وعلى الرغم من أن الأوروبيين بالغوا في «وحشيتهم»، فإن معظم هذه المجتمعات القروية قام بجمع رؤوس الأعداء كتذكارات، أو بشيٍّ سجناء الحرب أحياء، أو عمد إلى أكل اللحم البشري في مناسبات طقسية. وحقيقة أن الأوروبيين المتحضرين نكّلوا بالناس أيضًا – في جلسات السحر على

سبيل المثال – وأنهم لم يكونوا ضد قتل سكان مدن بكاملها أو إبادتهم، يجب أن تبقى في الاعتبار (حتى إن كان بعضهم يتقزز من تناول لحم الآخر).

في مكان ما، بالطبع، صادف المستكشفون إمبراطوريات ودولًا متقدمة بالكامل يرئسها مستبدون وفئات حاكمة، ولها جيوش دائمة تدافع عنها. وقد أغوت مثل هذه الإمبراطوريات العظمى، بمدنها وصروحها وقصورها ومعابدها وكنوزها، جميع الرحالة، مثل ماركو بولو وكولومبوس، لخوض عباب المحيطات وعبور الصحارى في المرتبة الأولى. كانت هناك الصين، الإمبراطورية الأكبر في العالم، وهي مملكة كبيرة راقية ازدرى قادتُها «البرابرةَ حمرَ الوجوه» متوسّلي الثروة الآتين من ممالك ضئيلة وراء العالم المتحضر. وكانت هناك الهند، الأرض التي عُبدت فيها الأبقار ووزّعت حصص أعباء الحياة غير المتكافئة وفقًا لما استحقّته كلُّ روح في تجسّدها السابق. ومن ثم كانت الدول والإمبراطوريات الأصلية في أميركا، وهي عوالم بذاتها، لكل منها فنونها ودياناتها المتميزة: شعوب الإنكا بحصونهم الحجرية الكبيرة وجسورهم المعلقة ومخازن الغلال الطافحة دائمًا والاقتصاد المسيَّر من الدولة. وكذلك الأزتك، بآلهتهم المتعطشة للدماء التي تُطعَم بالقلوب البشرية وبحثهم الحثيث عن الأضحيات الطازجة. وكان هناك الأوروبيون أنفسهم، بطبائعهم وخصائصهم الغريبة: شن الحروب باسم أمير السلام، البيع والشراء تحت إغراء جني الأرباح، قوتهم على الرغم من عددهم القليل وذلك بسبب تفوقهم البارع في الهندسة والحِرف الميكانيكية.

ما الذي دلَّ عليه هذا النمط من العيش؟ لماذا ترك بعض الشعوب الصيد وجمع الثمار كطريقة للحياة بينما استمرت بها شعوب أخرى؟ ومنها أولئك الذين اعتمدوا الزراعة، لماذا اقتنع بعض الآخرين بالحياة القروية بينما انتقل بعضهم الآخر بخطى ثابتة إلى مرحلة الدولة؟ ومن هؤلاء، الذين نظموا أنفسهم في دول، لماذا أسس بعضهم الإمبراطوريات في الوقت الذي فشل فيه الآخرون بالقيام بذلك؟ لماذا عبَدَ بعضُهم الأبقار بينما أطعم آخرون آلهتهم آكلةَ لحوم البشر بالقلوب البشرية؟ هل نُقل إلينا التاريخ من طريق مليار واحد أم عشرة مليارات من الحمقى والمغفلين، أم هو عبث المصادفة والعاطفة ليس إلا؟ لستُ أعتقد ذلك.

أعتقد أن هناك عملية جليّة تحكم استمرار الأشكال الثقافية الشائعة، وتستهلّ التحولات، وتحدد انتقالاتها وفق مسارات متوازية أو متقاطعة.

يتمثل لبّ هذه النظرية في الميل إلى تكثيف الإنتاج. التكثيف – باستثمار المزيد من التربة والماء والمعادن والطاقة لكل وحدة مساحية أو زمنية – الذي هو بدوره استجابة متجددة للتهديدات التي تواجه مستويات المعيشة. برزت تهديدات كهذه في الأزمنة التي سبقت تلك سببها الرئيس التغيرات المناخية وهجرات الإنسان والحيوان. وفي أزمنة لاحقة، أصبح التنافس بين الدول هو المحرِّض الأساسي. وبغض النظر عن السبب المباشر، فإن الكثافة تحقق نتائج عكسية في ما يتعلق بالإنتاج. ففي غياب التحول التكنولوجي، تؤدي حتمًا إلى استنزاف البيئة وخفض كفاءة الإنتاج من حيث إن هذا المسعى المتنامي سيُطبق عاجلًا أم آجلًا على حيوانات ونباتات وأتربة ومعادنَ ومصادر طاقة أبعد مدىً وأقل جدارة. يؤدي هبوط الفاعلية بدوره إلى مستويات معيشة متدنية إلى عكس النتيجة المرجوة تمامًا. ولكن هذه العملية لا تُحلّ ببساطة بحصول كل شخص على أقلّ قدر من الغذاء والمأوى والاحتياجات الأخرى في مقابل عمل أكثر يقدمه. وبانخفاض مستويات المعيشة، تبتكر الثقافات الناجحة وسائل فاعلة وجديدة للإنتاج تقود عاجلًا أم آجلًا إلى استنزاف البيئة الطبيعية مرة أخرى.

لماذا يقوم الناس بحل مشاكلهم الاقتصادية برفع وتيرة الإنتاج؟ من الناحية النظرية، فإن الطريقة الأسهل لتحقيق نظام غذائي عالي المردود، وحياة نشطة طويلة خالية من الكدح والتعب، ليست في زيادة الإنتاج، بل في تقليص عدد السكان. وإن حدث لسبب ما، شيء خارج عن سيطرة البشر – ولنقل، تغير مناخي غير مرغوب فيه – انخفضت إثْرَه حصة كل فرد من الموارد الطبيعية إلى النصف، فلن يحتاج الناس إلى محاولة العمل بجهد مضاعف لتعويض النقص. وبدلًا من ذلك، عليهم أن يخفضوا عدد سكانهم إلى النصف، أو – كما يجدر بي القول – قد تمكنوا فعلًا القيام بذلك حيثما لم يكن في الأمر مشكلة كبيرة لأحد.

إذ إن النشاط بين الجنسين علاقةٌ مفروضة جينيًا يعتمد عليها بقاء جنسنا، فإنها ليست مهمة سهلة أن نقلل من «المحصول» البشري. في العصور ما قبل

الصناعية، تضمن الضبط الفاعل لتزايد السكاني بذاته خفض مستوى المعيشة. على سبيل المثال، إن كان لا بد من خفض التعداد السكاني من طريق تجنب الجماع، فبشق النفس يمكن القول إن مستوى المعيشة لدى جماعة ما يمكن أن يُصان ويتنامى. وبشكل مماثل، إن وجب خفض نسبة الخصوبة عند جماعة على يد قابلات يقفزن على بطن امرأةٍ لقتل الجنين، وغالبًا ما ينتهي بقتل الأمهات أيضًا، فقد تصيبُ الناجياتُ حصةً أفضل من الطعام لكن «متوسط الأعمار» لديهن لن يتحسن. في واقع الأمر، كانت الطريقة الأكثر اتباعًا في ضبط تعداد السكان هي «قتل الأطفال الإناث». على الرغم من أن الأثمان النفسية للقتل أو تجويع طفلات المرء يمكن تمييعها بتحديدهن ثقافيًا على أنهن لسن بشرًا بعد (تمامًا كما يعرّف مناصرو الإجهاض - وأنا واحدٌ منهم - الأجنة على أنهم ليسوا أطفالًا)، فإن الأثمان المادية لتسعة أشهر من الحمل لا يمكن أن تمحى بسهولة. يجب أن نتوخى الحذر في افتراض أن معظم الناس الذين يمارسون قتل الأطفال لا يفضلون ولا يحبون رؤية أطفالهم وهم يموتون. لكن البدائل التي تخفض بشكل حادّ المستويات الغذائية والجنسية والصحية للجماعة بكاملها كثيرًا ما اعتبرت أكثر كرهًا، على الأقل في مجتمعات ما قبل الدولة.

ما أرمي إليه بالضبط هو أن ضبط التعداد السكاني غالبًا ما كان إجراء مكلفًا، إن لم يكن صادمًا، وكان أيضًا مصدرًا للتوتر الفردي، تمامًا كما ألمح توماس مالتوس (Thomas Malthus) بضرورة استمراره على مدى المستقبل الآتي بكامله (إلى أن دُحضت مقولته بابتكار الواقي الذكري المطاطي). إنه الضغط - أو ضغط الإنجاب، بتعبير أكثر دقة - الذي يعلل الميل المتجدد لمجتمعات ما قبل الدولة إلى تكثيف التوالد البشري كوسيلة لحماية مستويات المعيشة العامة أو تعزيزها. لولا التكاليف الباهظة التي دُفعت من أجل ضبط التكاثر البشري، لبقيت أنواعنا إلى الأبد منظمة في فرَقٍ صغيرة، مسالمة نسبيًا، تسودها المساواة من الصيادين وجامعي الثمار. غير أن شح الوسائل الملطَّفة والفاعلة لضبط التعداد السكاني جعل من نمط الحياة هذا فاقدًا للاستقرار. أرغمتْ ضغوط الإنجاب البشري أسلافنا في العصر الحجري على الالتجاء إلى تكثيف الإنتاج استجابةً للأعداد المتناقصة من حيوانات الصيد الكبيرة نتيجة التغيرات المناخية في نهاية العصر

الجليدي الأخير. بدَوره، هيأ نمط الإنتاج المتمثل في ازدياد وتيرة الصيد وجمع الثمار لتبني الزراعة، والتي أدت بدورها إلى منافسةٍ متزايدة بين الجماعات، وزيادة الحروب، وتطور الدولة؛ ها أنا ذا ماضٍ في إكمال الحكاية.

المراجع والملاحظات

أقوم بإعداد مؤلَّف أكثر تخصصًا، Marvin Harris, *Cultural Materialism: The Struggle for a Science* of *Culture* (New York: Random House, 1979),

كي أوضح مقدماتي الفلسفية والعلمية في علاقتها بالبراديغمات البديلة. ثمة مؤلَّف سابق، Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture* (New York: Thomas Y. Crowell, 1968),

يحكي قصة تطور المادية الثقافية حتى الستينيات. الفكرة المحددة في الكتاب – المتعلق بالتطور الثقافي للتكثيف والاستنزاف – تشبه من كتب الموقف النظري لمايكل هارنر، Michael Harner, «Population Pressure and the Social Evolution of Agriculturalists,» *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 26 (1970), pp. 67-86.

الزملاء الآخرون الذين سبقوني في تأكيد العلاقة بين التكثيف والتطور الثقافي هم: Esther Boserup, *The Conditions of Agricultural Growth* (Chicago: Aldine, 1965); Robert Carneiro, «A Theory of the Origin of the State,» *Science,* vol. 169 (1970), pp. 733-738; Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications* (Cambridge: MIT Press, 1972); Philip E. Smith, «Land-use, Settlement Patterns and Subsistence Agriculture: A Demographic Perspective,» in: Peter Ucko, G. W. Dimbleby & R. Tringham (eds.), *Man, Settlement and Urbanism* (London: Duckworth, 1972); Colin Renfrew (ed.), *The Explanation of Culture Change: Models in Prehistory* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1974); Richard Wilkinson, *Poverty and Progress: An Ecological Perspective on Economic Development* (New York: Praeger, 1973); Mark N. Cohen, «Population Pressure and the Origins of Agriculture,» in: Steven Polgar (ed.), *Population, Ecology and Social Evolution* (The Hague: Mouton, 1975); Malcolm Webb, «The Flag Follows Trade: An Essay on the Necessary Integration of Military and Commercial Factors in State Formation,» in: Jeremy Sabloff & C. C. Lamberg Karlovsky (eds.), *Ancient Civilization and Trade* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1975).

ثمة اختلافات في التعريف والتوكيد والإطار قد نأَتْ بنهجي عن كلّ هؤلاء الأسلاف. مع ذلك، إذا رأى أحدُهم أو جميعهم في ما كتبتُه نسخة مكررة لنظرية يمكنهم القول إنها تخصهم، وسأكون سعيدًا بالاعتراف بأسبقيتهم في صياغتها. وللاطلاع على لمحة عن الاختلافات والتشابهات الثقافية يرجى العودة إلى كتابي التدريسي: Marvin Harris, *Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture* (New York: Random House, 1974).

[صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مترجمًا: مارفن هاريس، **مقدّسات ومحرّمات وحروب: ألغاز الثقافة**، ترجمة أحمد م. أحمد، سلسلة ترجمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017). (المحرر)]

2

القتل في عدن

درَجَ التفسير المقبول لهذا الانتقال من حياة الجماعة إلى قرى الزراعة على أن ينحو كالآتي: اضطر الصيادون وجامعو الثمار إلى قضاء جلّ وقتهم في جني ما يحتاجون إليه للأكل. لم يكن باستطاعتهم إنتاج «فائضٍ يفوق حد الكفاف»، وهكذا عاشوا على حافة الانقراض، وقاسوا الجوع والأمراض المزمنة. لهذا السبب، كان من الطبيعي – بالنسبة إليهم – أن يبحثوا عن الاستقرار وأن يعيشوا في قرى دائمة، ولكن لم تخاتلهم فكرة زرع البذار. في أحد الأيام، قرر عبقريٌّ مجهول رميَ بعض البذور في حفرةٍ، وبعد ذلك مورست الزراعة بنسقٍ منتظم ولم يضطر الناس بعد ذلك على الإطلاق إلى الخروج والتنقل بغية البحث عن الطرائد، كما أن فائض الوقت أتاح لهم الوقت للتفكير. وقد أدى هذا إلى مزيد من التطورات والاكتشافات أكثر تسارعًا في التكنولوجيا وبذلك صار الطعام كثيرًا – فهو «فائض يفوق حدّ الكفاف» – وأدى هذا في النهاية ببعض الناس إلى ترك الزراعة وأن يصبحوا فنانين وقساوسة وحكامًا.

يكمن الخلل الأول في هذه النظرية بالاعتقاد أن الحياة كانت عسيرة بشكل استثنائي بالنسبة إلى أسلافنا في العصر الحجري. توضح الدلائل الأثرية التي تعود إلى الحقبة المتأخرة من العصر الحجري القديم – حوالى عام 30,000 ق. م إلى 10,000 ق. م –، بما لا يقبل الشك، أن الصيادين الذين عاشوا في تلك الفترة تمتعوا، بمستوياتٍ عاليةٍ نسبيًا من الرخاء والأمان، ولم يكونوا هواةً أغرارًا

في العمل، فقد توصلوا إلى التحكم الكامل بعملية كسر الصخور الكريستالية وتقطيعها وتشكيلها، الأمر الذي شكل قاعدة تقانتهم، وأدى إلى تسميةٍ ملائمةٍ لهم، وهي «أسياد الصناعة الحجرية على مر العصور». وتعجز التقنيات الصناعية الحديثة عن إنتاج سكين مماثلة لتلك التي قاموا بصنعها حيث كانت رقيقة للغاية، ومشحوذة بدقة، وعرفت بسكاكين «أوراق الغار» - فقد بلغ طول إحداها إحدى عشرة بوصة لكن بسماكة لا تزيد عن أربعة أعشار البوصة، ولا يمكن تقليدها بالوسائل العصرية الحديثة. وباستخدام المخارز الحجرية الرقيقة والدقيقة وأدوات القطع المسماة بالمنقاش (أداة للنقش في المعدن والرخام)، صنعوا عظامًا مسنّنة بدقةٍ متناهية ورماحًا لصيد الحيتان من قرون الوعل، وألواحًا وسهامًا للرمي ذات أشكال دقيقة، ومآبرَ عظمية دقيقة جدًا من المفترض أنها استخدمت لصنع الملابس من جلود الحيوانات. وعلى الرغم من أن المواد التي صنعت من الخشب والألياف والجلود انتهى زمنها، فإنها بدورها كانت دون ريب تتميز بحِرَفية عالية المستوى.

على عكس الأفكار الشائعة، عرف «رجال الكهوف» كيف يبتكرون مأوى صنعيًا، واعتمد استخدامهم الكهوف والنتوءات الصخرية على الإمكانات المحلية والاحتياجات الفصلية. في جنوب روسيا، وجد علماء الآثار بقايا منازل صيادين مصنوعة من جلود الحيوانات، في حفر ذات عمق سطحي، يبلغ طولها أربعين قدمًا، وعرضها اثني عشر قدمًا. وفي تشيكوسلوفاكيا، استُخدمت الملاذات الشتوية ذات الأرضية الدائرية (قطرها 20 قدمًا) منذ أكثر من 20,000 سنة. وباستخدام الفراء لصناعة السجاد والأسرة، وإضافة إلى الكثير من روث الحيوانات المجفف أو العظام المليئة بالدهن للموقد، أتاحت مثل هذه المساكن نوعية إيواء تفوق في كثير من الجوانب شقق المدن المعاصرة.

في ما يتعلق بالعيش على حافة الجوع، من الصعب التوفيق بين صورة كهذه والكميات الهائلة من عظام الحيوانات المكدسة في مواقع قتل متعددة تعود للعصر الحجري القديم. كانت قطعان كبرى من حيوانات الماموث، والخيول، والغزلان، والرنة، والثور الأميركي تجول أوروبا وآسيا. وإن عظام أكثر من ألف

ماموث استخرجت من موقع واحد في تشيكوسلوفاكيا، وبقايا 10,000 حصان بري توزعت في فترات عدة فاصلة من على جرف صخري عال قرب سولوتريه، في فرنسا، تشهد بمدى قدرات شعوب العصر الحجري القديم على استغلال هذه القطعان بشكل منظم وفاعل. إضافة إلى ذلك، تشهد بقايا الهياكل العظمية للصيادين أنفسهم على حقيقة أنهم حصلوا على غذاء عالي القيمة بشكل غير اعتيادي.

الفكرة القائلة إن سكان العصر الحجري القديم عملوا على مدار الساعة كي يغذوا أنفسهم تبدو الآن مضحكة، وكجامعي نباتات غذائية، لم يكونوا أكثر فاعلية من قردة الشمبانزي. فقد أظهرت الدراسات الميدانية أن القردة ذات الحجوم الكبيرة أمضت في موائلها الطبيعية وقتًا كبيرًا في الاستحمام والنظافة واللعب والقيلولة، وبما يعادل الوقت الذي يمضونه في الاقتيات والطعام. وكصيادين، لابد من أن أسلافنا في العصر الحجري القديم امتلكوا في الأقل كفاءة الأسود؛ الحيوانات التي تتعاقب عليها دفقات من النشاط المكثف تتبعها فترات طويلة من الراحة والاسترخاء. وتسلط الدراسات التي تعنى بكيفية قضاء الصيادين وجامعي الثمار في الوقت الحاضر وقتهم مزيدًا من الضوء على هذه المسألة. ولا يزال ريتشارد لِي (Richard Lee) من جامعة تورونتو يحتفظ بسجل عن المدة التي يقضيها الصيادون وجامعو الثمار في الحصول على الغذاء. فعلى الرغم من أماكن سكناهم – على أطراف كالاهاري، وهي منطقة صحراوية بالكاد يمكن مقارنة خصوبتها ووفرتها مع تلك الموجودة في فرنسا خلال فترة العصر الحجري القديم المتأخرة – كان يحتاج الشخص البالغ من ساكني الغابة (Bushman) إلى أقل من ثلاث ساعات في اليوم الواحد كي يحصل على نظام غذائي غني بالبروتين والمواد المغذية الأساسية.

يمضي الماتشيغوينغا (Machiguenga)، من بستانيي منطقة الأمازون البسطاء في البيرو، والذين درسهم ألن وأورنا جونسون (Allen and Orna Johnson)، أكثر بقليل من ثلاث ساعات في اليوم الواحد للشخص البالغ في إنتاج الغذاء ليحصل لقاء هذا الجهد في أقل قدر من البروتين الحيواني الذي يحصل عليه ساكن الغابة.

في مناطق زراعة الأرز شرق جاوا[1]، وجد أن بعض الفلاحين يمضون نحو 44 ساعة أسبوعيًا في العمل في مزرعة إنتاجية - وهو شيء لا يحلم به أي رجل غابة يحترم نفسه - ونادرًا ما تناول فلاحو جاوا البروتينات الحيوانية، بينما يأكل المزارعون الأميركيون جيدًا قياسًا بساكن الغابة، بعد عملهم بين 50 و60 ساعة أسبوعيًا، والتي تعتبر أمرًا شائعًا، غير أنهم بالتأكيد لا يحظون بوقت كافٍ للراحة.

ليس في نيتي التقليل من شأن الصعوبات التي تلازم مقارناتٍ من هذا النوع. من الواضح أن العمل المرتبط بنظام محدد لإنتاج الغذاء ليس محدودًا أو مرتبطًا بالوقت المرصود للحصول على المادة الخام. إضافة إلى الوقت الذي تستغرقه معالجة النباتات والحيوانات لتتحول إلى أشكال مناسبة للاستهلاك. كما تستغرق بدورها صناعة وصيانة أدوات الإنتاج مثل الرماح والأسهم والشبكات وعصي الحفر والسلال والمحاريث وقتًا كثيرًا. ووفقًا لتقديرات جونسون، فإن الماتشيغوينغا يكرسون نحو ثلاث ساعات إضافية في اليوم لتحضير الطعام وتصنيع المواد الضرورية كالثياب والأدوات والمأوى. وفي مشاهداته لسكان الغابة، التقى ريتشارد لِي امرأة استطاعت أن تجمع في يوم واحد ما يكفي من الطعام لإطعام عائلتها ثلاثة أيام، وأنها إضافة إلى ذلك أمضت ما تبقى من وقت يومها في الراحة، وإمتاع الضيوف، والتطريز أو في زيارة مخيمات أخرى. «لكل يوم في البيت، يحتل روتين المطبخ كالطبخ وتهشيم المكسرات وجمع حطب التدفئة وجلب الماء من ساعة إلى ثلاث ساعات من وقت هذه المرأة».

يؤدي الدليل الذي اقتبسته أعلاه إلى نتيجة واحدة: نتجَ عن تطور الزراعة مقدار عمل متزايد للفرد الواحد، ولهذا سبب وجيه. فالزراعة هي نظام إنتاج غذاء يمكنه استيعاب حجمَ عملٍ أكثر بكثير لكل وحدة مساحية من الأرض مما يمكن للصيد وجمع الثمار استيعابه؛ إذ يعتمد الصيادون وجامعو النباتات بشكل أساسي على المعدل الطبيعي لتكاثر النبات والحيوان، ويمكنهم القيام بالقليل القليل حيال زيادة الناتج لكل وحدة مساحية من الأرض (على الرغم من أنهم قادرون على إنقاصها بسهولة). من جهة أخرى، يتحكم الناس بواسطة الزراعة بمعدل تكاثر

---

(1) من الجزر الإندونيسية. (المترجم)

النبات. وهذا يعني أن من الممكن زيادة كثافة الإنتاج من دون عواقب عكسية مباشرة، خصوصًا عند توفّر التقنيات لمواجهة خطر استنزاف التربة.

يكمن مفتاح معرفة عدد الساعات التي يقضيها أناسٌ مثل سكان الغابة في الصيد والزراعة في وفرة الوصول إلى موارد النبات والحيوان المتوافرة لديهم وإمكانه. ما دامت الكثافة السكانية – وبالتالي استغلال هذه الموارد – منخفضة نسبيًا، فإن الصيادين وجامعي الثمار سينعمون بوقت تسلية ونظام غذائي ذي نوعية عالية. سيكون افتراض أن حياة أسلافنا كانت «قصيرة وكريهة وبهيمية» صحيحًا فقط إذا افترض المرء أن بشرَ العصر الحجري كانوا غير راغبين أو غير قادرين على الحدّ من كثافتهم السكانية. لكن هذا الافتراض لا مبرر له. فلدى الصيادين وجامعي الثمار دافع كبير للحد من النمو السكاني، ولديهم وسائل فاعلة للقيام بهذا.

ثمة ضعف آخر يشوب النظرية القديمة في الانتقال من مرحلة الصيد وجمع الثمار إلى مرحلة الزراعة يكمن في افتراض أن البشر ينشدون بشكل طبيعي «الاستقرار». وبالكاد يكون ذلك دقيقًا بعد الأخذ في الاعتبار مقدار التشبث الذي أبداه سكان الغابة وسكان أستراليا الأصليين والإسكيمو تجاه طريقة حياتهم «المتنقلة»، على الرغم من الجهود الجماعية للحكومات والمبشرين الهادفة لإقناعهم بالعيش في قرى.

لكل ميزة إيجابية للعيش في القرى الدائمة جانب سلبي يقابلها. هل يتوق الناس للحياة الجماعية؟ نعم، لكنهم أيضًا يضيقون بذلك. وكما أظهر توماس غريغور (Thomas Gregor) في دراسة عن هنود الميهيناكو (Mehinacu) في البرازيل، فإن البحث عن الخصوصية الشخصية أمرٌ سائدٌ في الحياة اليومية للناس الذين يعيشون في القرى الصغيرة. ويعرف هنود الميهيناكو الكثير عن شؤون بعضهم بما يتفق ومصالحهم الخاصة. ويستطيعون معرفة ما إذا توقف شريكان على جانب طريق ما ليمارسا الجنس من آثار أقدامهما أو أردافهما. السهام الطائشة تهدي إلى البقعة التي يخفي فيها الصياد طريدته؛ الفأس المُسنَدة إلى شجرة تشي بقصة عمل لم ينجز. كما لا يمكن أحدًا دخول القرية أو الخروج منها من دون أن يعرف به

سكان القرية. على المرء أن يهمس كي ينعم بالخصوصية في بيت ذي جدران من قش ومن دون أبواب مغلقة. تمتلئ القرية بثرثرات مزعجة عن رجالٍ عاجزين جنسيًا أو سريعي القذف، وعن سلوك النساء في أثناء الجماع، وعن حجم الأعضاء الجنسية ولونها ورائحتها.

هل هناك أمان ماديّ في الأرقام؟ نعم، لكن هناك أيضًا أمان في الانتقال والحركة، وفي القدرة على تجنب المعتدين. هل ثمة ميزة إيجابية في تقاسم عمل جماعي أكبر؟ نعم، غير أن التجمعات الكبيرة للبشر تُضعف مصادر الطرائد وتَستنزف الموارد الطبيعية.

أما في ما يتعلق باكتشاف العمل الزراعي بمحض المصادفة، فلم يكن الصيادون وجامعو الثمار أغبياء إزاء سلسلة كهذه كما يرد في النظرية القديمة. وتشهد التفاصيل التشريحية لرسومات الحيوانات الموجودة على جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا على شعبٍ تطورت قدرات الملاحظة لديه لتصل الدقةَ التامة. كما ارتقى إعجابنا بذكاء هذه الشعوب إلى مراتب أعلى باكتشاف ألكسندر مارشاكس (Alexander Marshaks) بأن الخربشات غير الواضحة على سطوح عظامٍ وأدواتٍ من قرون الوعل عمرها 20,000 سنة كانت قد دُوِّنَتْ لتتبع أطوار القمرِ وظواهر فلكية أخرى. فمن غير المنطقي لشعبٍ قام برسم لوحات جدارية على جدران كهف لاسكو (Lascaux) في فرنسا، وكان على قدر كافٍ من الذكاء لتدوين سجلات التقويم، أن يكون جاهلًا بالأهمية البيولوجية للأدران والبذار.

تكشف الدراسات عن الصيادين وجامعي الثمار في يومنا هذا وفي الماضي القريب أن الاستغناء عن ممارسة الزراعة لم يكن نقصًا في المعرفة، بل كان مسألة تكيُّف. وببساطة، عندما كان هنود كاليفورنيا يجمعون جوز البلوط، على سبيل المثال، فمن المرجح أنهم حصلوا على مواسم حصاد أكبر وأغنى من الناحية الغذائية مما قد كانوا سيحصلون عليه من زراعة الذرة. وعلى الساحل الشمالي الغربي، جعلت الهجرات السنوية الكبرى لأسماك السلمون وأسماك الشمع من العمل الزراعي شبه مضيعة للوقت. وغالبًا ما يُظْهِرُ الصيادون وجامعو الثمار كافة المهارات والتقنيات الضرورية لممارسة الزراعة باستثناء المرحلة التي تحتاج إلى

التأني والدراسة. وسنة بعد أخرى، عادت قبائل شوشوني (Shoshoni) والبايوت (Paiute) في نيفادا وكاليفورنيا إلى منابتِ الحبوب البرية والأدران نفسها، وامتنع أناسها برفقٍ عن تعريتها، وأحيانًا قاموا بريّها أو إزالة العشب الضار من حولها. وقد قام الكثير من الصيادين وجامعي الثمار باستخدام النار عمدًا لزيادة نمو الأنواع المفضلة وإعاقة نمو الأشجار والأعشاب الضارة.

ختامًا، تشير بعض أهم الاكتشافات الأثرية في السنوات الأخيرة إلى أن القرى الأولى في العالم القديم قد بنيت من حوالى 1000 إلى 2000 سنة قبل تطور الاقتصاد الزراعي، بينما تمّ تأهيل النباتات في العالم الجديد قبل أن تبدأ حياة القرية بكثير. وبما أن الأميركيين الأوائل عرفوا تلك الفكرة آلاف السنين قبل استخدامهم الكامل لها، فإنه يجب البحث خارج أذهانهم في تفسير النقلةِ من الصيد وجمع الثمار. وسيكون لي المزيد مما أقوله عن تلك الاكتشافات الأثرية لاحقًا.

ما قمت بتبيانه حتى الآن هو أنه ما دام الصيادون وجامعو الثمار أبقوا تعدادهم السكاني منخفضًا مقارنة بصيدهم، فإنهم بذلك نعموا بمستوى معيشة يُحسدون عليه. والسؤال هو: كيف حافظوا على انخفاض تعداد سكانهم؟ ويبرز هذا الموضوع بإلحاح على أنه الحلقة المفقودة الأكثر أهمية في محاولة فهم تطور الثقافات.

حتى في الموائل المفضلة نسبيًا، والتي تود فيها مجموعات وقطعان الحيوانات بوفرة، يُرجَّح أن شعوب العصر الحجري سعتْ على ألا يرتفع عدد سكانها فوق شخصٍ أو اثنين في الميل المربع. وبتقدير ألفرد كروبر (Alfred Kroeber) فإن صيادي الثور الأميركي من هنود الكري (Cree) والأسينيبوين (Assiniboin) – في السهول والبراري الكندية – الذين امتطوا خيولهم وتزودوا ببنادقهم، جعلوا كثافتهم أقل من شخصين في الميل المربع. وقد حافظت مجموعات أقلّ تكيفًا من الصيادين العريقين في أميركا الشمالية – مثل شعب النسكابي في منطقة لابرادور وإسكيمو نوناميوت، التي كانت تعتمد على حيوان الرنة في أميركا الشمالية – على كثافة أدنى من 3 أشخاص في الميل المربع. وفي العصر الحجري المتأخر يرجح أنه

لم يكن في أنحاء فرنسا كلها أكثر من 20,000 شخص، وربما 1600 شخص في الحد الأدنى.

ليس بمقدور الوسائل «الطبيعية» لضبط نمو التعداد السكاني شرح التباين بين تلك الكثافات المتدنية والخصوبة المحتمَلة للمرأة. يمكن معدلات النمو أن ترتفع بسهولة. وقد توصلت الجماعات التي تتمتع بالصحة، والتي لها مصلحة في زيادة معدل نموها إلى ثماني مرات من حمل المرأة الواحدة. فبين الهوتريتيين (Hutterites) وهي طائفة من المزارعين المقتدرين في غربي كندا، يبلغ معدل الولادات 10.7 للمرأة الواحدة. وللحفاظ على النسبة المئوية المقدرة (.001) للمعدل السنوي للنمو في العصر الحجري القديم، كان لا بد من أن يكون لكل امرأة معدل أقل من 2.1 من الأطفال الأحياء حتى سن التكاثر. ووفقًا للنظرية المتفق عليها جرى التوصّل إلى معدل نمو منخفض كهذا، على الرغم من الخصوبة المرتفعة، من خلال الأمراض. مع ذلك، فإن من الصعب تأييد الفكرة القائلة إن أسلافنا في العصور الحجرية عاشوا حياة حافلة بالأمراض.

لا شك في أن الأمراض كانت موجودة. ولكن كعامل فناء، ولا بد من أن هذه الأمراض كانت في العصر الحجري أقل أثرًا مما هي عليه اليوم. فقد تأثر موتُ الأطفال والبالغين بالعدوى الفيروسية والبكتيرية – مثل الزحار والحصبة والسل والسعال الديكي والرشح والحمى القرمزية – إلى حدٍ كبير بنظام الغذاء والصحة العامة للجسم، لذلك يرجح أنه كان للصيادين وجامعي الثمار في العصر الحجري معدلات تعافٍ عالية من إصاباتٍ كهذه. وتحدث معظم الأمراض المعدية المميتة – مثل جدري البقر والحمى التيفية والإنفلونزا والطاعون الدبلي والكوليرا – فقط بين المجموعات السكانية ذات الكثافة المرتفعة. وهذه أمراض مجتمعات مرحلة الدولة. وتتفشى مثل هذه الأمراض في ظروف مدينية تتسم بالفقر والازدحام وانعدام النظافة والصحة العامة. وحتى الجائحات مثل وباء الملاريا والحمى الصفراء كان يرجح أنها أقل أهمية بين الصيادين وجامعي الثمار في العصر الحجري القديم. فقد فضلوا، كصيادين، الموائل المفتوحة والجافة على الأراضي الخصبة والرطبة حيث تنتشر أمراض كهذه. وربما فعلتْ الملاريا

فعلها الكامل فقط بعد أن وفرت إزالة الأشجار من الغابات بقصد الزراعة الشروط الملائمة لتكاثر البعوض.

ما هو المعروف حقًا عن الصحة الجسدية لسكان العصر الحجري القديم؟ توفر بقايا الهياكل العظمية مفاتيح مهمة. وباستخدام مؤشرات مثل متوسط الطول وعدد الأسنان عند الوفاة، عمل جون لورانس أنجل (J. Lawrence Angel) على تطوير ملف خاص بمستويات الصحة المتغيرة في الـ 30,000 سنة التي مضت. ووجد أنجل خلال بداية هذه الفترة أن معدل طول الذكور وصل إلى 177 سنتيمترًا (أي 5 أقدام و6 بوصات)، وأن معدل طول الإناث حوالى 165 سم (أي 5 أقدام و6 بوصات). بعد 20,000 سنة، لم يتجاوز طول الذكر ما كانت عليه الإناث (أي 165 سم) في حين لم يتعدَّ معدل طول الإناث 153 سم (أي 5 أقدام فقط). ولم يستعِدْ السكان ثانية القامات التي تميزت بها شعوب العصر الحجري القديم إلا في العصور الحديثة. فقد وصل – على سبيل المثال – معدل طول الذكور الأميركيين إلى 175 سم (أي 5 أقدام و9 بوصات) في عام 1960. ويُظْهِرُ فقدان الأسنان المعدَّلَ ذاته. ففي عام 30,000 ق. م، كان معدل فقدان الأسنان عند الموتى البالغين قدره 2.2 في المئة، وفي عام 6500 ق. م وصل المعدل إلى 3.5 في المئة، وزاد معدل فقدان الأسنان إلى 6.6 في المئة خلال العصور الرومانية. كذلك يمكن أن تتدخل العوامل الجينية في إحداث مثل هذه التغيرات، فمن المعروف أن القامة وحالة الأسنان واللثة تتأثر بشدة بامتصاص البروتين، والتي بدورها تتنبأ بمدى صحة الجسم. ويخلص أنجل إلى النتيجة التالية: كان ثمة «انتكاس حقيقي قد أصاب الصحة» أعقبَ «ذروةَ» ما وصلت إليه الحال في أواخرِ العصر الحجري القديم.

كما حاول أنجل تقدير معدل عمر الوفاة في أواخر العصر الحجري القديم، حيث يثبتها في عمر 28.7 سنة للإناث. و33.3 سنة للذكور. وبما أن الأنموذج الذي يقدمه أنجل عن العصر الحجري القديم يتألف من هياكل عظمية وجدت في أنحاء أوروبا وأفريقيا كافة، فإن تقديراته عن عمر الإنسان لا تعبّر بالضرورة عن أي جماعة فعلية من الصيادين. وإذا أمكننا أخذ الإحصاءات الحيوية عن

جماعات الصيادين وجامعي الثمار على أنها تمثل مجموعات العصر الحجري القديم، تكون بذلك أنجل مغلوطة إلى الحد الأدنى. إذ تظهر الدراسات التي أجرتها نانسي لي هويل (Nancy Lee Howell) عن 165 امرأة من سكان الغابة من قبائل الكانغ أن توقُّع الحياة عند الولادة 32.5، وهذا ما يمكن مقاربته مع أرقام العديد من الأمم الحديثة النامية في أفريقيا وآسيا. وكي نضع هذه المعلومات ضمن منظور مناسب، فإن توقُّعَ معدل الحياة عند الولادة بحسب شركة « متروبوليتان للتأمين على الحياة» (Metropolitan Life Insurance) عند الذكور غير البيض في الولايات المتحدة الأميركية في عام 1900 كان 32.5 سنة أيضًا. وبذلك، كعالم في الخصوبة السكانية للعصر القديم اقترح دون دوموند (Don Dumond) أن هناك إشارات تقول إن «معدل الوفيات لم يكن في ظروف الصيد أكثر تأثيرًا مما هو عليه في طور حياة الاستقرار، بما فيها الزراعة». قد تعني زيادة المرض المرافقة لحياة الاستقرار «أن معدلات وفاة الصيادين غالبًا ما كانت أدنى بكثير» من المعدلات الموجودة لدى شعوب الزراعة.

على الرغم من أن فترة الحياة ذات 32.5 سنة تبدو قصيرة للغاية، إلا أن القدرة التكاثرية حتى عند النساء اللواتي يعشن 28.7 سنة (بالنسبة إلى أنجل) هي عالية للغاية. فإذا كانت امرأة من العصر الحجري قد حبلتْ بطفلها الأول وهي في الساسة عشرة من عمرها، ومن ثم أنجبتْ طفلًا حيًا كل سنتين ونصف بعد حملها الأول، فمن السهل جدًا أن يكون لديها أكثر من 5 ولادات حية قبل إتمامها التاسعة والعشرين. وهذا يعني تقريبًا أن ثلاثة من كل خمسة أطفال في العصر الحجري لم يقيض لهم البقاء أحياء حتى بلوغ سن التكاثر فيما لو بقي المعدل التقديري للنمو السكاني البالغ أقل من «.001» على حاله. باستخدام هذه المعطيات الإحصائية، يستنتج عالم السكان الأنثروبولوجي فكري حسن أنه حتى لو كانت نسبة 50 في المئة من وفيات الأطفال قد وقعت لأسباب طبيعية، فإن نسبة مئوية أخرى تراوح بين 23 و35 في المئة من جميع الذرية المتوقَّعة كان سيتم «شطبها» لتحقيق نمو سكاني مقداره 0 في المئة.

أيًا يكن، تُظهر هذه التقديرات أنها تخطئ في المبالغة بعدد الوفيات جراء الأسباب «الطبيعية». وإذ نأخذ في الاعتبار الحالة الممتازة لصحة الشعب الذي درسه أنجل، والتي نَعِمَ بها أفرادُه قبل أن يصبحوا هياكل عظمية، سيساور المرء الشك في أن الكثير من الوفيات حدثت لأسباب «غير طبيعية».

كانت نسبة قتل الأطفال (Infanticide) خلال فترة العصر الحجري القديم عاليةً جدًا حيث قدر بأنها وصلت إلى 50 في المئة. وهو رقم يتفق والتقديرات التي أجراها جوزف بيردسل (Joseph Birdsell) من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس بالاعتماد على البيانات التي جمعت عن سكان أستراليا الأصليين. وقد يكون العامل المهم في قصر حياة امرأة العصر الحجري ناجمًا عن تحريض الإجهاض بغاية زيادة الفترة الفاصلة بين ولادتين.

عمومًا، افتقر الصيادون وجامعو الثمار في العصر الحديث إلى الوسائل الميكانيكية أو الكيميائية الفاعلة لمنع الحمل؛ على الرغم من وجود التراث الرومانسي عن الأعشاب المانعة للحمل. ومع ذلك، يبقى لديهم مجموعة كبيرة من الوسائل الميكانيكية والكيميائية لإحداث عملية الإجهاض. فكثير من سموم النباتات والحيوانات التي تسبب أذىً جسديًا عامًا، أو التي تُنتج تأثيرًا مباشرًا على الرحم، لإنهاء الحمل غير المرغوب فيه تستخدم حول العالم. كما يمكن توظيف كثير من التقنيات الميكانيكية لإجراء الإجهاض مثل ربط أحزمةٍ حول المعدة بشكل وثيق، أو التدليك الشديد للبطن، أو التعرض لدرجات حرارةٍ قصوى متدنية أو مرتفعة، أو الضرب على البطن، أو القفز على طرف لوح خشبي وضع على بطن المرأة إلى أن «يندفع الدم من المهبل». وتنهي كلتا الوسيلتين – الكيميائية والميكانيكية – الحملَ بشكل فاعل، غيرَ أن تلك الوسائل قد تنتهي بالقضاء على حياة المرأة الحامل. ويساورني الشك في أن تلجأ مجموعة مجرد الضغط الديموغرافي والاقتصادي الحادّ إلى الإجهاض كطريقةٍ أساسية لها في سبيل الحد من النمو السكاني.

من المحتمل أن يلجأ الصيادون وجامعو الثمار تحت الضغط إلى قتل الأطفال أو قتل كبار السن (geronticide). إن قتل كبار السن وسيلةٌ فاعلة في تقليل عدد أفراد الجماعة في الأمد القصير وفي وقت الطوارئ فحسب. وفي حالتي قتل الأطفال

وقتل كبار السن، يُعتبر القتل الفوري العمد هو الاستثناء على الأرجح. بين سكان الإسكيمو، قد «ينتحر» كبار السن، والضعفاء جدًا وغير القادرين على المشاركة والحصول على رزقهم، وذلك بالبقاء خلف الجماعة عند الانتقال، على الرغم من أن الأطفال يساهمون بشكل فاعل في وفاة آبائهم عبر تقبلهم تطلُّعًا تفرضه ثقافتهم بأن على كبار السن ألّا يكونوا عبئًا عندما يشحّ الغذاء. ففي أستراليا، وسط قبائل «مورنغين» في أراضي آرنهيم، يُقدَّم العون لكبار السن في طريقهم إلى الموت وذلك بمعاملتهم كأنهم موتى مسبقًا عندما يصيبهم المرض؛ تبدأ الجماعة بأداء طقوسها الأخيرة، ويستجيب الطاعن في السن برفع وتيرة مرضه. ويستهِلُّ قتلُ الأطفال سلسلةً مكتملة تبدأ بالقتل الفوري وتنتهي بمحض الإهمال. وقد يخنق الأطفال، أو يتم إغراقهم، أو رطمهم بصخرة، أو تعريضهم للعناصر الطبيعية. والأكثر شيوعًا، «القتل» عن طريق الإهمال: لا تولي الأم طفلها الاهتمام الكامل إن أصابه المرض، ترضعه أقلّ مما يجب، كما تمتنع عن محاولة إيجاد الأطعمة المغذية، أو تتركه يسقط «سهوًا» من بين ذراعيها. فلدى نساء الصيادين وجامعي الثمار الجرأة والرغبة في توسيع الفارق العمري بين أطفالهن بما أنهن سيبذلن جهدًا كبيرًا للغاية لمجرد حملهم والتنقل بهم خلال اليوم. قام ريتشارد لِي بحساب أن فترة أكثر من أربع سنوات من حاجة الطفل إلى الأم من نساء الغابة، ستدفعها لأن تحمله مسافة تقرب من 4900 ميل في أثناء تنقلات المخيم ورحلات الاستطلاع. وليس من رغبة أي امرأة غابةٍ أن يكون لديها عبء طفلين أو ثلاثة في وقت واحد في أثناء قطع مسافة كهذه.

تمثلت الطريقة الأفضل لضبط النمو السكاني المتوفرة لدى الصيادين وجامعي الثمار في العصر الحجري بإطالة فترة السنوات التي كانت الأمّ تعتني خلالها بطفلها. وقد سلطت الدراسات الحديثة عن الدورة الشهرية التي أجرتها جانيت ماك آرثر (Janet McArthur) وروز فريش (Rose Frisch) الضوءَ على الآلية الفيزيولوجية المسؤولة عن خفض خصوبة النساء المرضعات. فبعد الولادة، لن تستمرَ المرأة ذات الخصوبة الجنسية بالإباضة إلى أن يتجاوز معدل وزن جسمها الذي يتكون من الدهون عتبةً مهمة. تمثل مثل هذه العتبة (وهي بين 20 و25 في المئة) المرحلةَ التي قد خزّنَ فيها جسم امرأةٍ ما احتياطيًا كافيًا من الطاقة على شكل دهون ليتلاءم واحتياجات الجنين

في أثناء نموه. ويتطلب حَمْلٌ عاديّ معدّلَ طاقةٍ مقداره 27,000 سعرة حرارية، وهي تعادل تقريبًا كمية الطاقة التي من الضروري أن تخزنها المرأة قبل الحمل. ويستهلكُ طفلٌ رضيعٌ نحو 1000 سعرة حرارية إضافية من أمه في اليوم الواحد، وهذا ما يجعل من الصعب عليها أن تراكمَ ما يزيد عن مخزونها من الشحوم والدهون الضرورية. ومن غير المحتمل أن تستمر المرأة بالإباضة ما دام طفلها يعتمدُ على حليبها. ويظهر أن الأمهات من نساء الغابات - وبإطالة فترة اللبأ لديهن - قادراتٌ على تأجيل الحمل أربع سنوات أخرى. تبدو الآلية ذاتها مسؤولة عن تأجيل الحيض، وهي بداية الدورة الشهرية. كلما كان معدل الشحوم عاليًا بالنسبة إلى وزن الجسم، كانت فترة الحيض أبكر. وأما عند الشعوب المعاصرة ذات التغذية الجيدة، فتقدّم سن فترة الحيض إلى نحو عمر 12 سنة، وأما لدى الشعوب التي تقف باستمرار على حافة نقص السعرات الحرارية فيستغرق الأمر عند فتاةٍ ما 18 سنة أو أكثر كي تبني مخزونها من الشحوم والدهون.

ما أجده لافتًا في هذه النظرية هو أنها تربط الخصوبة المتدنية بنظم الغذاء ذات نسبة البروتين العالية، ونسبة النشويات المنخفضة. من جهةٍ، إذا كان لا بد لامرأة أن تعتني بطفلٍ كما يجب لثلاث أو أربع سنوات، فلا بدّ من أن يكون لديها مورد بروتين عالٍ كي تدعم وتحافظ على صحتها، وقوة جسمها وتدفق إفراز الحليب. من جهةٍ أخرى، إذا قامت باستهلاك الكثير الكثير من النشويات، فسيزداد وزنها، وهذا ما سيحرّض إباضة جديدة. تشير دراسة ديموغرافية أجراها جيروان كارل فان غينيكين (J. K. van Ginneken) إلى أن النساء المرضعات في البلدان النامية، حيث يتألف معظم نظام الغذاء فيها من الحبوب النشوية والمحاصيل الجذرية، لا يستطعن توقع إطالة الفترة الفاصلة بين الولادات أكثر من ثمانية عشر شهرًا. مع ذلك، تتدبر نساء الغابة المرضعات، اللواتي يتبعن نظامًا غذائيًا غنيًا بالبروتينات النباتية والحيوانية وتنقصهن الموارد الغذائية النشوية، كما قلت، مانعَ الحمل لأربع سنوات أو أكثر بعد كل حمل. تشير هذه الصلة إلى أنه خلال أوقات الوفرة، يستطيع الصيادون وجامعو الثمار أن يعتمدوا على إطالة فترة اللبأ كوسيلة دفاع أساسية ضد زيادة التعداد السكاني. وعلى العكس من ذلك، سيؤدي الانخفاض في نوعية الغذاء إلى زيادةٍ في تعداد السكان. وهذا يعني واحدًا من اثنين: إما

ضرورة زيادة معدل الإجهاض وتسريعه وقتل الأطفال وإما الحاجة إلى الإفراط في تقليل حصة البروتين.

لا أقترح أن وسيلة الدفاع الكاملة ضد زيادة تعداد السكان عند أسلافنا في العصر الحجري استقرت بوسيلة اللبأ فحسب. إن معدل الزيادة السكانية الحالية عند سكان الغابة في بوتسوانا، هو 5 في المئة في السنة. ويصل هذا إلى الضعف كل 139 سنة. ولو بقيت الزيادة على هذا المعدل في 10,000 سنة الأخيرة فقط من العصر الحجري القديم، لوصل تعداد سكان الأرض بحلول عام 10,000 ق. م إلى 604,463,000,000,000,000,000,000 نسمة.

لنفترض أن فترة الخصوبة هي من عمر 16 إلى 42 سنة. فمن دون فترة إرضاع مطوَّلة، لكان من الممكن أن تحمل المرأة 12 مرة. وباتباع وسيلة اللبأ، كان سينخفض عدد حالات الحمل إلى 6 مرات. وقد ينخفض العدد إلى 5 في إثر خفض معدل الجماع لدى النساء المتقدمات في السن. وقد يُخفِّضُ الإجهاض الطبيعي وموتُ الأطفال جرّاء الأمراض والحوادث عددَ المتناسلين المحتملين إلى أربع؛ هذا أكثر باثنين من العدد المسموح به في نظام «صفر نمو سكاني» تقريبًا. ويمكن ضبط الولادتين الباقيتين بعد ذلك بقتل الأطفال العمد عن طريق الإهمال. بذلك تكون الطريقة الأنسب هي إهمال البنات الصغار، بما أن تحديدَ معدل النمو عند الشعوب التي لا تعتمد مبدأ الزوجة الواحدة يكون بشكل كامل تقريبًا وفق عدد الإناث اللواتي يصلن سن البلوغ والتكاثر.

بهذا كان باستطاعة أسلافنا في العصر الحجري الحفاظ على تعداد سكان ثابت ومستقر، غير أن ذلك ترافق مع ثمنٍ باهظٍ دفعوه، ألا وهو التخلص من الأطفال الأحياء. ويكمن هذا الثمن في خلفية فترة ما قبل التاريخ بوصفها آفة بشعة، ربما شكلت تجليًا خاطئًا في «جنة عدن».

المراجع والملاحظات

للاطلاع على وصف كامل للصياد – جامع الثمار المعاصر يمكن الرجوع إلى:
Richard Lee & I. DeVore (eds.), *Man the Hunter* (Chicago: Aldine, 1968); M. G.

Bicchieri (ed.), *Hunters and Gatherers Today* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1971).

ويمكن الرجوع إلى: Julian Steward, *Theory of Culture Change* (Urbana: University of Illinois, 1955); Elman Service, «The Prime-Mover of Cultural Evolution,» *Southwestern Journal of Anthropology*, vol. 24 (1969), pp. 396-409,

للمزيد عن نظرية «الفائض على الكفاف». للاطلاع على مؤهلات العصر الحجري القديم ينظر: Tom Prideaux (ed.), *Cro-Magnon Man* (New York: Time-Life, 1973); Alexander Marshack, *The Roots of Civilization* (New York: McGraw-Hill, 1972).

ويقول: Marshall Sahlins, *Stone Age Economics* (Chicago: Aldine, 1972)

إن الصيادين/ جامعي الثمار هم «المجتمع الرغيد الأصلي». يُنظر: Karl Butzer, *Environment and Archaeology: An Ecological Approach to Prehistory* (Chicago: Aldine, 1971),

للعلاقة بين إيكولوجيا العصر الجليدي والثقافة. عن أنماط العمل يُنظر: Richard Lee: «Problems in the Study of Hunters and Gatherers,» in: Lee & DeVore (eds.), *Man the Hunter*; «!Kung Bushmen Subsistence: An Input-Output Analysis,» in: Andrew P. Vayda (ed.), *Environment and Cultural Behavior* (Garden City: Natural History Press, 1969); Allen Johnson, «The Allocation of Time in a Machiguenga Community,» *Ethnology*, vol. 14 (1975), pp. 301-310; Wesley C. Edmondson, *Land, Food and Work in East Java,* New England Monographs in Geography, no. 4 (Armidale, NSW, Australia, 1976).

عن الميهيناكو يُنظر: Thomas A. Gregor, «Social Relations in a Small Society: A Study of the Mehinacu Indians of Central Brazil,» PhD Dissertation, Columbia University, 1969.

موضوع الإنسان الصياد/ جامع الثمار قبل التكيف للزراعة ناقشه: Mark N. Cohen, «Population Pressure and the Origins of Agriculture,» in: Steven Polgar (ed.), *Population, Ecology and Social Evolution* (The Hague: Mouton, 1975), pp. 82 ff.

لمزيد من المعلومات عن الصياد/ جامع الثمار: Alfred L. Kroeber, *Cultural and Natural Areas of Native North America* (Berkeley: University of California Press, 1939); Lee, «Problems in the Study»; Nicholas David, «On Upper Paleolithic Society,

Ecology and Technological Change,» in: Colin Renfrew, *Before Civilization* (New York: Alfred A. Knopf, 1973).

عن الديموغرافيا والأمراض والأوضاع الصحية في العصر الحجري يُنظر: Ferki Hassan: «On Mechanisms of Population Growth During the Neolithic,» *Current Anthropology*, vol. 14, no. 5 (1973), pp. 535-542; «Size, Density and Growth Rate of Hunting-Gathering Populations,» in: Polgar (ed.), *Population, Ecology*; T. A. Cockburn, «Infectious Diseases in Ancient Populations,» *Current Anthropology,* vol. 12 (1971), pp. 45-62; Corinne Wood, «New Evidence for the Late Introduction of Malaria into the New World,» *Current Anthropology,* vol. 16 (1975), pp. 93-104; George Armalegos & Allan McArdle, «Population, Disease and Evolution,» *American Antiquity*, vol. 40, no. 2 (1975), pp. 1-10; Francis Black, «Infectious Diseases in Primitive Societies,» *Science*, vol. 187 (1975), pp. 515-518; Frank Livingstone, «The Effect of War on the Biology of the Human Species,» in: Morton Fried, M. Harris & R. Murphy (eds.), *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression* (Garden City, NY: Natural History Press, 1968); Don E. Dumond, «The Limitation of Human Population: A Natural History,» *Science*, vol. 187 (1975), pp. 713-720; R. Boyd, «Urbanization, Morbidity and Natality,» in: Peter Ucko, G. W. Dimbleby & R. Tringham (eds.), *Man, Settlement and Urbanism* (London: Duckworth, 1972); Nancy Lee Howells, in: Richard Lee & I. DeVore (Cambridge: Harvard University Press, in press); Joseph Birdsell, «Some Predictions for the Pleistocene Based on Equilibrium Systems Among Recent Hunter-Gatherers,» in: Lee & DeVore (eds.), *Man the Hunter*; *Human Evolution: An Introduction to the New Physical Anthropology* (Chicago: Rand McNally, 1972); Ansley Coale, «The History of the Human Population,» *Scientific American*, vol. 231 (September 1974), pp. 41-51.

عن الإجهاض ووسائل منع الحمل الميكانيكية والكيميائية يمكن الرجوع إلى: George Devereux, *A Study of Abortion in Primitive Societies* (New York: Julian Press, 1955); Ethel Nurge, «Spontaneous and Induced Abortion in Human and Non-Human Primates,» in: Dana Raphael (ed.), *Being Female: Reproduction, Power, Change* (The Hague: Mouton, 1975).

عن قتل المسنين والانتحار يُنظر: Edward Adamson Hoebel, *The Law of Primitive Man* (Cambridge: Harvard University Press, 1954), pp. 76-79; William Lloyd Warner, *A Black Civilization* (New York: Harper & Bros, 1937).

لموضوع قتل الرضّع يُنظر: Mildred Dickeman, «Demographic Consequences of Infanticide in Man,» *Annual Review of Ecology and Systematics*, vol. 6 (1975), pp. 100-137; Anselm Balikci, «Female Infanticide on the Arctic Coast,» *Man*, vol. 2 (1967), pp. 615-625; Napoleon Chagnon, *Yanomamo: The Fierce People* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1968); M. Freeman, «A Social and Economic Analysis of Systematic Female Infanticide,» *American Anthropologist*, vol. 73 (1971), pp. 1011-1018.

عن العناية بالرضّع يُنظر: Richard Lee, «Population Growth and the Beginnings of Sedentary Life Among the !Kung Bushmen,» in: Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications* (Cambridge: MIT Press, 1972).

وللاطلاع على طريقة الإرضاع يُنظر: Rose Frisch & Janet McArthur, «Menstrual Cycles: Fatness as a Determinant of Minimum Weight for Height Necessary for Their Maintenance or Onset,» *Science*, vol. 185 (1974), pp. 949-951; Rose Frisch, «Critical Weights, A Critical Body Composition, Menarche and the Maintenance of Menstrual Cycles,» in: Elizabeth Watts, F. Johnston & G. Lasker (eds.), *Biosocial, Interrelations in Population Adaptation* (The Hague: Mouton, 1975); Gina Kolata «!Kung Hunter-Gatherers: Feminism, Diet and Birth Control,» *Science*, vol. 185 (1974), pp. 932-934; J. K. Van Ginneken, «Prolonged Breastfeeding as a Birth-Spacing Method,» *Studies in Family Planning*, vol. 5 (1974), pp. 201-208; William Divale & M. Harris, «Population, Warfare and the Male Supremacist Complex,» *American Anthropologist*, vol. 78 (1976), pp. 521-538.



3

أصل الزراعة

تميّزت الفترةُ الممتدة من 30,000 إلى 12,000 سنة الماضية بأنها ذروة ملايين السنين من التطور التكنولوجي البطيء، والتي أتقن خلالها أسلافنا في العصر الحجري بشكل تدرجي إنتاج الأدوات والوسائل لكسب قوت يومهم من خلال صيد حيوانات البر الكبيرة. هناك موائل من العالم القديم تعود إلى مئات آلاف السنين وجد فيها علماء الآثار بقايا لذوات الحوافر والزرافات والجواميس. ولعل هذه الحيوانات ماتت ميتة طبيعية أو حوصِرَت أو جرحَتها حيوانات مفترسة. خلال هذه الفترة، يُحتمل أن أسلافنا اعتاشوا على بقايا الجثث والجيف أكثر مما اعتمدوا على لحوم الثدييات الكبيرة الحجم. ولكن منذ 30,000 سنة مضت تغيرت الحال، وامتلكت مجموعات الصيادين وجامعو الثمار في كلا العالمين القديم والجديد بشكل دائم وسائل القتل والذبح حتى للحيوانات الكبيرة.

أما في أوروبا وآسيا، فقد رعت قطعان كبيرة من حيوانات الرنة والماموث والخيول والثيران الأميركية والمواشي البرية العشبَ الوافر الناتج من مياه الجليد الذائب. وأوشكت مطاردة هذه المخلوقات على التحكم بالاحتياجات الغذائية. فقد جمعَ الصيادون فرائسهم بإضرام النيران حولها، وسوقها إلى الجرف، ثم قتلها بوابل الحجارة والمقاذيف العظمية المدببة الرؤوس والحِراب والرماح والسكاكين الطويلة والأقواس والسهام. وبقي البشر والفرائس الحيوانية آلاف السنين في توازن بيئي.

بعد ذلك، منذ حوالى 13,000 سنة، أعلنت موجة من الاحتباس الحراري بداية الحقبة النهائية للعصر الجليدي الأخير. وبدأت الكتل الجليدية، التي غطت معظم نصف الكرة الشمالي على ارتفاع ميل واحد من الغطاء الجليدي، بالانحسار حتى غرينلاند. وحين أصبح المناخ أقل حدة، غزتْ غابات البتولا والأشجار الدائمة الخضرة السهولَ المعشوشبة التي كانت تغذي القطعان الكبيرة. وقد نجمت كارثة بيئية عن فقدان هذه المراعي وملحقاتها التي استحوذ عليها البشر. وانقرض الماموث الصوفي ووحيد القرن الصوفي والثيران الأميركية والأيائل الكبيرة المجترة والحمار البري الأوروبي ثم فجأة انقرض نوع بكامله من الماعز. وفي حين استمر وجود الخيول والماشية، فإن أعدادها تضاءلت في أوروبا إلى حدٍّ كبير. كما بقيت أنواع مثل وعل سايغا (saiga antelope) وثور المسك في مناطق متفرقة في أقصى الشمال. ويختلف العلماء حول الأثر النسبي للتغيرات المناخية وضراوة البشر وافتراسهم في التسبب بانقراض هذه الحيوانات. لقد كان للافتراس البشري بالتأكيد شأن في هذا، لأن الفيلة ووحيد القرن استطاعا أن يعيشا في ظلّ فترات احتباسٍ حراري سابقة نجمت عن انحسار جليدي أسبق.

تبع ذلك اندثار تقاليد صيد الطرائد الكبيرة الحجم في شمال أوروبا في فترة العصر الجليدي الوسيط، والتي كان البشر يحصلون فيها على البروتين من الأسماك والمحاريات وغزلان الغابات البرية. وتنوع نمط الغذاء إلى حدٍّ كبير في الشرق الأوسط (أي جنوب تركيا والعراق وإيران وسورية والأردن وفلسطين) حيث شارف عصر صيادي الطرائد الكبيرة على الانتهاء قبل مثيله في الشمال. هنا انتقل الناس من صيد الماشية البرية والغزلان الحُمُر إلى صيد أنواع أصغر حجمًا، مثل الخراف والماعز والوعل، وبدأوا بالاهتمام أكثر بالأسماك والسرطانات والمحاريات الأخرى والطيور والحلزون وجوز البلوط والفستق وأنواع البندق الأخرى، والبقول والحبوب البرية. وقد أطلق كِنت فلانري (Kent Flannery) من جامعة ميشيغن على النظام الغذائي هذا اسم «الطيف الواسع» من الصيد وجمع الثمار. ولم يكن لتراجع الجليد وكثافة اصطياد الطرائد الكبيرة العواقب ذاتها بالضبط في أوروبا والشرق الأوسط، غير أن كلتا المنطقتين عانتا استنزافًا بيئيًّا مشابهًا ما رفع من أثمان الحصول على البروتينات الحيوانية. وبحسب كارل باتزر

(Karl Butzer) كانت معظم بقاع تركيا وشمال شرق العراق وإيران مناطق جرداء بلا أشجار خلال العصر الجليدي الأخير، وهذا ما سهّل صيد الحيوانات التي كانت تنتظم ضمن قطعان. صحيح أن عودة الغابات، التي حدثت في نهاية الفترة الجليدية، لم تكن شاملة كما حدث في أوروبا، لكن هذا ربما جعل الأزمة البيئية في الشرق الأوسط أكثر حدةً بسبب الشحّ الناتج من انبساط البلاد وقلة التنوّع في الغابات.

بالانتقال إلى أميركا الجنوبية وأميركا الشمالية، يمكننا أن نلمس الأمر ذاته. فقد مثّلتِ المرحلة الأخيرة من العصر الجليدي الأخير ذروة الصيد المتخصص للطرائد الكبيرة في العالم الجديد. وفي مناطق مثل فنزويلا وبيرو والمكسيك وآيداهو ونيفادا، وجدَ علماء الآثار مقذوفات مدببة على شكل وريقات الأشجار ونصال، وأدوات نقشٍ تعود إلى الفترة الواقعة بين عامي 13000 و9000 قبل الميلاد. وقد ارتبط قسمٌ من هذه الأدوات بالأنواع المنقرضة من الوعول والخيول والجِمال والماموث والمستودون وزواحف الكسلان والقوارض ذات الحجوم الكبيرة. وفي الفترة الواقعة بين عامي 11000 و8000 قبل الميلاد، نشط صيادو الطرائد الكبيرة المزودون بنصال مقذوفة ذات رؤوس محززة ومخددة، على امتداد أميركا الشمالية، ولكن بحلول عام 7000 قبل الميلاد، نتج من قتل الحيوانات والتغيرات المناخية إثر انحسار الجليد انقراض كامل لاثنين وثلاثين جنسًا كاملًا من الحيوانات الكبيرة في العالم الجديد منها الخيول والثيران الأميركية الكبيرة والثيران والفيلة والجمال والوعول والخنازير وحيوانات الكسلان والقوارض الكبيرة.

ألمح بول سيسيل مارتن (Paul C. Martin) من جامعة أريزونا إلى أن أسلاف الهنود الحمر قتلوا جميع هذه الحيوانات الكبيرة، والتي تدعى بشكل جماعي «حيوانات العصر الجليدي الضخمة» (Pleistocene Megafauna) في فورة قصيرة من قتل الحيوانات المكثف. يعزو مارتن هذا الانقراض السريع إلى حقيقة أن الحيوانات لم يصطدها الإنسان قبل وصول جماعات المهاجرين من سيبيريا الذين عبروا برَّ مضائق بيرينغ منذ 11000 سنة. ومع ذلك، فإننا نعلم الآن أن اكتشاف

المهاجرين الآسيويين أميركا حدث قبل ذلك بكثير؛ في الأقل 15000 سنة وربما حتى منذ 70000 سنة. وعلى الرغم من أن نظرية مارتن في هذا الأمر قد دُحضت، فإن فكرته بشأن الانقراض السريع تستحق التفكير المتأني. وباستخدام برنامج كمبيوتر لمحاكاة معدلات القتل المتعددة التي مارستها تجمعات السكان البشرية الصغيرة الأولى، بيّن مارتن أن جميع الحيوانات الكبيرة بين كندا ومنطقة ساحل الخليج (Gulf Coast) ربما أبيدت خلال ثلاثة قرون، إذ كان الصيادون قد أتاحوا لتعداد سكانهم أن يُضاعَف كل جيل، وذلك معدل نمو مقبول ضمن الإمكانية التكاثرية لصيادي العصر الحجري القديم.

> لنتخيّل 100 هندي من العصر الحجري في إدمونتون. ينال الصيادون معدل 13 وحدة حيوانية للشخص في السنة. ويقوم شخص واحد في عائلة تتألف من أربعة أفراد بمعظم عمليات الصيد، بمعدل متوسط قدره وحدة حيوانية واحدة في الأسبوع....
>
> الصيد سهل، تتضاعف [الجماعة] كل 20 سنة إلى أن تُستَهلك القطعان المحلية وتدعو الحاجة إلى إيجاد أرضٍ جديدة. خلال 120 سنة ينمو تعداد سكان إدمونتون إلى 5409. وهم يتركزون في جبهة بعمق59 ميلًا وبكثافة 0.37 شخصًا لكل ميل مربع. وخلف هذه الجبهة، تمّ القضاء على الحيوانات الضخمة. وبمضيّ 220 سنة، فإن الجبهة التي تتاخم شمال كولورادو... في 73 سنة، تتقدم الجبهة في الأميال الـ 1000 الباقية [إلى خليج المكسيك]، وتحقق عمقًا إضافيًا من 76 ميلًا، لتصل الحدّ الأقصى المؤلف من 100,000 شخص. لا تتقدم الجبهة لأكثر من 20 ميلًا في السنة الواحدة. وخلال 293 سنة، يبيد الصيادون الحيوانات الضخمة المؤلفة من 93 مليون وحدة حيوانية.

يبقى السيناريو الذي يرسمه مارتن مفيدًا كإيضاح لهشاشة الأنواع البطيئة التوالد أمام الصيادين وجامعي الثمار الذين يقررون زيادة معدلات صيدهم نتيجة ضغوط التكاثر والتهديدات والأخطار على مستويات معيشتهم. يعتريني الشك في أن الانقراض لم يكن بسبب الزيادة الحادّة في تعداد السكان البشر، بل كان ببساطة محاولةً للحفاظ على المستويات الغذائية، والمعدلات المنخفضة لقتل الأطفال والإجهاض في مواجهة أعداد أقل من الطرائد.

بعد انحسار صيادي الطرائد الكبيرة في العالم الجديد، بدأت الثقافات بالظهور في الأميركيتين حيث كانت نظم الغذاء والقوت فيهما مشابهة لتلك الموجودة عند صيادي وجامعي الثمار في «الطيف الواسع» في الشرق الأوسط. وتتضح تفاصيل عملية زيادة الكثافة والاستنزاف أشد الوضوح في الدراسات الهامة التي أجريت في وادي تيخواكان بإشراف ريتشارد ماكنيش (Richard MacNeish) من متحف بيبودي لعلم الآثار. يقع وادي تيخواكان، وهو منخفَض ضيق طويل، في الجزء الجنوبي الشرقي من ولاية بيوبلا المكسيكية على ارتفاع 4500 قدم، ومحاطٌ بجبال شاهقة تعطي الوادي مناخًا حارًا وجافًا. هنا، خلال الفترة الأخويريادية (7000–5000 ق. م)، استمرّ صيدُ الخيول والوعول إلى أن انقرضت. ثم كثف الصيادون قنص الأرانب البرية والسلاحف العملاقة، وما لبثت هذه الأنواع أن انقرضت. ووفق تقديرات ماكنيش، احتوت اللحوم في هذه الفترة، ما بين 89 و76 في المئة من مقدار السعرات الحرارية لدى الصيادين في أقصى وأدنى فصول السنة. وخلال حقبات الريغو (El Riego) (5000–3400 ق. م)، والكوكيكاتلان (Coxcatlan) (2400–2300) ق. م والأبيخاسية (Abejas) (2300–1850 ق. م) اللاحقة، انخفضت النسبة المئوية للسعرات الحرارية الفصلية المتحصَّلة من اللحوم (في الذروة وفي الانخفاض) إلى 69–31، 62–23، 47–15 في المئة على التوالي. وبحلول عام 800 قبل الميلاد، عندما أُنشئت أخيرًا القرى الدائمة، التي اعتمدت على الزراعة، انخفضت السعرات الحرارية المتحصَّلة من البروتين الحيواني على نحو أكبر، كما اختفى افتراضًا الفرق في عادات تناول الطعام بين فصول الصيد عن غيرها من الفصول. أخيرًا كما سنرى لاحقًا، كان اللحم في المكسيك القديمة يُعتبر ترفًا وكان إنتاجه واستهلاكه سبب قيام بعض أكثر المؤسسات وحشيةً في تاريخ البشرية.

كان الانخفاض الحادّ في نسبة البروتين الحيواني في نظام تيخواكان الغذائي نتاج سلسلة متواصلة من الكثافة والاستنزاف، ترافقت مع تحديثات على تقنية الصيد. فكلما نضب نوعٌ من الحيوانات، حاول الصيادون تعويض العائد المنخفض في الجهد الذي بذلوه وذلك باستخدام أسلحة صيد وتقنيات أكثر فاعلية. فاسْتُخدِمت الحراب والرماح والأقواس وسهام الريش لوفرتها لا لفائدتها، وكلّها لم تكن ذات جدوى.

وفقًا لتقديرات ماكنيش، كانت فاعلية العمل (وهي السعرات الحرارية التي يحصل عليها المرء في مقابل كل سعرة حرارية يستهلكها) في مطاردة الأرانب في خلال الفترة الأخويريادية سعرتين ونصفًا مقابل سعرة واحدة مستَهلَكة. ففي بدايات هذه الحقبة كان كمين الرماة يبدأ بفاعلية 3.2 مقابل سعرة واحدة، لكنها انخفضت إلى 1:1 في الحقبة الأبيخاسية ثم تلاشت كليًا. وبدأت مطاردة الغزلان بالسهام بـ 1:7 لكنها انخفضت إلى 1:4 عندما أصبحت هذه الحيوانات أقل وفرة. أتاح القوس والسهم في ما بعد فاعلية عالية تقدر بـ 1:8 أو 1:9 لكن قبيل ذلك الوقت، كان الصيد شحيحًا لدرجة أن اللحم لم يسهم إلا قليلًا في النظام الغذائي.

ولأنهم خاضوا معركتهم طويلة الأمد والمهدورة في مواجهة عواقب استنزاف أنواع من الحيوانات، غيّر شعب تيخواكان قوتهم الأساسي بالتدريج من الحيوانات إلى النباتات. ونتج من تكثيف الإنتاج النباتي نسبةً بطيئة التزايد من النباتات المحلية في «الطيف الواسع» والتي تم الحصول عليها من خلال عملية جمع الثمار. قبل حقبة الريبغو، كانت مجموعات الصيد قد نجحت بزراعة القرع والقطيفة والفليلفة الحارة والأفوكادو. وأضافت الذُّرة والفاصولياء خلال حقبة الكويكاتلان، وزُرعت هذه المحاصيل بالتدريج باهتمام مع ازدياد الاستيطان ليصبح أكبر حجمًا وأكثر استقرارًا.

يقدِّرُ ماكنيش أن نسبة إسهام السعرات الحرارية للنباتات المحلية أو المزروعة لم تتجاوز 1 في المئة خلال حقبة الريبغو، و8 في المئة خلال حقبة الكويكاتلان و21 في المئة خلال الحقبة الأبيخاسية. وحتى عند نشوء أولى المستوطنات المستقرة، قدمت النباتات المزروعة و/ أو المدجنة 42 في المئة من مدخلات السعرات الحرارية.

وكما في حالة الصيد، أدى تكثيف المزروعات إلى سلسلة من التطورات التقنية في البستنة، أو الاهتمام الأولي بالمزارع الصغيرة، لتليها الزراعة الواسعة التي أصبحت تعتمد أكثر فأكثر على الري. تطورت «فاعليات العمل» لنظم إنتاج الغذاء المختلفة هذه، من 1:10 إلى 1:30، ثم إلى 1:50. لا يناقش ماكنيش إمكانية أن التراجع المتلاحق في «فاعلية العمل» ساعد في حدوث نقلات في الزراعة والري. ولن أصرّ أن مثل هذا التراجع ضروري دائمًا لتفسير الانتقال إلى

أشكال فاعلة من الزراعة. وفي المحصلة يمكن تعويض الانخفاض في إنتاج البروتين الحيواني فقط عن طريق زيادة ناتج البروتينات النباتية. النقطة الأهم هي أن سلسلة 9000 عام من التكثيف، ثم الاستنزاف، فالابتكارات التكنولوجية أدت إلى التراجع العام في إجمالي الحالة الغذائية، على الرغم من أن الزراعة والري كانا أكثر إنتاجية من البستنة بخمسة أضعاف لكل فرد في الساعة الواحدة.

من الواضح أن انقراض السلسلة الحيوانية الكبرى في العصر الجليدي الأقرب كان بداية للانتقال إلى نمط إنتاج يعتمد على الزراعة في كلا العالمين القديم والجديد. لكن السلسلتين تنطويان على اختلافاتٍ حيوية لفهم التاريخ البشري اللاحق. لم تُبْنَ قرى وادي تيخواكان إلا بعد عدة آلاف من السنين من تدجين النباتات الأولى. وهذا ما كانت عليه السلسلة عبر الأميركيتين. (وربما بنيت قرى في البيرو على يد صيادي الثدييات البحرية في أزمنة غابرة، غير أنها لم يكن لها دور في سلسلة التطور الثقافي الأساسية). في العالم القديم عُكِسَت هذه السلسلة. فحيث بنى الناس قراهم في البداية أهّلوا، بعد 2000 سنة، النباتاتِ البريةَ التي كانوا يجمعون بذورها للزراعة. ولفهم هذا الاختلاف، علينا أن نلقي نظرة أكثر دقة إلى أشهر منطقتين: **أولهما** الشرق الأوسط، و**ثانيهما** أميركا الوسطى (وسط أميركا والمكسيك).

معروفٌ عن قرى الشرق الأوسط أنها بنيت بالتزامن مع نمط معيشة تضمنت جمع بذار الشعير البري والقمح وأعشاب أخرى. وكانت هذه البذار تنضج في غضون ثلاثة أسابيع أواخر الربيع. ولا تلبث أن تنمو سيقان القمح البري في الأناضول بكثافة ما يكفي لفردٍ يستخدم منجلًا حجريًا ذا نصل صوّانيّ أن يحصد ما يزيد على رطلين من الحبوب في الساعة، أو لعائلة من جامعي الثمار المحترفين أن يحصدوا أكبر قدر ممكن من الحبوب خلال ثلاثة أسابيع لأنهم سيحتاجون إلى ذلك سنة كاملة. كما بنى الصيادون وجامعو الثمار في «الطيف الواسع» قراهم الدائمة لتوفير مكان لتخزين الحبوب، وطحنه إلى دقيق، ومن ثم صنع كعك أو عصيدة منه. لقد كانت منازلهم وجدرانهم وحفر التخزين وأفران الشيّ (لنزع القشور) والطواحين الثقيلة (لصنع الدقيق) استثمارًا كبيرًا، خلافًا للمخيمات الموقتة، ولم يكن من السهل التخلي عنه.

في جبل الكرمل في فلسطين [وردت في الأصل الأجنبي «إسرائيل»]، على سبيل المثال، قام الصيادون وجامعو الثمار ما قبل التاريخ، في الألفية الحادية عشرة قبل الميلاد، والمعروفون باسم النطوفيين (Natufians)، بنحت منخفضات على شكل حوض في مقدمة مخابئهم الحجرية، ورصفوا الأحجار، وشكلوا الدوائر الحجرية حول مواقدهم ومنازلهم. وفي وادي نهر الأردن، في موقع الملاحة الذي يقدر عمره بـ 12000 سنة، وضع مستهلكو البذور أساسات حجرية للبيوت الدائرية وجصصوا حفر التخزين. كما عُثِرَ على «المناجل» الحجرية (من الصوان) التي اكتسبت لمعانها من قَطع سويقات الحبوب البرية في هذه المواقع. يوجد دليل مشابه يعود إلى الفترة بين عامي 8000 و1000 ق. م عن حياة القرية ما قبل الزراعة في مرحلة حصاد الحبوب وشيّها أو تخزينها في كهف شاندر (كردستان، العراق) على امتداد المجرى الأعلى لنهر دجلة، وفي كريم شاهر على جنبات جبال زاغروس. ووَجَدَ علماء الآثار في تل مريبط عند أعالي نهر الفرات في سورية، بيوتًا من جدران طينية عمرها 10000 سنة، وحجارة طحن، وقدور شَيٍّ، وثمانية عشر صنفًا مختلفًا من البذور البرية، بما فيها السلالة الأصلية للقمح والشعير.

كانت سلسلة العالم الجديد مختلفة للغاية. فقد كانت أقدم نباتات العالم الجديد، تلك التي وجدها ماكنيش في تيخواكان، والتي تعود إلى9000 سنة. ثم زُرعت الأنواع البدائية من الذرة ذات الأكواز الصغيرة التي تحتوي على صفين أو ثلاثة صفوف من الحبوب منذ حوالى 7000 سنة. وحتى منذ 5400 سنة لم يكن سكان وادي تيخواكان قد بنوا المنازل الدائمة. بل شغلوا، في ذلك الحين، هذه المنازل لجزء واحد فقط في السنة، بما أن جمع الثمار شبه المتنقّل قد استمر بإمدادهم بـ 50 في المئة من النباتات المستخدمة في الطعام.

بمحض المصادفة، ستدحض مرة وللأبد سلسلة الخطوات الطويلة لكن غريبة الاختلاف إضافة إلى مجموعة النباتات المختلفة كليًا التي اندرجتْ ضمن الأطوار الزراعية الأولية في العالمين القديم والجديد، النظريةَ العتيقةَ البالية القائلة بأن تطويرًا ما قد استُمِدَّ من سابقٍ له. فلو استطاع سكان الشرق الأوسط بطريقة ما الوصول إلى تيخواكان منذ 9000 سنة، لعادوا خوالي الوفاض، ولكانت رحلتهم بكل وضوح غير ذات جدوى. فقد كان على الهنود الأميركيين أن يمضوا ألوفًا

أخرى من السنين في تحسين مخزونهم من المحاصيل وتوسيعها. يحاول بعض الدعاة المتزمتين - العلماء الذين يعتقدون أنه كان من غير المحتمل لشيء معقد كالزراعة أن يتطور بشكل مستقل أكثر من مرة - الالتفاف على غياب القمح والشعير والجاودار، أو أي نبات غذائي من العالم القديم، أو أي حيوانات مدجنة في أميركا الوسطى وذلك بالادّعاء أن **فكرة** المحاصيل نُقِلَت وليست المحاصيل بذاتها. ومع أني بيّنتُ مسبقًا أن ما يمنع الصيادين وجامعي الثمار من الانتقال إلى الزراعة ليس الأفكار بل الأكلاف/ المكاسب. إن فكرة الزراعة لا جدوى منها عندما تستطيع الحصول على كل اللحوم والخضروات التي تريد عبر الصيد وجمع الثمار لمدة ساعات قليلة في الأسبوع.

أعتقد أن سبب اختلاف السلسلتين هو أن أنواعًا مختلفة من النبات والحيوان قد وجدت في العالمين القديم والجديد بعدما أُبيدت الطرائد الكبيرة. في الشرق الأوسط، كان مزيج الحيوانات والنباتات شبيهًا بذلك، فبالاستقرار في القرى، استطاع الصيادون وجامعو الثمار في «الطيف الواسع» زيادة استهلاكهم اللحم والنباتات الغذائية على السواء. لكن الاستقرار في القرى الدائمة والمعتمدة على جمع البذار في أميركا الوسطى كان من دون لحوم.

لقد حدث أن احتوت مناطق الشرق الأوسط التي نهضت فيها الزراعة ليس على القمح والشعير والبازلاء والعدس في حالتها البرية فحسب، بل على سابقاتها من الخراف المدجنة والماعز والخنازير والماشية. وحين بنيت المستوطنات الدائمة ما قبل الزراعية، وسط حقول الحبوب الكثيفة، أجبرت قطعان الخراف والماعز البرية - التي اعتمد مصدر غذائها الرئيس على الأعشاب البرية، بما فيها الأجيال الأولى من القمح والشعير - على الاحتكاك بالقرويين. وبمساعد الكلاب، استطاع القرويون ضبط حركة هذه القطعان، وأبقيت الخراف والماعز على حواف حقول الحبوب، وسمح لها بأكل بقايا الطعام لا بأكل الحبوب الناضجة. بمعنى آخر، ما عاد الصيادون مضطرين على الإطلاق إلى السعي في طلب الحيوانات؛ فالحيوانات التي جذبتها الحقول الحافلة بالغذاء، أتت إلى حيث يعيش الصيادون.

في الواقع، كان للحبوب الناضجة أن تكون مغرية، حيث هددت الحيوانات بتخريب المحاصيل. وأعطى هذا الصيادين دافعًا مضاعفًا كما أعطاهم أيضًا فرصةً مضاعفةً لزيادة كثافة إنتاجهم من اللحم، وبذلك يهددون الخراف والماعز بالقتل الزائد ثم بالانقراض. وهذا على الأرجح ما كان يُحتمل أن يحدث لمثل هذه الأنواع، كما حدث لكثير من قبلها، لولا بدء التدجين الذي كان حركةَ الحماية الطبيعية الأعظم على مرّ العصور.

من الممكن للخطوات الفعلية التي اتخذت للحفاظ على الحيوانات من الانقراض أن تكون بسيطة. فكثير من الصيادين وجامعي الثمار والبستانيين القرويين يربي اليومَ البهائمَ كحيوانات أليفة. وكما لم يكن النقص في معرفة النباتات هو ما سبَّب تأخير تطور الزراعة، فكذلك الأمر بالنسبة إلى الحيوانات، إذ لم يكن نقص المعرفة عن الحيوانات هو الذي منع الثقافات السابقة من تربية عدد كبير من الخراف والماعز على أنها أليفة واستخدامها الغذاء لفوائد وأغراض أخرى. كانت المعوقات الأساسية تتمثل في أن السكان البشريين سينفد مخزونهم من النباتات البرية كأغذية، إذا وجب عليهم تغذية الحيوانات الموجودة لديهم. غيرَ أن زراعة الحبوب فتحت إمكانات جديدة. فالخراف والماعز تقتات على بقايا الطعام وأجزاء أخرى غير صالحة للأكل من النباتات المؤهَّلة، وكانت هذه الحيوانات تُزرب، وتُعلف ببقايا الطعام، وتُحْلب ثم تُذبح بشكل انتقائي. أما الحيوانات، التي كانت عنيفة جدًا أو ضعيفة جدًا، أو التي كان نموها بطيئًا، فكانت تؤكل قبل أن تبلغ سن التكاثر.

تفسّر هذه النظرية سبب تدجين النباتات والحيوانات في الأوقات والأماكن ذاتها في العالم القديم. كان كلا نوعي التدجين جزءًا من عملية زيادة كثافة عامة وبحجم المنطقة، وهذا ما أرسى حجر الأساس لبروز نظام إنتاج جديد. ففي قرية زاوي شيمي شاندار، إحدى أقدم قرى العراق، وجدت الخراف المدجنة منذ11000 سنة تقريبًا. ووجد الدليل على الماعز المدجن الذي يعود إلى فترة 9500–9000 سنة في علي خوش في إيران، ترافق ذلك مع نوعيات من القمح والشعير والشوفان. ووجد علماء الآثار تطابقًا من حيث التعقيد ذاته – الحيوانات والنباتات المدجنة – في جرمو، العراق، منذ 8800 سنة.

الآن، نعود إلى أميركا الوسطى. فعلى غرار معاصريهم المقرَّبين في الشرق الأوسط، استخدم الصيادون وجامعو الثمار في الطيف الواسع خلال الحقبة الأخويريادية في تيخواكان الحبوبَ على أكمل وجه، واثنان منها - الذرة والقطيفة - تم تأهيلها لاحقًا. ويلاحظ ماكنيش أن لجمع البذار كان «فاعليات عمل» تقارن بالزراعة وأنها - مثل الزراعة - قد وفرت الغلال الصالحة للتخزين. لماذا إذًا لم يستقر شعب تيخواكان قرب فصائل القطيفة البرية أو الذرة؟ هل لأنهم لم يحظوا بعباقرةٍ كي يخبروهم كيفية القيام بذلك؟ أم كان ذلك، كما اقترح أحد علماء الآثار، بسبب «تغيرات غامضة طرأتْ على النظام الاجتماعي - السياسي الذي لم تكن له علاقة بالمناخ أو كثافة السكان»؟ وهذه خيارات/ بدائل ضعيفة إذا ما فكرنا بالفرق الواضح بين أنواع الحيوان الباقية في المكسيك وتلك الموجودة في الشرق الأوسط. لم يتم تدجين الحيوانات في تيخواكان مع تدجين الذرة والقطيفة على وتيرة واحدة لسبب بسيط، وهو أن كل قطعان الحيوانات المدجنة كانت قد أصبحت منقرضة محليًا نتيجة للتغيرات المناخية والقتل المفرط. وكلما أراد شعب تيخواكان أكل اللحم، كان يحتاج إلى التنقل بحرية تبعًا لتنقلات فرائسه الموسمية؛ معظم الفرائس كانت من غزلان الغابات والأرانب والسلاحف وأنواع أخرى من الحيوانات الصغيرة والطيور. من هنا يأتي إعراضهم عن استثمار نوع الجهد الذي بذله جامعو البذور في الشرق الأدنى في بناء منازلهم، وحُفَرِ الشيّ والمخازن. ومن هنا كان تأجيلهم للحياة الكاملة في القرية حتى استهلكوا أصغر الحيوانات المتوفرة بعد أن دجنوا أنواعًا كثيرة من النباتات بزمن طويل.

لا أقصد القول إن أميركا الوسطى كانت خالية بالكامل من الأنواع المدجنة. فعلى مشارف نهاية سلسلة تيخواكان، رُبّيتْ الكلاب والديكة الرومية من أجل الطعام. لكن مردود النظام الغذائي من هذه الحيوانات لم يكن له شأن مقارنة بالحيوانات المجترة آكلة العشب في العالم القديم. بإمكان الكلاب أن تكون مصدرًا مهمًا للبروتين فقط في حال رُبّيتْ على أكل بقايا الطعام، والديك الرومي ينافس الإنسان على الحبوب. كانت حيوانات العالم الجديد التي يمكن مقارنتها فقط بالخراف والماعز هي اللاما والإلبكة، والتي بقيت بشكل استثنائي في جنوب أميركا، ولم يكن لها شأن في أطوار تشكيل الحياة القروية في أميركا الوسطى.

بالطبع، دجن هنود أميركا الجنوبية في النهاية حيوانات اللاما والإلبكة والخنازير الغينية (أيضًا غائبة من أميركا الوسطى). وشكلت هذه الحيوانات مصدرًا مهمًا للحم بالنسبة إلى شعوب الأنديز منذ حوالى 2500 ق. م فصاعدًا. ثمة شحٌّ في المعلومات عن أطوار الزراعة الأولى في الأنديز ما يكفي لتفسير سبب عدم قيام القرى ما قبل الزراعية التي اعتمدت على جمع البذور وصيد حيوانات اللاما والإلبكة شبه الداجنة. أحد الاحتمالات هو أن عملية تناسل اللاما والإلبكة كانت صعبة في الحظائر. وكان أقرب حيوان بري لها هو الفيكونيا (vicuña)، الذي كان مرغوبًا فيه للغاية من أجل صوفه، وكان هذا الحيوان صعب التدجين لأنه يرفض إقامة طقوس تقربه المعقدة من إناثه إذا كان محبوسًا. ثمة احتمال آخر في أن فصائل الكينوا البرية لم تكن منتجة ما يكفي لأن تشجع على بناء قرية بالقرب منها. غير أن سؤالًا كهذا لا يمكن الإجابة عنه ما لم تتوافر بحوث إضافية.

كان لاستنزاف الموارد الحيوانية في المناطق التي تطورت فيها زراعة العالم الجديد عواقب بعيدة الأثر، وضعت نصفي الكرة الأرضية على مسارين متشعبين ومنحت كلا المنطقتين خطوَ تطور مختلف. وهذا ما يفسر لِـمَ «اكتشف» كولومبوس أميركا ولم «يكتشف» بوهاتن أوروبا، ويفسر أيضًا لِمَ غزا كورتيز موكتيزوما بدلًا من منطقة أخرى. وتبع تدجين الخراف والماعز في العالم القديم تدجين الخنازير والأبقار والجمال والحمير والخيول. ودُمجت هذه الحيوانات في النظام الزراعي كما شكلت أساسًا للتطورات التكنولوجية الإضافية. في القرى الدائمة الاستقرار، تحول استخدام الحبوب إلى غذاء للحمير والثيران التي سُخِرت لجرِّ المحاريث وأشياء أخرى ثقيلة. ونقلت الحمولات في بادئ الأمر على مزالج، ثم على بكراتٍ، وأخيرًا على عجلات، وأدى ذلك إلى نقلٍ فاعل متزايد. والأهم من ذلك، وضع أساس الهندسة الميكانيكية وانسحب الأمرُ ذاته على كل الآلات المعقدة. أما في العالم الجديد، فاخترع الهنود الأميركيون العجلات، ربما من أجل صناعة الفخار والخزف، وبالتأكيد كلعبة، لكن تطويرها توقف بسبب نقص الحيوانات الصالحة لنقل الأحمال الثقيلة. وكانت حيوانات اللاما عديمة القيمة كوسيلة للجر والسحب، وأما الثور الأميركي - وهو حيوان صعب الترويض - فكان خارج الحدود الضيقة للزراعة الأولية وتأسيس الدولة.

لم يعنِ فشل تطوير تقنية العجلات سوى أن العالم الجديد قد تُرِكَ بعيدًا خلف عمليات الرفع والنقل والطحن والتصنيع التي أدت فيها البكرات والمسننات وأسنان الترس والبراغي والمسامير دورًا رئيسًا.

إضافة إلى ذلك، كان هناك عواقب أخرى لفائض الهِبة الحيوانية المتنوعة في نصفي الكرة الأرضية في نهاية العصر الجليدي. ولا يمكن فهم أنماط الاقتصاد السياسي والدين وأفضليات الغذاء في كلا النصفين دون الأخذ في الاعتبار دور الحيوانات الداجنة كمصدر للبروتين الحيواني. وسنبحث هذه الموضوعات في فصول أخرى.

ما بيّنتُه حتى الآن هو أن نشوء الحياة القروية كان استجابةً لاستنزاف الموارد الذي حلّ عندما زادت كثافة الاعتياش على أسلوب جمع الثمار والصيد. لكن في الشرق الأوسط، حالما أُسّس تقليد معالجة الحبوب ووسائل تخزين الحبوب، جعَلَ تحسن مستويات المعيشة ووفرة كلّ من السعرات الحرارية والبروتينات من المتعذر ألا يتحمل أو يساعد في التوسع السكاني. وقد قلّصت الأغذية المتوسطة البروتين، والعالية السعرات الحرارية من فاعلية فترات الرضاعة الطويلة كوسيلة لمنع الحمل؛ كانت النسوة أكثر ميلًا إلى الجلوس، وكان بإمكانهن العناية بالمولود الجديد إضافة إلى طفل ذي ثلاث أو أربع سنوات؛ تطلبَت المهمات الزراعية عمالة الأطفال؛ وكان يمكن أن تتمدد القرى لتشمل الأراضي العذراء. بدئًا بـ 100,000 من السكان سنة 8000 قبل الميلاد، وصل عدد سكان الشرق الأوسط على الأرجح إلى 3.2 مليونًا قبل حلول سنة 4000 ق.م بفترة وجيزة؛ أي بزيادة تقدر بأربعين ضعفًا خلال 4000 عام. استتبعتْ هذه الزيادة ضغوط مستجدة على مستويات المعيشة، مُستهِلَّةً جولة جديدة من التأزم ودورةً جديدة من استنزاف الموارد. تكشفت الثروات الحرجية عن قابلية جزئية للعطب جراء زيادة الحيوانات الداجنة. وتحولت مساحات شاسعة إلى مناطق شجيرات، وبدأت الأرض الزراعية بالاضمحلال. مجددًا، أصبحت اللحوم شحيحة، وتدنت المستويات الغذائية، وتفشّت الأمراض مع زيادة الحيوانات الداجنة، وبرز ضغط التكاثر بشكل سافر، ووقفت المنطقة بكاملها على عتبة التحولات الهائلة

التي ستؤثر في مظاهر الحياة كلها. وما كان ذلك ليحدث لولا ثمن آخر يجب أن أخوض فيه: ثمن الحروب المتنامية.

المراجع والملاحظات

يشير معظم علماء الآثار إلى بلاد الشام ومصر والأناضول وبلاد ما بين النهرين باسم الشرق الأدنى. واستخدمتُ 'الشرق الأوسط' لتحديد هذه المنطقة وذلك تماشيًا مع الاستخدام الجيوسياسي. وهنا لدينا: Pat Shipman & J. Phillips-Conroy, «Hominid Tool-making Versus Carnivore Scavenging,» *American Journal of Physical Anthropology*, vol. 46 (1977), pp. 77-86; C. K. Brain, «Some Aspects of the South African Australopithecine Sites and Their Bone Accumulations,» in: C. Jolly (ed.), *Early Man in Africa* (London: Duckworth, in press).

ويمكن الرجوع إلى: Karl Butzer: *Environment and Archaeology: An Ecological Approach to Prehistory* (Chicago: Aldine, 1971); «Patterns of Environmental Change in the Near East During Late Pleistocene and Early Holocene Times,» in: Fred Wendorff & A. Marks (eds.), *Problems in Prehistory: North Africa and the Levant* (Dallas: Southern Methodist University, 1975); Kent Flannery, «Origins and Ecological Effects of Early Domestication in Iran and the Near East,» in: Peter Ucko & G. W. Dimbleby (eds.), *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals* (Chicago: Aldine, 1969).

للتغيرات ما بعد الجليدية. ولمشكلة الحيوانات الضخمة إبان العصر الحديث الأقرب في العالم الجديد يمكن الرجوع إلى: Richard MacNeish, «Speculations About the Discovery of the New World by Paleoindians,» *American Scientist* (in press),

الاقتباس من: James G. Mosimann & Paul S. Martin, «Simulating Overkill by Paleoindians,» *American Scientist*, vol. 63, no. 3 (1975), p. 308.

أنا ممتن لـ ريتشارد ماكنيش لأنه سمح لي باستخدام مخطوطه عن الطاقة والثقافة في تيخواكان القديمة. أيضًا يمكن الرجوع إلى: Richard MacNeish, «The Evolution of Community Patterns in the Tehuacan Valley of Mexico, and Speculation about the Cultural Processes,» in: P. J. Ucko, R. Tringham & G. W. Dimbleby (eds.), *Man, Settlement and Urbanism* (Cambridge, Mass.: Schenkman, 1972),

والتقارير عن مشروع وادي تيخواكان من متحف بيبودي الأركيولوجي. وأما بشأن بدايات التدجين في الشرق الأوسط فقد اعتمدتُ على: Kent Flannery, «The Origins of Agriculture,» *Annual Review of Anthropology*, vol. 2 (1973), pp. 270-310; David Harris, «The Origins of Agriculture: Alternate Pathways Toward Agriculture,» in: C. Reed (ed.), *Origins of Agriculture* (The Hague: Mouton, in press); Jack Harlan, «Origins of Cereal Agriculture in the Old World,» in: C. Reed (ed.), *Origins of Agriculture* (The Hague: Mouton, in press); Daniel Zohary & M. Hopf, «Domestication of Pulses in the Old World,» *Science*, vol. 182 (1973), pp. 887-894; P. Ducos, «Methodology and Results of the Study of the Earliest Domesticated Animals in the Near East (Palestine),» in: Ucko & Dimbleby (eds.), *The Domestication*; Raymond Chaplin, «The Use of Non-morphological Criteria in the Study of Animal Domestication from Bones Found on Archaeological Sites,» in: Ucko & Dimbleby (eds.), *The Domestication.*

يؤمن فلانري، Flannery, «The Origins of,» p. 284

بالتغيرات الغامضة. للاطلاع على معدل النمو السكاني في العصر الحجري الحديث يمكن الرجوع إلى: Robert Carneiro & D. Hilse, «On Determining the Probable Rate of Population Growth During the Neolithic,» *American Anthropologist*, vol. 68 (1966); Philip Smith & C. Young, Jr., «The Evolution of Early Agriculture and Culture in Greater Mesopotamia: A Trial Model,» in: Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications*. Cambridge: MIT Press, 1972; Karl Butzer, *Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in Cultural Ecology* (Chicago: University of Chicago Press, 1976).

لتدجين الحيوانات في الأنديز يُنظر: J. Pires-Ferreira, E. Pires-Ferreira & P. Kaulicke, «Preceramic Animal Utilization in the Central Peruvian Andes,» *Science*, vol. 194 (1976), pp. 483-490.

وأنا أعي إمكان أن الزراعة قد تضمنت الأرز والمحاصيل الجذرية والمحاصيل الشجرية وقد نشأت بشكل مستقل في جنوب شرق آسيا. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأنموذج المحدد الذي كنتُ أستخدمه يجب أن يعدَّل وليس أن يُبْطَل استخدامه. يُنظر: William Solheim, «Relics from Two Diggings Indicate the Thais Were the First: Agrarians,» *New York Times* (12 January 1970); Vishnu-Mittre, «The

Archaeobotanical and Palynological Evidences for the Early Origin of Agriculture in South and Southeast Asia,» in: M. Arnott (ed.), *Gastronomy: The Anthropology* of *Food and Food Habits* (The Hague: Mouton, in press); Harlan, «Origins of Cereal Agriculture»; Harris, «The Origins of Agriculture».

يبدو وجود أصلٍ مستقلٍّ للزراعة في الصين أمرًا محتملًا، لكن ذلك سيعزز الأنموذج في حال إثباته. يُنظر: Ho Ping-ti, «The Indigenous Origins of Chinese Agriculture,» in: C. Reed (ed.), *Origins of Agriculture* (The Hague: Mouton, 1975).

4

أصل الحرب

يستطيع أي أنثروبولوجي سرد أسماء مجموعة من الشعوب البدائية التي يعرف أنها لم تشن حربًا قط. تتضمن قائمتي المفضلة سكان جزر الأندامان، الذين يعيشون قبالة ساحل الهند، شعب شوشوني ما بين كاليفورنيا ونيفادا، وياهغان في باتاغونيا، وهنود إرسالية كاليفورنيا، وشعب سيماي الماليزي، وتازاداي الفيليبيني الذين تمّ التواصل معهم في الآونة الأخيرة. إن وجود جماعات كهذه يشي بأن القتل بين الجماعات قد لا يكون جزءًا من ثقافة أسلافنا في العصر الحجري. ربما. لكن معظم الدلائل لا تدعم أبدًا وجهة النظر هذه. صحيحٌ أن عددًا قليلًا من الشعوب الحديثة التي تعيش في جماعة لا اهتمام لها بالحروب وتسعى لتجنبها، غير أن كثيرًا الثقافات في قائمتي تتكون من اللاجئين الذين التجأوا إلى مناطق نائية هربًا من جيرانهم ذوي ثقافة الحرب. يخوض معظم الصيادين وجامعي الثمار المعروفين اليوم للمراقبين والدارسين حروبًا بين الجماعات يحاول من خلالها أفراد جماعات من المحاربين قتل بعضهم الآخرَ عمدًا. وقد حدد وليام ديفال (William Divale) هوية سبعٍ وثلاثين مجموعة من تلك المجموعات.

يدّعي أنصار فكرة «أن الحرب بدأت مع استيطان القرى ونمو الدولة» أن الصيادين وجامعي الثمار الحديثين ليسوا تعبيرًا حقيقيًا عن شعوب ما قبل التاريخ. يرى بعض الخبراء أن جميع النزاعات المسلحة بين الصيادين وجامعي الثمار تعكس انحطاط الطرق «البدائية» نتيجةً للتواصل المباشر وغير المباشر

بين مجتمعات مرحلة الدولة، ولم يجد علماء الآثار حلًا لهذا السجال. تكمن المشكلة في أن الأسلحة التي استخدمت في حروب ما قبل التاريخ مطابقة لتلك التي استخدمت في الصيد، وحوادث الموت بسبب جَرْحِ الأعضاء المهمة جدًا لا يمكن تتبعها من خلال فحص الهياكل العظمية. ويعود الدليل على الجماجم المشوهة والتي مُثِّلَ بها حيث إنها تضررت إلى حدٍّ كبير إلى أكثر من 500,000 سنة. وقد تشوهت جماجم إنسان بكين المشهورة أسفلَ الجمجمة؛ على الأرجح كوسيلة للوصول إلى الدماغ، وهذه ممارسةٌ شائعة بين آكلي لحوم البشر في العصر الحديث، والذي يرى الكثير منهم في الدماغ وجبة شهية. لكن كيف للمرء أن يحدد أن الشخص صاحب الجمجمة قد مات في الحرب؟ إذ لا تُمارَسُ نزعة أكل لحوم البشر في يومنا هذا على الأعداء، بل على المقربين المبجلين. وفي ما يتعلق بالجماجم المتضررة، فإن الشعوب المعاصرة أمثال المانوس في غينيا الجديدة تحفظ جماجم الأقرباء وتستخدمها أيضًا في طقوسها. ومن أجل الحصول على الدليل الأثري الأول الذي يمكن الاعتماد عليه، على المرء أن ينتظر حتى قامت القرى والمدن المحصنة. وأقدمها هي أريحا ما قبل الكتاب المقدس، حيث تم بناء نظام معقد من الجدران والأبراج وخنادق الدفاع والخنادق المائية حول الحصون قبل سنة 7500 ق. م، لتؤكد دون أدنى شك أن الحرب كانت حينها وجهًا من أوجه الحياة اليومية.

في رأيي، إن الحرب ممارسةٌ موغلة في القِدم، غير أن سماتها اختلفت في حقب التاريخ وما قبل التاريخ المتلاحقة. فخلال حقبة آخر العصر الحجري القديم، تعدّلَ العنف بين الجماعات بزوال الحدود الإقليمية الصريحة أو بسبب التغيرات المتكررة لدى أفراد الجماعة بسبب التزاوج بين القبائل وتبادل الزيارات الكبير. وقد أظهرت الدراسات الإثنوغرافية أن طبيعة الإقامة لقبائل الصيادين وجامعي الثمار الحديثين النمطيين تتغير من فصل إلى آخر، أو حتى من يوم إلى آخر، بما أنَ العائلات تتنقل جيئة وذهابًا بين مخيمات أقرباء الزوج والزوجة. وفي حين يُعرَّف الناس تبعًا للمنطقة التي يولدون فيها، إلا أنهم ليسوا مضطرين إلى الدفاع عن الأرض كي يكسبوا معيشتهم. بهذا، فإن ضم منطقة إضافية من طريق الإبادة أو إلحاق الهزيمة بطرف آخر نادرًا ما يشكل دافعًا واعيًا للانضمام إلى المعركة. فعادة

ما تبدأ الجماعات النزاعَ نتيجة تراكم الأذى بين الأفراد ذوي الشأن. فإذا استطاع الأشخاص المتأذّون جمعَ عددٍ كافٍ من أقربائهم الذين يتعاطفون مع قضيتهم، أو من لحق بهم الأذى، ضدّ أفراد من الفريق المعادي، يمكن بالتالي تشكيل فصيل محارب.

ثمة مثالٌ عن حربٍ بين جماعات الصيادين وجامعي الثمار وقعت في أواخر عشرينيات القرن العشرين بين جماعات التيكلاويلا - رانغويلا والمانديبومبولا من جزر باثهرست وميلفل في شمال أستراليا. كان رجال التيكلاويلا - رانغويلا هم المحرضون على الحرب. فقد قاموا بدهن أجسادهم باللون الأبيض، وشكلوا مجموعةً محاربة، ثم أعلموا المانديبومبولا عن نيتهم في الحرب. حُدِّدَ وقت لقاء الجماعتين، وعندما التقت الجماعتان، «تبادلتا الشتائم والإهانات ثم قررتا المواجهة الفعلية في مكانٍ مكشوفٍ حيث توفرت مساحة واسعة وكافية للقتال». وعند حلول الليل - استكمالًا لقصة أرنولد بيلينغ وتشارلز والتر هارت - تبادل أفرادٌ من كلتا الجماعتين الزيارات، بما أن فريقي الحرب تضمن أقرباء من كلا الطرفين لم يعتبر أيٌّ منهم أقرباء الطرف الآخر بمثابة عدو. عند الفجر اصطفت المجموعتان في طرفين متقابلين من الأرض الخلاء. وبدأت المعارك بصراخ بعض كبار السن بمظالمهم كلّ في وجه الآخر. وقد اختيرَ فردان أو ثلاثة لغرض المراقبة الخاصة.

حين بدأ قذف الرماح، بدأ لأسباب تعتمد على نزاعات فردية.

بما أن كبار السن قاموا بمعظم عملية رمي الرماح، لم يتمتع الرماة بالدقة في الرمي.

> غالبًا ما أصيب أبرياء غير محاربين أو نساء متقدمات في السن صرخن أو شققن طريقهن بين الرجال المتحاربين، وهن يشتمن الجميع واللواتي لم تكن ردات فعلهن العكسية في تفادي الرماح والسهام بسرعة أولئك الرجال... وحالما كان يجرح أحد ما، ولو كانت عجوز كهلة، كان القتال يتوقف إلى أن يتم إسعاف الجريح من الطرفين.

لا أقصد أن أشبّهَ حرب الصيادين وجامعي الثمار بالتهريج. فقد ذكرَ وليام لويد وارنر معدلات قتلى عالية لواحدة على الأقل من مجموعة أخرى من

الصيادين وجامعي الثمار في شمال أستراليا تدعى المورنغين. فبحسب وارنر، كان 28 في المئة من وفيات ذكور المورنغين بسبب الجراح التي حدثت على أرض المعركة. وإذا أخذنا في الاعتبار أنه عندما تحدث وفاة واحدة في معركة كل عشر سنوات لدى جماعة بكاملها تحتوي على 10 ذكور بالغين فقط، فإن وفاةً واحدة في المعركة كلَّ عشر سنوات هي أقصى ما يمكن احتسابه من هذا النوع من الجثث.

يرجح أن الحرب أصبحت أكثر شيوعًا وأشدّ ضراوة بعد تطور الزراعة. وتزايد بالتأكيد عدد النزاعات؛ إذ زادت البيوت الثابتة، ومعدات معالجة وتحضير الطعام، والمحاصيل التي تنمو في الحقول من اتقاد هذا الشعور بالهوية الإقليمية. وبقيت القرى في حالة عداوةٍ عبر الأجيال، وتهاجم بعضها الأخرى بشكل متواتر وتنهب وتسعى لإلحاق الهزيمة النكراء ضد الأخريات في مناطقها. ومن المستقرين في القرى من قبائل داني (Dani)، في ويست إيريان بغينيا الجديدة، كان للحروب طور منتظم من «عدم القتال»، شبيهٌ بالطور ذاته لدى التيوي، حيث وقع القليل من الخسائر. لكن قبائل داني تبدأ أيضًا هجمات تسللية واسعة النطاق تسفر عن دمار قرى بكاملها وإلحاق هزائم نكراء كما تنتهي أيضًا بموت مئات الناس في وقت واحد. يقدّرُ كارل هايدر (Karl Heider) أن 29 في المئة من الرجال يموتون جرّاء الإصابات في الغارات والكمائن. وتشغل الغارات والكمائن بين مزارعي اليانومامو (Yanomamo) على امتداد حدود البرازيل وفنزويلا نسبة 33 في المئة من الرجال البالغين الذين يموتون لأسباب عدة. وبما أن اليانومامو هم عيّنة اختبار مهمة، فقد خصصت شطرًا كاملًا عنهم بعد هذا الفصل.

يعود السبب في إنكار بعض علماء الأنثروبولوجيا لحقيقة مستويات النزاع العالية بين شعوب القرية والجماعة إلى أن أعداد السكان المشتركين في النزاع قلائل والذين انتشروا وتفرقوا للقيام بحادثة قتل أو اثنتين بين الجماعات يبدو غير منطقي ومضيعة للوقت. فلدى المورنغين واليانومامو على سبيل المثال كثافات سكانية تصل لأقل من شخص واحد لكل ميل مربع. وحتى جماعات كهذه ذات

كثافة سكانية منخفضة هي عرضة للزيادة التكاثرية. ويوجد الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن التوازن بين الناس والموارد لا يكمن في الواقع وراء الحرب بين الجماعة والقرية، وأن سبب هذه الكارثة ينبع من عدم قدرة شعوب ما قبل الصناعة على تطوير وسائل حصيفة وقليلة التكاليف تحقق كثافات سكانية ومعدلات نمو سكانية منخفضة.

قبل أن أناقش هذا الدليل، دعوني أراجع بعض التفاسير البديلة، وأبيّن سبب اعتقادي أن أيًا من هذه التفاسير لا يفي بالغرض. ومن البدائل الأساسية **الحرب كتضامن، والحرب كلعب، والحرب كطبيعة بشرية، والحرب كسياسة.**

الحرب كتضامن: وفقًا لهذه النظرية، الحرب هي الثمن الذي يدفع إلى بناء وحدة الجماعة؛ إذ يخلق وجود عدو خارجي شعورَ الهوية في الجماعة ويعزز روح التضامن. فالمجموعة التي يحارب أبناؤها معًا يبقون معًا.

عليَّ الاعتراف أن ملامح هذا التفسير تتفق والتفسير المبنيّ على الضغط السكاني. فإذا خضعت مجموعة للضغط الناجم عن زيادة الكثافة، وانخفاض الكفاءات، وعمليات الإجهاض وقتل الأطفال المتزايدة، فإن حَرْفَ وتوجيه السلوك المتوحش باتجاه قرى وجماعات مجاورة سيكون أفضل من تركه يتقيح ضمن المجتمع. لا أشك في أن حَرفَ السلوك العنفي إلى الأجانب يستطيع أن يكون «صمام أمان». ويبقى أن ما تفشل هذه المقاربة في شرحه هو لِمَ على صمام الأمان أن يكون قاتلًا إلى هذه الدرجة. أليست الإهانات الكلامية، وتبادل السخرية، أو الرياضات التنافسية طرقًا أقل تكلفة لتحقيق هذه القوة وهذا التضامن؟ لا يمكن لادعاء «وظيفية» الذبح المشترك أن يعتمد على الميزة الغامضة للتلاحم الاجتماعي. يجب إظهار كيف أن هذا الحل المميت يمنع عاقبةً أعتى موتًا – كيف – بمعنى آخر، تفوق فوائد الحرب تكاليفها بكثير. لم ولن يُبيّن أحدٌ أن عواقب التضامن الأقل ستكون أسوأ من الموت في النزاع.

الحرب كلعبة: حاول بعض علماء الأنثروبولوجيا إيجاد توازن بين التكاليف المادية وفوائد الحروب من خلال تمثيلها كرياضة جماعية تنافسية تبعث على المتعة. إذا كان الناس بالفعل يستمتعون بتعريض أنفسهم للخطر في النزاع، فإن

الحرب دون جدوى مادية ولكنها تنطوي على قيمة نفسية، وبذلك يختفي اللغز وتنتهي الأحجية. أوافق أن الناس، خصوصًا الرجال، يربَّون على أن الحرب نشاطٌ نبيل له نكهة خاصة، ويجب أن يستمتع المرء بمطاردة أناس آخرين وقتلهم. احتفظ كثير من الهنود الفرسان – السيوكس (Sioux) والكراو (Crow) والشايان (Cheyenn) – في إقليم السهول الكبيرة بسجلات بطولاتهم ومفاخر شجاعتهم في الحرب. فصيتُ الرجال يأخذ في الحسبان عدد الضربات الموفقة. ولم يعطوا معظم النقاط للمحاربين الذين أوقعوا بالعديد من القتلى، بل لأولئك الذين تجشموا كثيرًا من الأخطار. أعظم الأعمال الفذة كان في التسلل إلى مخيم العدو والخروج منه من دون معرفة العدو وتتبعه لمن تسلل. غير أن تلقين الشجاعة العسكرية بين سكان القرية والجماعة لم يكن ناجحًا دائمًا. تكفّل الكراو وهنود آخرون من السهول الكبيرة بدعاة السلام بينهم وذلك بإلباسهم ملابس النساء وجعلهم خدمًا للمحاربين، وحتى أكثر المحاربين شجاعة، كما بين اليانومامو، كان عليهم أن يحضّروا أنفسهم عاطفيًا للنزاع، وذلك من خلال أداء طقوس معينة وتناول المخدرات. وإذا كان يمكن تعليم الناس أن يقدّروا الحربَ ليتمتعوا بمطاردة أناس آخرين وقتلهم، فللمرء أن يسلّم حينئذٍ بإمكان تعليمهم الخوف من الحرب وكرهها ودفعهم إلى التقزز من مشهد بشرٍ يحاول بعضهم قتل بعض. ويحدث كلا نوعي التلقين والاكتساب على أرض الواقع. لذلك، إذا كانت القيم التي تنزع إلى الحرب تسبب الحروب، تصبح المشكلة الأساس في تحديد الشروط التي تعلِّم الناس في ظلها تثمين الحرب بدلًا من النفور منها. وهذا ما لا تستطيعه نظرية **الحرب كلعبة**.

الحرب كطبيعة بشرية: هي الطريقة المفضلة الدائمة لدى علماء الأنثربولوجيا لتجنب معضلة تحديد الظروف التي تعتبر الحرب في ظلها شيئًا قيمًا أو مكروهًا هي في إسباغ الدافع إلى القتل على الطبيعة البشرية. تحدث الحروب لأن البشر، خصوصًا الذكور، لديهم «غريزة القتل». نقتل لأن سلوكًا كهذا أثبت فاعليته من وجهة نظر الاصطفاء الطبيعي في صراع الوجود والبقاء. غيرَ أن مفهوم **الحرب كطبيعة بشرية** يعاني صعوبات حالما يلحظ المرء أن القتل غير محبب عالميًا وأن كثافة الحروب وتكرارها أمور متباينة بشكل كبير. لا أنجح في فهم كيف يمكن المرء أن يشكّ في أن مثل هذه التباينات سببها الفروق الثقافية لا الجينية، من حيث

إن الانقلاب الجذري من السلوك الحربي إلى السلوك السلمي قد يحدث في جيلٍ أو اثنين من دون أي تغيرات جينية مهما كان نوعها. فمن المعروف لدى المعنيين المعاصرين أن هنود الـ «بيبلو» (Pueblo) في جنوب غرب الولايات المتحدة على سبيل المثال، شعوب مسالمة ومتدينة ومتعاونة وغير عنيفة. ومنذ فترة ليست طويلة، نُميَ عنهم إلى الحاكم الإسباني لـ «إسبانيا الجديدة» (New Spain) أنهم الهنود الذين حاولوا قتل كلّ مستوطن أبيض وقع بين أيديهم وأنهم الذين أحرقوا كل كنيسة في «نيو مكسيكو» (New Mexico)، بما في ذلك تقييد العديد من كهنتها إلى المذابح وتركهم في الداخل. على المرء أن يتذكر التغير المفصلي المذهل في مواقف اليابانيين تجاه النزعة العسكرية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أو بروز الناجين الإسرائيليين[1] من الاضطهاد النازي كقادة مجتمع شديد العسكرة، كي ندرك الضعف المركزي في حجة أن **الحرب طبيعة بشرية**.

من الواضح أن قدرتنا على أن نكون عدوانيين ونشن الحرب هي جزء من الطبيعة البشرية. أما كيف ومتى نصبح عدوانيين فهذا يخضع لثقافاتنا أكثر مما يخضع لجيناتنا. لتفسير أصل الحرب يجب أن يكون بمقدور المرء تفسير السبب في أن الاستجابات العدوانية تتخذ هذا التنظيم الدقيق من التقاتل بين جماعتين منظّمتين. وكما لفتَنا أشلي مونتاغيو (Ashley Montagu)، أنه حتى القتل لدى الأنواع ما قبل البشرية لم يكن نتاج العدوانية. ليس هناك دوافع أو غرائز أو نزعات داخل البشريِّ لقتلِ بشريٍّ آخر على أرض المعركة، على الرغم أنهم ضمن ظروف محددة يمكنَ أن يتعلموا فعلَ ذلك.

الحرب كسياسة. تفسير مكرَّر آخر للحرب يتضمن أن النزاع المسلح هو المآل المنطقي لمحاولة جماعة ما حمايةَ أو زيادة مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، على حساب جماعة أخرى. تنشب الحرب لأنها تؤدي إلى مصادرة الإقليم والموارد، والقبض على العبيد أو المكاسب، وتحصيل الجزية والضرائب؛ «للمنتصرِ تؤولُ المغانم». والعواقب الوخيمة التي تقع على المهزوم يمكن دمغها على أنها سوء تقدير؛ «أقدار الحرب».

---

(1) حيثما يرد مصطلح «الإسرائيليون» لدى هاريس، فإنه يعني اليهود. (المحرر)

يلقى هذا التفسير القبول المكتمل في ما يتعلق بحروب التاريخ، التي كانت أساسًا عبارة عن صراعات بين دول تتمتع بالسيادة. تنطوي حروب كتلك بكل وضوح على مسعى جزء من الدولة لرفع مستوى معيشتها على حساب الآخرين (على الرغم من أن المصالح الاقتصادية ذات الأولوية قد تكون مموَّهةً بمضامين دينية وسياسية). إن شكل المنظمة السياسية التي نسميها الدولة ظهرت إلى حيّز الوجود بالضبط لأنه كان بمقدورها القيام بحروب غزو الأقاليم والنهب الاقتصادي.

لكن حرب الجماعة والقرية تفتقد هذا البُعْد. فمجتمعات الجماعة والقرية لا تغزو المقاطعات أو تُخضع أعداءها. بافتقاد مجتمعات الجماعة والقرية المنتصرة إلى جهاز الدولة البيروقراطي والعسكري، لا يمكنها جني الفوائد على شكل الضرائب السنوية أو الجزية. وفي ظل غياب كميات كبيرة من الأغذية المحفوظة وباقي الأشياء الثمينة، فإن «غنائم» الحرب ليست ذات تأثير كبير. فاقتياد السجناء واستعبادهم ليس أمرًا عمليًا بالنسبة إلى مجتمع لا يستطيع تكثيف نظام إنتاجه من دون استنزاف قاعدة موارده كما يفتقد إلى الاستيعاب المؤسساتي لاستثمار قوة عاملة تتألف من أسرى يعانون سوء التغذية. لكل تلك الأسباب، غالبًا ما يعود المنتصرون في حروب ما قبل الدولة غالبًا إلى أوطانهم حاملين فروات الرؤوس كتذكار انتصار أو من دون أي غنائم على الإطلاق؛ باستثناء حقّ التفاخر كم كانوا رجالًا أقوياء في أثناء القتال. بمعنى آخر، إن التوسع السياسي لا يفسر الحربَ في مجتمعات الأطراف والقرى لأن معظم تلك المجتمعات لا يلجأ إلى التوسع السياسي. إن نمط وجودهم الكليّ محكوم بالمتطلّبات، لا بالتوسّع في سبيل تأمين نسبة مواتية من البشر لدعم الموارد. من هنا علينا النظر إلى إسهامات الحرب في حماية العلائق الديموغرافية والبيئية المواتية كي يتسنى لنا فهم سبب خوض غمارها من قبَل القرى والأطراف.

أول إسهام من تلك الإسهامات يتمثل في تشتيت السكان على أقاليم أوسع. في حين أن الأطراف والقرى لا تقوم بغزو أراضي بعضها الآخر كما تفعل الدولة، على الرغم من ذلك تدمّر المستوطنات ويسلب كلٌّ منها أجزاءً من موطن الطرف

الثاني الذي سيقومون باستغلاله سويةً بشكل أو بآخر. تؤدي الغارات والسلب وتدمير المستوطنات إلى زيادة معدَّل المسافة بين المستوطنات، وبالتالي تخفّض من إجمالي الكثافة السكانية.

إحدى أهم ميزات هذا التشتيت - ميزة متبادَلة بين كل من المنتصر والمهزوم - هي خلق الـ «أراضي الخلو من البشر» في مناطق هي مصْدرٌ اعتيادي للحيوانات الطّرائد والأسماك والفواكه البريّة والحطب وباقي الموارد. لأن التهديد بالكمين يجعلها بالغة الخطورة في سبيل جَنْيِ هذه الأغراض، فإن لهذه الـ «الأراضي الخلو من البشر» دور مهم في مجمل النظام الاقتصادي كمحميات لأنواع النبات والحيوان التي يُحتمَل أن تنقرض بشكل نهائي بفعل النشاط البشري. تبيّن أحدث الدراسات البيئية أنه كي تتم حماية الأنواع المهددة بالانقراض - خصوصًا الحيوانات الكبيرة الحجم التي تتكاثر بصورة بطيئة - فإن الحاجة تدعو إلى مناطقِ ملاذاتٍ شاسعة للغاية.

نتجتْ من تشتيت السكان وخلق «أراضٍ خلوٍ من البشر» الحيوية من الناحية البيئية فوائد بالغة الأهمية استُمِدّتْ من القتال بين الجماعات من أهالي القرى والأطراف على الرغم من الأثمان الناجمة عن القتال. مع تحفّظ واحد: لا يمكن للمنتصرين، وقد شتتوا مخيمات العدو ومستوطناته، أن يسمحوا لسكان مخيماتهم ومستوطناتهم بالازدياد إلى حدّ تهديد الطرائد وباقي الموارد كنتيجة للنمو والكثافة السكانية. ولا تُرضي الحربُ في ظل أحوال ما قبل الدولة هذا التحفّظ - في الأقل ليس من خلال الأثر المباشر للوفيات الناجمة عن القتال. المشكلة أن المتحاربين هم في معظم الأحيان من الذكور، ما يعني أن معظم قتلى المعارك هم من الرجال. تكلّفُ الحربُ 3 في المئة فقط من وفيات الإناث البالغات لدى الداني و7 في المئة لدى اليانومامو. أضف إلى أن مجتمعات الأطراف والقرى صانعة الحروب هي غالبًا هي مجتمعات متعددة الزوجات، ما يعني أن الزوج يعاشر عددًا من الزوجات. هكذا ليس ثمة احتمال أن الحرب وحدها ستكون كفيلة بخفض النسبة إلى درجة أن قرية وجماعة - خصوصًا في حالة الانتصار - ستنمّي، ثم تستنفد بيئتها. ويمكن أن يُسفر موت ذكور المعارك،

كقتل رحيم، عن ارتياح قصير الأمد بما يتعلق بالضغط السكاني، لكن لا يمكن أن يؤثر في المجرى العام بينما قلّةٌ من الذكور الناجين متعددي الزوجات مستمرون في معاشرة كل النساء غير المحارِبات. الحقيقة البيولوجية هي أن لمعظم الذكور فائضًا من الناحية التناسلية. وفق تعبير جوزف بيردسل، القائل إن خصوبة جماعة ما تتحدد بعدد نسائها البالغات، وليس برجالها البالغين. «من دون أدنى شك، باستطاعة ذكر مكتمل جسديًا إبقاء عشر نساء بحالة حمل مستمر». هذه مقولة محافِظة جدًا، من حيث إن الذكر سيحصل من خلال عشر مرات حَملٍ للمرأة الواحدة في المسألة السابقة على ما لا يزيد عن 100 طفل فقط في حين أنه لا تبدو هناك مشكلة بالنسبة إلى العديد من مشايخ العرب وزعماء الشرق في الوصول إلى أبوَّة ما يزيد على 500 طفل.

لكن، دعونا نتتبع منطق بيردسل؛ المنطق الهشّ على الرغم من أنه يعتمد على أنموذج افتراضي من رجل واحد وعشر نساء:

> هذا ما سيُنتج عدد المواليد نفسه كما لو أن الجماعة تألّفت من عشرة رجال وعشر نساء. لكن لو أمكننا تخيل جماعة محلية من عشر رجال وامرأة واحدة فقط، فإن معدل المواليد سيكون بالضرورة 10 في المئة من المثال السابق. **إن عدد النساء يحدد نسبة الخصوبة.**

كما سأبيّن، فإن الحرب تؤثر بشكل حاد على عدد النساء، وبالتالي سيكون لذلك أثر بالغ في الحصيلة البشرية. لكن الآلية التي تحقق هذا لم تُفهم حتى اليوم.

قبل أن أشرح كيف تحدّ الحربُ النسبةَ التي تنمو عبرها المستوطنات، أريد تأكيد مسألة واحدة. إن الأثرين الديموغرافيَين التوأمين اللذين تخلفهما الحرب في مجتمعات الطرف والقرية ليسا صفة مميزةَ للمجمَّعات العسكرية التي بلغت مستوى الدولة. أما الآن، فإني سأعالج أصل حربٍ ما قبل الدولة. ففي مجتمعات مستوى الدولة قد تُشتت الحربُ السكان، لكنها قلّما تخفّض معدل نموهم. لقد فشلتْ كلّ من الحروب الرئيسة في هذا القرن – الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، الحرب الكورية، الفيتنامية – في تقليص معدل نمو السكان المقاتلين في الأمد البعيد. في حين يصحّ أن العجز بين المتوقَّع والعدد الفعلي

للسكان في روسيا خلال الحرب العالمية الأولى وصل 5 ملايين، واستغرق الأمر عشر سنوات كي يُتغلب عليه. وإنه حتى النمو السكاني قد لا يكون عرضة للتأثّر في الأمد القصير. حدث ذلك خلال عقد الحرب الفيتنامية، حين زاد سكان فيتنام بمعدل استثنائي قدره 3 في المئة في السنة. ومسألة أن الحرب لا تخفّض معدل النمو السكاني بشكل تلقائي يجب أن تكون جليّةً من خلال التاريخ الأوروبي. فنادرًا ما انقضى عقد خلال القرون الثلاثة الماضية من دون قتال واسع النطاق، ومع ذلك ارتفع عدد سكان أوروبا من 103 ملايين في عام 1650 إلى 594 مليونًا في عام 1950. يمكن المرء أن يستخلص بسهولة أن الحروب الأوروبية – وحروب الدول عمومًا – كانت جزءًا من نظام لتحفيز نمو سكاني متسارع.

يبدو أن ما لم يدركه أحد هو أن الأطراف والقرى، على عكس مجتمعات الدولة، كانت استثناءً في اعتمادها الحربَ لتحقيق معدلات متدنية من النمو السكاني. وقد بلغتْ ذلك لا من خلال وفيات المحاربين الذكور في المقام الأول – التي غالبًا ما عُوِّضتْ بسهولة، كما وجدنا للتو، بالالتجاء إلى الاحتياطيات اللافتة لأنثى الإنسان – إنما بوسيلة أخرى كانت مترابطة بشكل وثيق ومرتبطة بخبرة الحرب على الرغم من أنها لم تكن جزءًا من القتال الفعليّ. وأُحيلُ هنا إلى قتل الأطفال الإناث؛ إذ جعلت الحرب في مجتمعات القرية والأطراف ممارسة قتل الأطفال مرهونة بالجنس. فقد شجعت تربية الأبناء، الذين كانت ذكورتهم تتمجّد تهيئة للقتال، ثم الحطّ من قيمة البنات، اللواتي لم يخضن القتال. هذا بدوره أدى إلى الحدّ من الأطفال الإناث عبر الإهمال والإيذاء والقتل مطلق السراح.

تبين ذلك الدراسات التي أجراها مؤخرًا وليام ديفال في أوساط مجتمعات الجماعة والقرية التي تقوم بالحرب عندما أُحصيت أول مرة حيث كان عدد الذكور في عمر الرابعة عشرة وما دون يفوق بفارق كبير عدد الإناث من الفئة العمرية نفسها. ووجد ديفال أن نسبة الصبيان قياسًا للبنات كانت 128 مقابل 100، في حين أن نسبة الرجال البالغين قياسًا بالنساء كانت 101 مقابل 100. وحيث إن النسبة الجنسية المتوقَّعة عبر العالم للمواليد الجدد هي 105 للذكور و100 للإناث، فإن هذا التفاوت بين 105 و128 هو المعيار لدرجة المعاملة التمييزية للأطفال

الذكور والانخفاض إلى 100:101 يرجح أن يكون معيارًا لمعدل الوفيات من الذكور البالغين المحاربين. وارتفعت وتيرة التأويل هذا عندما قارن ديفال النسب الجنسية لدى الجماعات التي خاضت الحروب في فترات أكثر إيغالًا في القدم بأولئك الذين كانوا يخوضون الحرب فعليًا حين إحصائهم أول مرة.

أما ما يتعلق بالمجموعات السكانية التي أحصيت بعد توقف الحرب لمدة تراوح ما بين خمسة أعوام وخمسة وعشرين عامًا، عادة من السلطات الاستعمارية، فكان متوسط النسب 113 صبيًا 113 رجلًا بالغًا لكلّ 100 بنت و100 امرأة بالغة. (ربما كانت الزيادة في نسبة جنس البالغين من 100:101 عندما كانت الحرب قائمة إلى 100:113 عندما وضعتْ أوزارها هي نتيجة بقاء الذكور الذين كان يُفترض أن يُقتلوا قبل ذلك في الحرب)، وفي أوساط السكان الذين أُحصوا بعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا من توقف الحرب، كانت النسبة الجنسية للأفراد من عمر الخمسة عشر عامًا وأصغر لا تزال أخفض؛ 100:106، مُقارِبةً المعدّل العالمي 100:105 عند الولادة.

إن هذه النقلات تصبح أكثر دراماتية عندما تؤخذ في الاعتبار حين يطرأ حدث مشهود عن قتل أطفال، ذكور أو إناث، ونشوب حرب. كان متوسط نسبة الجنس وسط الشباب في أوساط المجموعات السكانية التي لا تزال تخوض الحرب حين إجراء الإحصاء والتي، بناء على تقارير الإثنوغرافيين، كانت بشكل دارج أو عرضي لا تزال تمارس نوعًا من قتل الأطفال: 133 صبيًا مقابل 100 بنت. حتى بين البالغين هبطت إلى 96 رجلًا مقابل 100 امرأة. بالنسبة إلى التجمعات السكانية التي توقفت عن الحرب منذ خمسة وعشرين عامًا أو أكثر قبل الإحصاء، والتي لم يُسجل أن قتل الأطفال فيها مورس كعادة دارجة، كانت النسبة الجنسية بين الشباب 104 صبيان مقابل 100 بنت و92 رجلًا مقابل 100 بنت.

لا ألمّح إلى أن الحرب سببت قتل الأطفال الإناث أو أن ممارسة قتل الأطفال الإناث قد سببت الحرب. بل بالأحرى، أقترحُ أنه من دون ضغط الإنجاب ليس للحرب ولا لقتل الأطفال الإناث أن يكون واسع الانتشار وأن اقتران الاثنين يمثّل حلًا وحشيًا، لكنه متفرد بفاعليته للمعضلة المالتوسية.

إن ضبط النمو السكاني من خلال المعاملة التمييزية للمواليد الذكور «انتصار» مشهود للثقافة على الطبيعة. لقد دفعت الحاجة إلى قوة ثقافية قاهرة لحضّ الوالدين على إهمال أو قتل أولادهما، وعلى وجه التخصيص دفعتهما الحاجة القاهرة أكثر إلى قتل البنات دون الصبية أو إهمالهن. والحرب تمدّ هذه القوة بالدافع لأنها جعلت بقاء الجماعة مشروطًا بتنشئة الذكور المجهزين للقتال. كان الذكور قد اختيروا كي يُلَقَّنوا كيفية القتال لأن تجهيزات التسليح تتضمن الرماح والهراوات والأقواس والسهام وأسلحة يدوية أخرى. من هنا اعتمد النجاح العسكري على أعداد مترابطة من المقاتلين مفتولي العضلات. لهذا السبب أصبح الذكور من الناحية الاجتماعية أكثر جدوى من الإناث، وتشارك الرجال والنساء في «إزالة» البنات كي يربّيا عددًا أكبر من الأبناء الذكور.

لا ريبَ في أن قتل الأطفال الإناث التمييزي يحدث أحيانًا في غياب الحرب. فبعض جماعات الإسكيمو تحافظ على قتل الأطفال الإناث على الرغم من أن لديها قتال بين جماعات صغيرة منظمة بعض الشيء. وتفسير ذلك أنه في بيئة القطب يكون لقوة عضلات الذكر دور في الإنتاج موازيًا للدور الذي تؤديه في الحرب في مناطق أخرى. يحتاج الإسكيمو إلى كل أوقية عضلاتٍ مفتولة إضافية من أجل مطاردة طريدتهم الحيوانية ومحاصرتها وقتلها. على عكس الصيادين في المناطق المعتدلة، يجد الإسكيمو من الصعوبة أن يصلوا حدّ الإفراط في القتل. فمشكلتهم ببساطة هي تحصيل كفايتهم من القوت ومنع سكانهم من الوقوع تحت وطأة البدائل. فلا يستطيعون أن يعولوا على جمع الطعام النباتي كمصدر رئيس للسعرات الحرارية. في حالة كهذه يصبح الأبناء الذكور أعلى مقامًا من البنات اجتماعيًا، حتى من دون حروب متواترة، ويتشارك الرجال والنساء في الحدّ من عدد الإناث، تمامًا كأن الذكور لم يوجَدوا إلا للقتال.

في موائلَ أكثر ملاءمة، ستكون المستويات المرتفعة لقتل الأطفال الإناث صعبة التحقيق في غياب الحرب. فشعوب الأطراف والقرية قادرة تمامًا على وعي حقيقة أن عدد الأفواه التي يجب إطعامها مرهونة بعدد النساء ضمن الجماعة. لكن من الصعب عليها الحدّ من عدد الإناث لمصلحة الذكور، لأنه، في اعتبارات

أخرى، تُعتبر النساء أكثر قيمة من الرجال. وفي المحصلة، يمكن المرأة إنجاز معظم الأشياء التي يمكن الرجال إنجازها، وبالاعتماد على أنفسهن يمكنهن الحمل وإرضاع الأطفال. في ما عدا إسهامهن الطويل الأمد في المشكلة السكانية، تُعتبَر النساء في واقع الأمر صفقة أفضل من الرجال بما يتعلق بالتكلفة/ المردود. لقد ضُلِّل الأنثروبولوجيون من ناحية قيمة عمل المرأة بواقع أن من بين النساء الصيادات وجامعات النبات لم يُرصد أنهن اصطدن حيوانات كبيرة. هذا لا يبرهن أن الشطر المرصود من العمل مشتَقٌّ طبيعيًا من عضلات الذكر أو من الحاجة إلى النساء لأن يمكثن قريبات من نار الكوخ، كي يطبخن ويرضعن الأطفال. وسطيًا، قد يكون الرجال أكثر وزنًا وقوة، وأسرع عدْوًا من النساء، لكن في الموائل الأكثر ملاءمة ثمة القليل من العمليات الإنتاجية التي تجعل هذه المزايا الفيزيولوجية للرجال أكثر فاعلية مما هي لدى النساء على نحو حاسم. إن معدل إنتاج اللحوم في المناطق المعتدلة أو الاستوائية مرهون بمعدل تكاثر أنواع الطرائد أكثر من مهارات الصيادين. تستطيع النساء الصيادات الحلول محلّ الرجال بسهولة من دون خفض الأغذية العالية البروتين. وقد بيّنت دراسات عدة في الآونة الأخيرة أن النساء في أوساط زارعي البساتين يقمن بإمداد مقدار أكبر من السعرات الحرارية والبروتينات متمثلة في النباتات المغذية والحيوانات الصغيرة، حتى لو لم يصدنَ طريدة كبيرة. أضف إلى ذلك، إن الحاجة إلى النساء لغرض إرضاع الأطفال لا تؤدي بهن «طبيعيًا» إلى ممارسة أدوارهن كطبّاخات و«مقيمات منازل». يُعتبَر الصيد فاعلية متقطِّعة، وليس هناك ما يمنع النساء المقيمات من ترك أطفالهن برعاية أحد آخر بضعة ساعات مرةً أو مرتين في الأسبوع. وحيث إن العصبات تضم أنسباء العائلة المقرَّبين، فإن النساء الصيادات وجامعات النباتات لسنَ في عزلة كما النساء العاملات العصريات، ولا يجدن مشقة في إيجاد المعادِلات ما قبل الصناعية لحاضنات الأطفال ومراكز الرعاية النهارية.

يلوح التفسير، الذي يكاد يقارب العالميَّ، لإقصاء المرأة عن صيد الطرائد الكبيرة أنه يستند على ممارسة الحرب، وعلى قواعد الجنس الذكوري العنصري التي تطفو بالتزامن مع الحرب، وممارسة قتل الأطفال الإناث؛ كلّ ما يُستمَدّ جوهريًا من محاولة حلّ مشكلة ضغط الإنجاب. فعليًا، تلقن جميع مجتمعات

الأطراف والقرى الذكور كيف يصبحون مهَرة في استعمال الأسلحة فحسب، وكثيرًا ما كان يحظر على النساء مجرد لمس هذه الأسلحة كما أنهن لم يُشجعن، أو مُنعن، على الانخراط في الصفوف الأمامية للقتال.

إن شجاعة الذكر الحربية وثيقة الارتباط بالتدريب التمييزي جنسيًا للوصول إلى سلوك عنيف وعدواني. تدرِّب مجتمعات الأطراف والقرى الذكورَ على القتال من خلال المباريات التنافسية كالمصارعة وسباق العدْو والمبارزة. ونادرًا ما تشترك النساء في هذه المباريات ولا تتبارى أبدًا مع الرجال. تغرس مجتمعات الأطراف والقرى أيضًا النزعة الذكورية بإخضاع الصِّبية لاختبارات شديدة القسوة تقتضي تشويه الأعضاء التناسلية، كالختان، وتعريضهم لعناصر قسرية ومواجَهات مع وحوش خارقة تسببها مواد مهلوِسة. كما أن بعض مجتمعات الأطراف والقرى تُخضع البنات لطقوس البلوغ، لكن هذه الطقوس تنطوي على اختبارات وسيلتها تسريب السأم إليهن بدلًا من ترهيبهن. تُحجَز البنات بعيدًا عن الأعين في أكواخ أو غرف خاصة لشهر أو أكثر، يحظر عليهن خلال هذه الفترة ملامسة أجسادهن؛ حتى لو أصابتهن حكّة، يجب عليهن أن يستعملن أداة مثل «حكّاكة الظهر». أحيانًا يحظر عليهن التحدث طوال فترة عزلتهن. علاوة على ذلك، فإن بعض الثقافات تعمد إلى قصّ الأعضاء التناسلية الأنثوية، كبتر جزء من البظر، لكنها عادة نادرة الشيوع ويتواتر حدوثها أقلّ بكثير من ختان الذكور.

يبقى هناك سؤال واحد هو لماذا **كلّ** النساء ممنوعات من التدرّب على أن يصبحن محاربات كما الذكور. فهناك نساء أقوى ويتمتعن بعضلات مفتولة أكثر من بعض الرجال. فقد سجلت الفائزة في مباراة رمي الرمح للسيدات في الألعاب الأوليمبية لسنة 1972 رقم 209 قدمًا وسبع بوصات، ولم يتجاوز طاقة معظم الذكور في قذف الرماح فحسب، بل ضاهى أيضًا أداء أبطال رمي الرمح الأولمبيين السابقين (مع أنهم استخدموا رماحًا أكثر وزنًا بقليل). لذلك لو أن العضلات المفتولة هي العامل الحاسم في تكوين طرف حربيّ، فلماذا لا يضمون النساء اللواتي تطابق قوتهن الجسدية أو تتجاوز قوةَ متوسط الذكر العدو؟ أظن الجواب سيكون إن الظَّفَر الحربي العَرَضيّ لنساء حسنات التدريب كبيرات

الحجم والقويات ضد ذكور أصغر سيتعارض مع سلَّم الرتب الذي يقوم عليه قتل الأطفال الإناث التمييزي. يكافَأُ الذكور الذين يُعدون محاربين ناجحين بزوجات عديدات ومكاسب جنسية تقوم على نساء تربّين كي يحظين بالتفوق الذكوري. وحيث إن النظام بكامله يعمل بسلاسة، فلن يُسمح للمرأة بالتفكير بأنها جديرة وخارقة مثل أي رجل.

إجمالًا، الحرب وقتل الأطفال الإناث هما جزء من الثمن الذي كان على أسلافنا في العصر الحجري أن يدفعوه لتنظيم تجمعاتهم السكانية بهدف منع تدني مستويات المعيشة إلى حدّ الكفاف. أشعر بالثقة أن المؤشِّر الدّال على السبب يراوح في إشارته من ضغط الإنجاب إلى الحرب إلى قتل الأطفال الإناث وليس العكس. فمن دون ضغط الإنجاب، لن يكون هناك جدوى من عدم تربية بنات بنفس أعداد الصبيان، حتى لو نظر إلى الذكور على أنهم أرفع مقامًا بسبب تفوقهم في القتال وجهًا لوجه مع العدو من دون سلاح. والطريقة الأسرع لمضاعفة قوة الذكر القتالية ستكون في تقدير كل بنت صغيرة كنفْسٍ ثمينة لا في الاستخفاف بواحدة منهن أو قتلها. يعتريني بالغ الشك في أن أيّ بشريّ قد فاته فهم الحقيقة الأوّلية التي مفادها أنه كي يكون لديك الكثير من الرجال، فعليك أن تبدأ بأن يكون لديك كثير من النساء. ويشير فشل مجتمعات الأطراف والقرى في التصرف انسجامًا مع هذه الحقيقة لا إلى أن الحرب هي سبب قتل الأطفال الإناث، أو إلى أن قتل الإناث الأطفال سبب الحرب، بل إلى إن قتل الأطفال الإناث والحرب، إضافة إلى سلَّم التراتبية الجنسيّة الذي ترافق مع هذه الويلات، إنما كان سببهما الحاجة إلى تشتيت التجمعات السكانية وخفض معدَّلات نموّها.

المراجع والملاحظات

للاطلاع على الثقافات المسالمة يُنظر: Alexander Lesser, «War and the State,» in: Morton Fried, M. Harris & R. Murphy (eds.), *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression* (Garden City, NY: Natural History Press, 1968).

وحول أركيولوجيا العنف يُنظر: Marilyn Roper: «A Survey of the Evidence for Intrahuman Killing in the Pleistocene,» *Current Anthropology*, vol. 10 (1969), pp.

427-459; «Evidence of Warfare in The Near East from 10,000 to 4000 BC,» in: Martin Nettleship, R. Dale Givens & Anderson Nettleship (eds.), *War, Its Causes and Correlates* (The Hague: Mouton, 1975), pp. 299-344·

لحروب الصيادين جامعي الثمار يُنظر: William Divale, «Systematic Population Control in the Middle and Upper Paleolithic,» *World Archaeology*, vol. 42, no. 2 (1972), pp. 222-241;

لأنثروبولوجيا الحرب يُنظر: Morton Fried, M. Harris & R. Murphy (eds.), *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression* (Garden City, NY: Natural History Press, 1968); Martin Nettleship, R. Dale Givens & Anderson Nettleship (eds.), *War, Its Causes and Correlates* (The Hague: Mouton, 1975);

الوصف لشعب التيوي (Tiwi) يُنظر: C. W. M. Hart & Arnold Pilling, *The Tiwi of North Australia* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1960);

المورنغين (Murngin) يُنظر: William Lloyd Warner, «Murngin Warfare,» *Oceania*, vol. 1 (1930), pp. 457-594.

الداني (Dani) يُنظر: Karl Heider, *The Dani of West Irian* (Reading, Mass.: Addison Wesley, 1972).

بالنسبة إلى دور التضامن الاجتماعي الذي تلعبه الحرب يُنظر: Quincy Wright, *A Study of War* (Chicago: University of Chicago Press, 1965); Camilla Wedgwood, «Some Aspects of Warfare in Melanesia,» *Oceania*, vol. 1 (1930), pp. 5-33;

بالنسبة إلى الحرب كلعبة يُنظر: Robert Lowie, *Indians of the Plains* (New York: McGraw-Hill, 1954).

روبرت أندري هو مدافع عن **الحرب كطبيعة بشرية**. يُنظر: Ashley Montagu, *The Nature of Human Aggression* (New York: Oxford University Press, 1976),

من أجل مراجعة شاملة ودحض هذا الموقف. لمعرفة آثار التشتت يُنظر: Andrew P. Vayda: «Expansion and Warfare among Swidden Agriculturalists,» *American Anthropologist*, vol. 63 (1961), pp. 346-58; «Phases of the Process of War and Peace Among the Marings of New Guinea,» *Oceania*, vol. 42 (1971), pp. 1-24,

الاقتباس من: Joseph Birdsell, *Human Evolution: An Introduction to the New Physical Anthropology* (Chicago: Rand McNally, 1972), pp. 357-358.

يُنظر: Frank Livingstone, «The Effect of War on the Biology of the Human Species,» in: Fried, Harris & Murphy (eds.), *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*.

لآثار الحرب الحديثة على السكان. يُنظر: William Divale & M. Harris, «Population, Warfare and the Male Supremacist Complex,» *American Anthropologist*, vol. 78 (1976), pp. 521-538.

من أجل أدلة على الروابط بين الحرب وقتل الطفلات الرضيعات. لدور المرأة في الإنتاج يُنظر: George Morren, «Settlement Strategies and Hunting in a New Guinea Society,» PhD dissertation, Columbia University, 1974; Richard Lee, «!Kung Bushmen Subsistence: An Input-Output Analysis,» in: Andrew P. Vayda, (ed.), *Environment and Cultural Behavior* (Garden City: Natural History Press, 1969).

5

البروتينات والشعب العنيف

للحروب والتباهي بالشجاعة دور بارز في حياة اليانومامو بحيث يدعوهم نابليون شاغنون (Napoleon Chagnon) من جامعة بنسلفانيا الحكومية بالشعب العنيف. تظهر الأفلام والدراسات الدرامية أن اليانومامو الذين يعيشون في الغابات على امتداد الحدود بين البرازيل وفنزويلا قرب منابع نهري ريو نيغرو (Rio Negro) وأورينوكو (Orinoco)، يخوضون في الواقع حروبًا دائمة بعضهم ضد الآخر. ذكرت سابقًا أن 33 في المئة من وفيات الذكور بين اليانومامو سببها جروح أصيبوا بها في المعارك. وعلاوة على ذلك، يمارس اليانومامو نمطًا قاسيًا خاصًا من السيطرة الذكورية تتضمن تعدد الزوجات، والضرب المتكرر للزوجة، والاغتصاب الجماعي لنساء العدو المأسورات.

ليس اليانومامو حالة عصيبة لأنهم من أكثر المجتمعات القروية التي تمت دراستها، والتي تستفحل فيها ممارسة الحروب فحسب، بل لأن شاغنون - وهو أفضل من عرفهم - أنكر أن ارتفاع مستوى القتل داخلَ وما بين القرى سببته ضغوط إنجابية وأخرى بيئية:

> هناك رقع شاسعة من الأراضي، معظمها قابل للحراثة ويزخر بالصيد، هو [إلخ] بين القرى... ومهما يكن السبب الآخر الذي يمكن ذكره «كسبب» للحرب بين القرى، **فإن التنافس على الموارد لا يبدو مقنعًا** (التشديد من شاغنون). لا ترتبط نماذج الحروب المكثفة عمومًا التي توجد في الحضارات البدائية للغابات

الاستوائية بشكل وثيق بالنقص في الموارد أو التنافس على الأراضي أو مناطق الصيد... تنزع اتجاهات حديثة في النظرية العرقية أكثر فأكثر إلى بلورة الرأي القائل بأن الحرب... يجب أن تفسر دائمًا بالنظر إلى الكثافة السكانية، وقلة الموارد الاستراتيجية كالأراضي و«البروتينات»، أو كليهما معًا.

اليانومامو مجتمع مهم، لأن حروبه لا يمكن تفسيرها وفق هذه الطريقة. فعلى الرغم من زراعته لموز ولسان الحمل ومحاصيل أخرى، تبلغ الكثافة الإجمالية عنده نحو 0.5 فرد في كل ميل مربع؛ كثافة لا تختلف كثيرًا عما هي عليه في مجتمعات الصيد وجمع الثمار. وبحسب معايير مجتمعات الصيد تعتبر قراهم كبيرة، إلا أن المستوطنات انشطرت قبل أن تبلغ إجمالي 200 ساكن بوقت طويل. هذا ما يجعل قرى اليانومامو ضئيلة مقارنة بالمستعمرات الهندية على مجاري نهري الأمازون وأورينوكو، حيث واجه المستكشفون الأوروبيون الأوائل قرى من 500 إلى 1000 فرد وصفوفًا متصلة من البيوت بامتداد 5 أميال على ضفافهما. ولو كان هناك وفرة في الأراضي والصيد، كما يدعي شاغنون، فلم بقيت الكثافة الإجمالية وحجم القرية لدى اليانومامو منخفضين للغاية؟ لا يمكن أن يقع اللوم في هذا الاختلاف على الحروب بذاتها، بما أن شعوب مجاري الأنهار لم تكن أقل ميلًا إلى القتال من تلك التي تعيش في الغابات. وقد برهن دونالد لاثراب (Donald Lathrap) بشكل مقنع أن جميع المجموعات التي تعيش بعيدًا عن الأنهار الرئيسة، كاليانومامو، «منبوذة» من قبل المجتمعات الناشئة «ومنبوذة عن السهول المغمورة على أنها بيئات أقل شأنًا».

لم يحاول اليانومامو إخفاء ممارستهم قتل الأطفال الإناث. وقد نتجت من ذلك نسبة جنسية متفاوتة بشكل كبير ضمن المجموعة العمرية الأقل من أربعة عشر عامًا. درس شاغنون اثنتي عشرة قرية تتموضع في المنطقة الأكثر كثافة حربية، حيث بلغ معدل الذكور بالنسبة للإناث 148 إلى 100. وفي قرية أخرى تمارس الحرب دَرَسها جاك ليزو (Jacques Lizot) كانت نسبة صغار السن الجنسية 100:260. من جهة أخرى، كانت نسبة صغار السن لثلاث قرى درسها وليام سمول (William Smole) في هضاب باريما (Parima) خارج المنطقة الأكثر كثافة حربية هي 100:109.

بحسب شاغنون، فإن حقيقة ندرة الإناث، والتي تفاقمت بممارسة تعدد الزوجات، هي سبب رئيس للشقاق والنزاع:

> إن النقص في عدد النساء، وهو نتيجة غير مباشرة للموقف الذي يقدّر الذكورة، يؤدي إلى منافسة شرسة وبذلك تعزز عقدة وايتري بكاملها (عقدة العنف الذكوري) بما ينتج من اقتتال واعتداء. وعمليًا، فإن كل قرية في طور الانشطار أجريتُ بحثي فيها على وجه التقريب قد نشأت عن ضغينة داخلية دائمة تجاه النساء، وفي حالات عدة كانت المجموعات في النهاية تدخل في عداوات بعد انفصالها.

اليانومامو أنفسهم «ينظرون إلى الاقتتال من أجل النساء على أنه من الأسباب الرئيسة لحروبهم».

مع ذلك ليس سكان كل قرى اليانومامو رجالًا عنيفين وعدوانيين. فشاغنون يشدد على التباين في الضراوة بين القرى المتوضعة في ما يسمى المناطق «المركزية» و«المحيطية». فبين القرى على «المحيط»:

> تجري الصراعات بين المتجاورين بوتيرة أقلّ... كما أن كثافة الحروب قليلة بشكل كبير... القرى أصغر... تقل مظاهر العنف والاعتداء بشكل كبير في حدوثها إضافة إلى أنها محدودة في الشكل...

بذلك تكون الحقائق التي تحتاج إلى تفسير بشأن اليانومامو: (1) القرى الصغيرة والكثافة السكانية المنخفضة على الرغم من الوفرة الواضحة في الموارد؛ (2) الكثافة الكبيرة في الحروب وفي عقدة العنف الذكوري في أراضي اليانومامو «المركزية»؛ (3) قتل الأطفال الإناث على الرغم من الحاجة إلى نساء أكثر بسبب الاختلال الكبير في النسب الجنسية وتعدد الزوجات، كحاجة قوية ما يكفي لتشكيل الدافع لنزاع دائم والعنف والقتل.

تبدو هذه الخصائص كلها عن حياة اليانومامو الاجتماعية متفقة مع التفسير العام الذي قدمته بشأن أصل الحروب بين مجتمعات القرية والجماعة. أعتقد أن من الممكن تبيان أن اليانومامو تبنوا حديثًا تقنية جديدة، أو كثفوا استخدام تقنية

موجودة في السابق؛ سبب هذا توسعًا سكانيًا حقيقيًا، والذي بدوره أوصل إلى استنزاف بيئي، وهذا الاستنزاف أدى إلى زيادة قتل الأطفال وإلى زيادة الحروب كجزء من محاولة ممنهجة لتفريق المستعمرات ومنعها من النمو بشكل كبير.

لنأخذ أولًا الوضع الديموغرافي. فبحسب جاك ليزو:

> أُنشئت المستوطنات الأصلية بشكل تقليدي بعيدًا من الأنهار الصالحة للملاحة وكان على المرء أن يسير أيامًا عبر غابات كثيفة غير مكتشفة كي يجد تلك المستوطنات... وحدث حديثًا فحسب، لاحقًا لتوسعها الملحوظ نحو مناطق غير مأهولة – التوسع الناتج من الانقسام، والحرب، والصراع كما بسبب الزيادة السكانية العالية – أن استقرت بعض الجماعات، حوالى عام 1950، على ضفاف نهر أورينوكو وروافده.

يعتقد جيمس نيل (James Neel) وكينيث وايس (Kenneth Weiss) أن العدد الإجمالي لقرى اليانومامو التي درسها شاغنون قد تضاعف في المئة سنة الأخيرة. وفي تقديرهما أن النمو السكاني الإجمالي خلال الفترة نفسها كان بين 0.5 و1 في المئة سنويًا. في أي حال، يبدو أن معدل النمو بين القرى التي تشتد فيها الحروب كان أكبر. ابتداءً من قرية واحدة منذ مئة سنة خلت، يوجد اليوم 2000 شخص في عشرين قرية درسها شاغنون. فلو انقسمت كل قرية إلى نصفين عندما وصل عدد سكانها إلى 200، لكان معدل نمو هذه المستعمرات فوق 3 في المئة سنويًا. ولكن بما أن القرية المعاصرة العادية في المنطقة الحربية تنقسم قبل أن تصل إلى 166 شخصًا، فإني أشك في أن معدل النمو كان أيضًا أعلى في هذه المنطقة.

قد يبدو من المحيّر أن على الرغم من أن لدى اليانومامو معدلات مرتفعة بشكل استثنائي من قتل الأطفال والحروب، فإنهم يعانون من الانفجار السكاني. وعلاوة على ذلك، يفترض أن تحدّ الحروب وقتل الأطفال من مثل هذ الانفجار. والمشكلة أننا نفتقر إلى تدوين متواصل عن العلاقة المتغيرة بين نمو قرى اليانومامو وممارسة قتل الأطفال والحروب. لم أقل إن الشعوب التي تمارس الحروب لن تعاني أبدًا الزيادة السكانية. بل قلت إن الحروب تنزع إلى منع السكان من الازدياد إلى الحد الذي يستنزف البيئة بشكل مستدام. بناء على هذا، ينبغي أن يكون من

خصائص السنوات التي تسبق وتلي انقسام قرية اليانومامو تصاعدٌ في الحروب وقتل الأطفال حتى الذروة. وتنجم الكثافة الأعلى في الحروب عن الضغط من أجل المحافظة على مستويات العيش من خلال استغلال مناطق أكبر أو أكثر إنتاجية بالتنافس مع القرى المجاورة، بينما يرتفع قتل الأطفال الإناث بسبب الاضطرار إلى وضع حدّ لحجم القرية تزامنًا مع رفع الكفاءة القتالية إلى الحد الأعلى. بناء على ذلك، فإن حقيقة تَوَرُّطِ اليانومامو إجمالًا بالحروب والتوسع السكاني لا تنفي نظرية أن الاستنزاف المتكرر للبيئة والضغط الإنجابي يكمن وراء كلٍّ من الظاهرتين. ولسوء الحظ، فإن المعطيات اللازمة لاختبار تنبؤاتي بشأن علاقة ارتفاع الكثافة وهبوطها في أثناء الحروب بالنمو وانشطار قرى معينة لم تجمع. ومع ذلك، يمكن إثبات الفكرة بطريقة أكثر تعميمًا من خلال النظر مجددًا إلى الاختلافات في النسب الجنسية بين مجموعات اليانومامو الأكثر ميلًا إلى السلام والأكثر ميلًا إلى الحروب: النسبة الجنسية لصغار السن 100:109 في قرى هضاب باريما التي درسها سمول مقارنة بـ 100:148 في المناطق المحارِبة التي درسها شاغنون.

منطقة شاغنون هي المنطقة التي تعاني أسرع زيادة سكانية وأسرع تشتتًا باتجاه أراضٍ جديدة غير مأهولة. أما منطقة سمول، من جهة أخرى، فلديها تعداد سكاني ثابت أو ربما منخفض. ويمكن بسهولة تفسير الارتفاع إلى الذروة في الحروب وقتل الأطفال في منطقة شاغنون على أنه محاولات لتبديد النمو السكاني، وفي الوقت نفسه لوضع حد للحجم الأقصى للقرى. وكما ذكرت سابقًا، لو لم يكن هناك قيود بيئية لما كان هناك تضارب بين ممارسة الحروب وتنشئة عدد مساوٍ للإناث مع الذكور. في واقع الأمر، فإن الحرب نفسها تضع الأولوية في تنشئة الذكور لغرض القتال. ولكن الطريقة الأسرع لليانومامو في تنشئة ذكور أكثر ليست في قتل أو إهمال 50 في المئة من الأطفال الإناث، بل في تنشئتهم حتى سن الإنجاب. **فقط في حال أن السكان باتوا يشكلون ضغطًا على الموارد يصبح من المنطقي عدم تنشئة عدد مساوٍ للإناث مع الذكور**. وسأناقش أي موارد أعني بعد قليل.

لِمَ بدأ عدد سكان اليانومامو فجأة بالتزايد منذ نحو 100 سنة؟ ليس هناك معلومات كافية بشأن تاريخ المنطقة لإعطاء إجابة مؤكدة، لكنني أستطيع أن أقدم فرضية معقولة. منذ 100 عام بدأ اليانومامو بالحصول على فؤوس ومناجل فولاذية من هنود آخرين كانوا على احتكاك بالتجار والمبشرين. وهم يعتمدون اليوم اعتمادًا كاملًا على هذه الأدوات لدرجة أنهم أغفلوا خبرتهم في صناعة الفؤوس الحجرية التي كان أسلافهم يستعملونها قبلهم. مكّنَ استخدام الأدوات الفولاذية اليانومامو من أن ينتجوا كميات أكبر من الموز ولسان الحمل بجهد أقل. وكمعظم المجتمعات ما قبل الصناعية، استخدموا السعرات الحرارية الإضافية في إطعام أطفال إضافيين.

من الممكن أن يكون الموز ولسان الحمل وسائل جديدة للإنتاج. لم تكن هذه محاصيل أميركية الأصل، حيث دخلت العالم الجديد من آسيا وأفريقيا في العصر ما بعد الكولومبي. كان معظم الهنود الأمازونيين يعتمدون تقليديًا على المنيهوت[1] لتزويدهم بالنشويات. والدليل على التركيز الجديد نسبيًا على أشجار لسان الحمل والموز هو حقيقة أن رجال اليانومامو هم من يزرعها ويعتني بها ويمتلكها. تساعد النساء في نقل الغراس الثقيلة التي تستخدم في إطلاق بساتين جديدة، وفي إحضار حمولات مرهقة من أضلاع النبات الناضجة إلى البيوت، ولكن البستنة في الأساس هي عمل الرجال بين اليانومامو. وكما يوضح سمول، «فإن هذا يناقض بشكل صارخ شعوبًا جنوب أميركية بدائية أخرى تمارس البستنة»، حيث تكون البساتين «مجال عمل الأنثى حصريًا».

ربما كان العامل المشجع على التحول إلى أو تكثيف إنتاج الموز ولسان الحمل هو إرضاخ أوروبا وإهلاكها (ربما بسبب الملاريا وأمراض أخرى أدخلها الأوروبيون) مجموعات الكاريب (Carib) والأرَواك (Arawak)[2] التي كانت تهيمن سابقًا على جميع الأنهار القابلة للملاحة في هذه المنطقة. في الأزمنة البدائية، كانت البساتين الكبيرة بأشجارها المثمرة تشكل هدفًا مغريًا لهذه الجماعات

(1) نبات استوائي. (المترجم)

(2) جماعة من شعوب أميركا الجنوبية الأصلية. (المترجم)

الأفضل تنظيمًا. النقطة المهمة التي يجب أن تبقى حاضرة في الذهن هي أن حروب اليانومامو قامت بشكل رئيس بين القرى التي تفرعت عن مستعمرات أصلية عامة. يتوسع اليانومامو نحو أراضٍ سكنتها سابقًا شعوب نهرية أكثر قوة.

لقد أوضحت في العموم أن تبني وسائل جديدة للإنتاج - الأدوات الفولاذية وبساتين الموز ولسان الحمل في هذه الحال - يؤدي إلى النمو السكاني، الذي يؤدي من خلال التكثيف إلى الاستنزاف والضغط المتجدد على الموارد عند معدل عالٍ من الكثافة السكانية. هذا الحجم المتوسط الذي درسه شاغنون ازداد أكثر من الضعف - حتى 166 في القرى الاثنتي عشرة التي قُدم التقرير عنها. يشير سمول إلى أن للقرية الأنموذجية على هضبة باريما في مركز مقاطعة اليانومامو ما بين 65 و85 شخصًا، وأن «عدد السكان الذي يبلغ أكثر من مئة هو عدد كبير بشكل استثنائي». تضع تقديرات أخرى القرى العاديةَ التي تم الاحتكاك بها في معدل بين 40 إلى 60.

ما الموارد التي استنزفت من خلال السماح للقرى بالنمو إلى 166 شخصًا بدلًا من الحد السابق بين 40 و85؟ باستثناء الجماعات التي تعيش على طول المجاري الرئيسة والتي تعتمد على السهول الفيضية الضيقة لبساتينهم، فإن موارد شعوب القرية والجماعة الأمازونية الأكثر عرضة للسقوط بيد الأعداء ليست الغابات والتربة - التي يوجد منها احتياطي كبير - بل حيوانات الصيد. وحتى من دون صيد كثيف من الإنسان، لا يمكن الغابات الاستوائية تأمين وفرة من الحياة الحيوانية. وكما أسلفتُ، كانت القرى الأمازونية الكبيرة في الأزمنة ما قبل الكولومبية واقعة على طول ضفاف الأنهار الرئيسة، هي التي تؤمن السمك والثدييات المائية والسلاحف. لم يقم اليانومامو إلا حديثًا باحتلال مواقع قريبة من هذه الأنهار، ولا يزالون يفتقرون إلى التكنولوجيا في استغلال الأسماك والثدييات المائية الأخرى. ولكن ماذا عن عبارة شاغنون حول المناطق «الزاخرة بالصيد» بين القرى؟ في ملاحظات أسبق، قدم شاغنون فكرة معاكسة:

> حيوانات الصيد ليست وافرة وتُستنزف كل منطقة بشكل سريع، لذا لا بد من أن تستمر الجماعة في الانتقال... لقد خرجت لرحلة صيد لخمسة أيام مع

اليانومامو إلى مناطق لم يحدث الصيد فيها منذ عقود، ولو لم نأخذ معنا أطعمة زراعية، لتضورنا جوعًا في نهاية ذلك الوقت؛ لم نجمع ما يكفي من اللحم لأنفسنا.

ربما كان لشاغنون انطباع مغلوط حول الوفرة الكبيرة إذا كانت ملاحظته اللاحقة تخص «الأرض الخلو» بين المناطق التابعة للقرى. هذه الفكرة هي بالضبط ما يمكن المرء أن يخمنه فيما لو كانت هذه الأراضي تقوم مقام الملاذ للحيوانات حيث يُعتنى بالحيوانات التي يمكن تربيتها.

لا أدعي أن هناك انخفاضًا فعليًا في حصة البروتين لكل فرد من اليانومامو نتيجة استنزاف الموارد الحيوانية. فمن خلال السير مسافات أطول، وجمع حيوانات أصغر، وجمع الحشرات واليرقات، والاستعاضة عن البروتين الحيواني بالبروتين النباتي، وزيادة معدل قتل الأطفال الإناث (إبطاء معدل النمو السكاني عند الدنو من مرحلة انقسام القرية)، يمكن للناس أن يتجنبوا أعراضًا سريرية فعلية لنقص البروتين. أشار دانييل غروس (Daniel Gross) من كلية الصيد أنه قلما أُرسلتْ، وربما لم تُرسل قطّ، تقارير عن أعراض كهذه تتعلق بالأمازونيين الذين حافظوا على طريقتهم البدائية في العيش. أدى الافتقار إلى أعراض كهذه ببعض المراقبين إلى إساءة تقدير الأهمية السببية للبروتينات الحيوانية في نشوء مجتمعات القرية والجماعة. لذلك إذا كانت الحرب عند اليانومامو هي جزء من نظام لضبط الزيادة السكانية، فإن الوظيفة الفعلية لذلك النظام هي منع عدد السكان من الوصول إلى كثافة يصبح فيها البالغون يعانون الضعف وسوء التغذية. لهذا السبب، فإن افتقاد الأعراض السريرية لا يمكن أن يؤخذ دليلًا ضد وجود ضغوط إنجابية وبيئية حادة. يقدر غروس أن الوارد من البروتين الحيواني لكل فرد يوميًا في الجماعات القروية في الغابات الاستوائية يبلغ معدل 35 غرام. على الرغم من أنه أعلى من الحاجات الغذائية الدنيا، إلا أن حوالى نصف الـ 66 غرام من البروتين الحيواني الذي يستهلكه كل فرد في الولايات المتحدة يوميًا. يصل الأميركيون إلى المعدل الذي يقدره غروس من البروتين الحيواني عندما يأكلون قطعة واحدة كبيرة (5.5 أوقية) من الهمبرغر مرة واحدة في اليوم. وبالنسبة إلى صيادين محترفين يعيشون في وسط أكبر الأدغال في العالم، فإن هذه ليست مقارنة

مثيرة. كم من اللحم يحصل عليه اليانومامو؟ لدى وليام سمول العبارة المؤكدة الوحيدة في هذا الموضوع. وبما أن الصيد لا غنى عنه في أسلوب حياة اليانومامو، وجميعهم مولعين بأكل اللحم الطازج، فإن سمول يلحظ أنه:

> من غير المعتاد أن تمر أيام حتى نهايتها لا يصطاد فيها رجل من [قرية] شابونو ولا يؤكل اللحم أو القليل منه.

الحقيقة هي أن في ظروف الغابة الاستوائية، فإن كمية هائلة من الأرض ضرورية لضمان وارد محدود من 35 غرام من البروتين الحيواني لكل فرد يوميًا. علاوة على ذلك، فإن الزيادة المتناسبة في المنطقة الأساسية للحفاظ على هذا المعدل من الاستهلاك هي أكبر من أي زيادة في حجم القرية. تسبب القرى الكبيرة اضطرابات أكبر مقارنة بالقرى الصغيرة لأن للمستوى اليومي من النشاط في القرية الكبيرة تأثيرًا مقابلًا على توافر الصيد لأميال محيطة. وعندما تتوسع القرية، يصبح على مجموعات الصيد فيها أن تقطع مسافات إضافية لتجد صيدًا ذا وفرة معقولة. ويتم الوصول إلى نقطة حرجة عندما يكون لا بد للصيادين من أن يبقوا في الليل كي لا يعودوا خاليي الوفاض، وهذا ما لا يحبذونه في منطقة كثيفة الحروب. ولذلك، يرغم القرويون إما على قبول النقص في معدلات اللحم وإما على الانشقاق والتفرق. في نهاية الأمر يختارون الخيار الأخير.

كيف يتفاعل اليانومامو مع الضغط على الموارد البروتينية وكيف يترجمون ذلك إلى انقسام فعلي في القرية؟ يؤكد شاغنون حقيقة أنه يسبق انقسامات القرى تصعيد في القتال من أجل النساء. في رواية هيلينا فاليرو (Helena Valero)، وهي برازيلية أسرها اليانومامو، نعلم أن الزوجات يصررن على توبيخ الأزواج إذا كان إمداد الصيد شحيحًا، وهي ممارسة شائعة بين جماعات أخرى من الغابات الاستوائية. يصبح الرجال أنفسهم، بعد أن يعودوا خاليي الوفاض، مفرطي الحساسية حول أي عصيان فعلي أو متخيل من جهة زوجاتهم وإخوانهم الأصغر. في الوقت نفسه يشجع فشل الرجال الزوجاتِ والذكورَ العازبين الأصغر سنًا على أن يمتحنوا ضعف الأزواج، كبار السن، والزعماء. يزداد الزنا والسحر في الواقع والخيال. يترسخ الشقاق ويتعاظم التوتر.

لا يمكن أن يتم انقسام قرية اليانومامو بسلام. إذ يعاني أولئك الذين يغادرون حتمًا قصاصًا كبيرًا نظرًا إلى أنهم يجبرون على نقل غراس الموز ولسان الحمل الثقيلة إلى بساتين جديدة، والتماس اللجوء إلى الحلفاء، والدفع في مقابل الطعام والحماية، إضافة إلى هدايا تتألف من النساء، بينما ينتظرون نضوج أشجار جديدة. تمثل كثير من هجمات قرية على أخرى امتدادًا للنزاعات الداخلية ضمن القرية. تزداد أيضًا الغارات بين القرى غير المتصل بعضها بالأخرى عندما يتعاظم التوتر ضمن القرى. وبينما تمتد بعثات الصيد نحو مسافات أوسع سعيًا وراء موارد صيد متضائلة، يصبح الغزو باتجاه المناطق الفاصلة بين القرى وحتى إلى بساتين العدو أكثر تواترًا. وتؤدي الحاجة الملحة إلى النساء بدورها إلى غارات أكثر تواترًا من أجل النساء، بديلًا للزنا وإثباتًا للذكورة ومكانة الزعيم المهدد.

لن أحاول أن أصف بشكل مفصل جميع الآليات التي تفيد في الدلالة على خطر استنزاف الموارد الحيوانية التي تدير السلوك التعويضي لانقسامات وتَفرق القرى. ولكنني أعتقد أنني قدمت دليلًا وافيًا لتبيان أن حالة اليانومامو تدعم النظرية التي تقول إن الحرب في مجتمعات القرية والجماعة هي جزء من نظام لتفريق السكان وإبطاء معدل النمو.

المراجع والملاحظات

أُخذت الاقتباسات من: Napolean Chagnon, *Studying the Yanomamo* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1974), pp. 127, 194-195.

لحجم الاستيطان يُنظر: Donald Lathrap, «The ‘Hunting’ Economies of the Tropical Forest Zone of South America: An Attempt at Historical Perspective,» in: Daniel Gross (ed.), *Peoples and Cultures of Native South America* (New York: Natural History Press, 1973), pp. 83-95; B. Meggers, *Amazonia: Man and Culture in a Counterfeit Paradise*. Chicago: Aldine, 1971.

لنُسَب الجنس يُنظر: Chagnon 1973, p. 135; Jacques Lizot, «Aspects économiques et sociaux du changement culturel chez les Yanõmamis,» *L'Homme*, vol. 2, (1971), pp. 2-51; William J. Smole, *The Yanomamo Indians: A Cultural Geography* (Austin: University of Texas Press, 1976),

الاقتباس عن القتال من أجل النساء من: Napolean Chagnon, «Yanomamo Social Organization and Warfare,» in: Morton Fried, M. Harris & R. Murphy (eds.), *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression* (Garden City, NY: Natural History Press, 1968), p. 151;

وعن القرى المحيطية: Ibid., p. 114.

الاقتباس الذي يليه مأخوذ عن: Lizot «Aspects economiques,» pp. 34-35.

يُنظر: James Neel & K. Weiss, «The Genetic Structure of a Tribal Population, the Yanomamo Indians,» *American Journal of Physical Anthropology*, vol. 42 (1975), pp. 25-52; Napoleon Chagnon, «Genealogy, Solidarity and Relatedness: Limits to Local Group Size and Patterns of Fissioning in an Expanding Population,» *Yearbook of Physical Anthropology*, vol. 19 (1975), pp. 95-110.

يُنظر: Smol, *The Yanomamo Indianse*.

للاطلاع على تاريخ علاقات اليانومامو مع الأوروبيين. الاقتباس الأسبق من:
Chagnon, «Yanomamo Social Organization,» p. 33.

لمناقشة البروتين الحيواني في الغابة الاستوائية أنا مدين بشدة لدانييل غروس:
Daniel Gross, «Protein Capture and Cultural Development in the Amazon Basin,» *American Anthropologist*, vol. 77 (1975), pp. 526-549; Eric Ross, «Food Taboos, Diet and Hunting Strategy: The Adaptation to Animals in Amazon Cultural Ecology,» *Current Anthropology* (in press); Jane Ross, «Aggression as Adaptation: The Yanomamo Case,» *Mimeographed*, Columbia University, 1971.

ومرجعي في البروتين الحيواني الأميركي هو: David Pimentel et al., «Energy and Land Constraints in Food Protein Production,» *Science,* vol. 190 (1975), p. 754.

الاقتباس من: Smole, *The Yanomamo Indians*, p. 175.

قصة هيلينا فاليرو من بلدة بيوكا: Ettore Biocca, *Yanomamo: The Narrative of a White Girl Kidnapped by Amazonian Indians* (New York: Dutton, 1970).

يُنظر أيضًا: Janet Siskind, *To Hunt in the Morning* (New York: Oxford University Press, 1973).



6

أصل التفوق الذكوري وعقدة أوديب

إن ممارسة الحروب هي المسؤولة عن منظومات التفوّق الذكوري لعقدة واسعة الانتشار بين مجتمعات القرية والجماعة. ووجود هذا المركَّب هو مصدر ارتباك والتباس لمؤيدي حقوق المرأة. يخشى كثير من النساء أنه إذا كان التفوق الذكوري حاضرًا منذ زمن طويل، فربما يكون بالفعل أمرًا «طبيعيًا» أن يسيطر الرجال على النساء. ولكن لا أساس يُعتدّ به لهذه الخشية. فقد نشأت نظم التفوق الذكورية نتيجة الحروب واحتكار الذكور الأسلحة، واستعمال الجنس لتغذية الصفات الذكورية العدوانية. والحرب، كما بينت سابقًا، ليست تعبيرًا عن الطبيعة البشرية، بل استجابة للضغوط البيئية والإنجابية. لذلك، ليس التفوق الذكوري طبيعيًا أكثر من الحرب.

للأسف، حاول مناصرو المرأة أن يقفوا في وجه الرأي القائل إن التفوق الذكوري طبيعي من خلال نكرانهم وجوده بين أغلبية شعوب القرية والجماعة. أدى هذا بالدارسين غير الأنثروبولوجيين إلى إحياء نظريات مبهمة حول عصر ذهبي لنظام الأمومة حكمت فيه النساء بمنزلة أعلى من الرجال. ولم يجد الأنثروبولوجيون أنفسهم سببًا يبرر نبش جثة القرن التاسع عشر هذه. وبدلًا من ذلك حاولوا أن يظهروا أن هناك مبالغة في درجة وحِدّة التفوق الذكوري. وفي أمثلة أكثر تطرفًا أكد مناصرو المرأة حديثًا أن الحوادث التي كتبت التقارير عنها

حول نظم التفوق الذكورية هي وهْمٌ خلقته عقول المراقبين المتحيزين للذكور الذين كانوا مسؤولين عن كتابة معظم الوصف لحياة مجتمعات القرية والجماعة.

هؤلاء الذين يعتقدون أن أعراف التفوق الذكوري ليست أكثر شيوعًا من التفوق الأنثوي أو المركّبات العرفية المتوازنة جنسيًا يظهرون افتقارًا إلى فهم النزعة التي تسيطر وتوجه فعليًا الوظائف المهنية للأنثروبولوجيين الثقافيين، ذكورًا كانوا أم إناثًا. تعكس هذه النزعة إغراء بالكاد يمكن مقاومته في أن يدعي المرء قيامه بعمل ميداني بين جماعة انزاحت تقاليدها ما يكفي عما هو معتاد، وذلك لتبرير الجهد والثمن الذي تطلّبته دراستهم. (أذكر جيدًا انزعاجي حين اختُرْت لعمل ميداني في أوساط الباثونغا (Bathonga)، جماعة أبوية من جنوب موزمبيق، حين تمكنت بقليل من الدهاء أن أقنع مؤسسة فورد في أن تتيح لي أن أتجه صوب ثقافة أمومية أكثر غرابة إلى الشمال قليلًا، وفي ذلك مزيد من المهنية والفائدة لي). ولأنهم بعيدون تمام البعد من الميل إلى التغاضي عن وجود نظم تقيد سلطة وقوة الذكور، يستطيع معظم الإثنوغرافيين تصور أنه ليس ثمة ما يكافئهم أكثر من إتاحة الفرصة لهم لكتابة مقالات صحافية عن «السكن مع الأم بعد الزواج» أو عن حالة جذابة «للنسب الأمومي وتعدد الأزواج». وبالنظر إلى هذا، أجد أن من المستحيل الاعتقاد أن التناسق الإحصائي الكبير الذي يشير إلى تحيز بنيوي عالمي فعليًا ضد النساء ليس سوى ذرات في أعين الذكور الذين يعملون في الميدان.

هناك 1179 مجتمعًا في قائمة **أطلس الأعراق** لجورج بيتر مردوخ (George P. Murdock). ففي ثلاثة أرباع هذه المجتمعات، لا بد للنساء في العموم من أن ينتقلن إلى بيت الزوج أو أقاربه من جهة الأب بعد زواجهن، بينما في عِشر هذه المجتمعات يجب أن ينتقل الأزواج ليعيشوا في بيت الزوجة أو أقاربها من جهة الأم. ويظهر تقدير نسب الأولاد تناسبًا شبيهًا. ففي المجتمعات الـ 1179 نفسها يعتبر الأولاد أفرادًا من جماعة نسب الأب (الذرية أو العشيرة) خمس مرات أكثر مما يعتبرون من جماعة نسب الأم؛ بالتالي فالنسب الأبوي أكثر شيوعًا بخمس مرات من النسب الأمومي. فقط في ثلث الثقافات التي يكون فيها النسل من نسب الأم يبقى الأولاد المتزوجون مع الأم. وفي ثلث آخر من هذه الثقافات، يتوقف

الأولاد الذكور المتزوجون عن العيش مع الأم ويتخذون مسكنًا في بيت أخ الأم. هذا الأنموذج، الذي يدعى السكن مع الأخوال، يدل على أن أخ الأم هو الذي يحكم أولاد جماعة الأنسباء وممتلكاتهم مع أن النسب هو من النسل الأمومي. ومن الملاحظ أن الأنموذج المعاكس غير موجود، على الرغم من أن غيابه لم يمنع الأنثروبولوجيين من استعمال مصطلح «السكن مع عمة الزوجة» للتعريف به. ولو كان «السكن مع عمة الزوج» موجودًا، لكان الذكر المتزوج في مجتمع ينسب نسبًا أبويًا ملزمًا بمشاركة زوجته السكن مع أخت أبيها. وهذا ما سيدل على أن على الرغم من تقدير النسب في الذرية الذكرية، فإن أخت الأب هي من تحكم ممتلكات وأولاد الجماعة الأنسباء.

تثبت أنواع الزواج أيضًا هيمنة الذكور في العلاقات العائلية. يظهر تعدد الزوجات 100 مرة أكثر من تعدد الأزواج وهو صيغة الزواج التي تلائم في وظيفتها استخدام الجنس والنساء كمكافآت للسلوك «الذكوري» العدواني. كما أن تعدد الأزواج، من جهة أخرى، هو الصيغة التي تلائم مجتمعًا تهيمن عليه النساء ويكون فيه الأزواج المتذللون مكافآت للأنوثة التنافسية العنيفة. لمجتمعات كهذه فرصة ضئيلة في النجاح في الحروب ضد أعداء يكون بينهم الذكور العدوانيون العنيفون هم المتخصصون العسكريون. يبين هذا سبب تشجيع قلة من مجتمعات القرية والجماعة النساء على جمع الأزواج بالطريقة ذاتها التي يشجع كثير منها الرجال على جمع الزوجات.

يقدم نظام شائع آخر مرتبط بالزواج الدليل الجديد على التفوق الذكوري المنبعث ثقافيًا والمرتبط بالحروب وبالضغوط البيئية والإنجابية بشكل أساسي. يعتبر نقل الأشياء الثمينة من أهل العريس إلى أهل العروس أمرًا كثير الشيوع عند الزواج. هذا النقل، المعروف بـ«مهر العروس» يعوض عائلة العروس عن خسارة خدماتها الإنتاجية والإنجابية الثمينة. والحقيقة الصادمة هي أن النظير المنطقي لمهر العروس – مهر العريس – غير موجود فعليًا. (حالة وحيدة، استرعتني حديثًا قدمها إلي جيل ناش (Jill Nash)، هي من ناغوفيزي من بوغانفيل[1]، حيث يقدم

(1) بوغانفيل جزيرة في بابوا غينيا الجديدة. (المترجم)

التعويض الاقتصادي من أخوات وأم العروس إلى أم وأخوات العريس لخسارة الخدمات الإنتاجية والإنجابية.) ينبغي ألا يختلط مصطلح «مهر العريس» مع مصطلح «الدوطة»[2]، والذي هو شكل من أشكال تبادل الثروة عند الزواج. تظهر الدوطة في المجتمعات الأبوية ويقدمها أب العروس وإخوتها إلى العريس أو أبيه. مع أنه لا يعتبر تعويضًا عن خسارة خدمات العريس الإنتاجية والإنجابية، بل يقصد به المساعدة في تغطية التكاليف المرهقة اقتصاديًا للإنفاق على المرأة أو يقصد به دفعة لتأسيس قرابة سياسية اقتصادية عرقية أو طبقية لمصلحة أخوة وأب العروس.

تكمن علاقات الزواج المتحيزة للرجل هذه وراء نظرية الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس في أن الزواج هو «الهدية» المتمثلة في النساء اللواتي يُتبادلن بين الرجال. يؤكد ليفي ستروس أن «الرجال يبادلون النساء؛ أما النساء فلا يبادلن الرجال أبدًا». ولم يقدم ليفي ستروس في أي حال تفسيرًا عن سبب أن الأمر كان على هذا النحو.

علاوة على ذلك، يشهد معظم النظم السياسية في مجتمعات القرية والجماعة سيطرة ذكورية. ففي المجتمعات الأبوية هناك دائمًا رؤساء قبيلة ذكور، وليس رئيسات، ومركز القيادة الدينية في معظم مجتمعات القرية والجماعة ذكورية؛ هناك بعض إناث الشامان[3] – أي الخبيرات في التعامل مع قوى ما وراء الطبيعة – ولكنهن أقل عددًا وشهرة من نظرائهن الذكور.

تعتبر مجتمعات القرية والجماعة النساءَ في أثناء الحيض نجساتٍ دينيًا. فهم يعتبرون دم الحيض دنسًا، على الرغم من أنهم يستخدمون المني في الطقوس التي تهدف إلى تحسين صحة وقوة الجماعة. وحول العالم، يهدد الذكور النساءَ والأطفالَ بـ «ذوات الخوار» (أدوات تحدث ضجة وتدور على عصا)، والأقنعة ووسائل شخصية أخرى. أما منتديات الرجال، والتي تخزن فيها هذه الأدوات والتي تمنع النساء من دخولها، فهي أيضًا جزء من العقدة ذاتها. أما النساء، من

---

(2) الدوطة: ما يدفعه أهل العروس إلى أهل العريس. (المترجم)

(3) الشامان: كهنة الديانة الشامانية، يستخدمون السحر لمعالجة المرضى وكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث من خلال اتصالهم بعالم الأرواح. (المترجم)

جهة أخرى، فنادرًا ما يهددن الرجال في الطقوس، وليس لي علم بقرية يوجد فيها منتدى تجتمع فيه النساء لحماية أنفسهن من الدنس الذي يصدره أزواجهن.

أخيرًا، في كل مجتمعات القرية والجماعة تقريبًا، تتجلى سيطرة الذكر في تقسيم العمل. تقوم النساء بالأعمال المرهقة، كإزالة الأعشاب الضارة، وطحن الحبوب، وإحضار الماء والحطب، وحمل الأطفال وممتلكات البيت، والطبخ اليومي.

هدف نقاشي هو أن هذه النظم المتباينة جنسيًا نشأت كلها كنتاج للحرب واحتكار الذكر الأسلحة العسكرية. فالحرب تتطلب تنظيمًا للجماعات حول مركز إقامة الآباء، والأخوة والأولاد. أدى هذا إلى التحكم بالموارد من الجماعات الأبوية وتبادل الأخوات والبنات بين هذه الجماعات (النسب الأبوي، والسكن الأبوي، ومهر العروس) إلى توزيع النساء كمكافأة لعدوانية الذكر، وبالتالي إلى تعدد الزوجات. ينتج تشغيل النساء في الأعمال المجهدة وإخضاعهن الطقسي والتقليل من قيمتهن تلقائيًا من الحاجة إلى مكافأة الذكور على حساب الإناث وتقديم تبريرات ماورائية لعقدة التفوق الذكوري بكاملها.

ما الذي منع الآخرين من فهم العلاقة السببية بين الحرب وكل تلك النظم المتحيزة للذكور؟ تتمثل العقبة التي يتم التعثر بها دائمًا في أن لمعظم المجتمعات القروية التي تميل إلى الحروب عقد تفوّق ذكورية ضعيفة أو ربما غير موجودة على الإطلاق. فالإيروكواس (Iroquois)، على سبيل المثال، معروفون جيدًا بحروبهم المتواصلة وبتدريبهم الذكور على أن يتحصّنوا ضد الألم. وهم معروفون أيضًا بمعاملتهم عديمة الرحمة لأسرى الحرب، حيث يجبرون الأسرى على العدو في سباق، وينزعون أظافرهم، وينتشلون أطرافهم، وفي النهاية تقطع أعناقهم أو يتم شيّهم أحياء على وتد؛ بعد ذلك تستهلك بقاياهم في ولائم أكل لحوم البشر. ومع ذلك كان الإيروكواس ذوي نسب أمومي وسكن أمومي، ولا يدفعون مهر العروس، وتقريبًا يمارسون الزواج الأحادي، وليس لديهم عقدة دينية لترهيب وعزل النساء. تكشف مجتمعات عدة عن أنموذج مشابه للروح العسكرية القاسية المجتمعة مع النسب الأبوي ونظم التفوق الذكورية الضعيفة أكثر منها القوية.

(خذ في الاعتبار، في أي حال، أن المجتمعات الأمومية تؤلف أقل من 15 في المئة من الحالات كلها).

في الواقع، إن الارتباط بين النظم الأمومية والشكل الشديد الضراوة للروح العسكرية هو أكثر اعتيادًا من أن يكون محض صدفة. إذا لم يكن المرء مقتنعًا في الأصل بأن الحرب مسؤولة عن عقد وصاية الأب-الأبوية، فإن الاستنتاج المنطقي سيكون في أنها مسؤولة أيضًا بمعنى ما عن عقد وصاية الأم-الأمومية. والحل لهذا المأزق، بالطبع، يتجلى في أن هناك أنماطًا مختلفة من الحروب؛ إذ تميل المجتمعات القروية إلى ممارسة صنف من الحروب يختلف عما تمارسه مجتمعات قروية أبوية مثل اليانومامو. وكان وليام ديفال هو أول من أظهر أن المجتمعات الأمومية تشترك نمطيًّا «بحروب خارجية»، أي التغلغل بوساطة فرق مغيرة كبيرة في عمق المقاطعات التابعة لأعداء بعيدين يختلفون لغويًا وعرقيًا عن مهاجميهم. أما الحرب بين مجتمعات القرية والجماعة الأبوية فتدعى «حروبًا داخلية» لأنها تتضمن هجمات مجموعات صغيرة من المغيرين على قرى مجاورة يتكلم فيها الأعداء اللغة ذاتها ويشتركون على الأرجح بسلف مشترك حديث العهد إلى حد ما؛ من هنا جاء مصطلح «الحروب الداخلية».

إن المنطق الكامن وراء الارتباط بين النسب الأمومي والحروب الخارجية هو كالتالي: الرجال المتزوجون الذين ينتقلون إلى بيت أمومي إيروكواسيّ مشترك يأتون من عائلات وقرى مختلفة. يمنعهم تغيير سكنهم من النظر إلى مصالحهم وحدهم دون آبائهم وإخوتهم وأبنائهم، وفي الوقت نفسه يجعلهم في احتكاك يومي برجال من قرى مجاورة. هذا ما يعزز السلام بين القرى المتجاورة ويرسي الأساس لتعاون الرجال في تشكيل فرق حربية كبيرة قادرة على الهجوم على أعداء يبعدون مئات الأميال. (شنت جيوش الإيروكواس التي تتألف من أكثر من 500 محارب هجمات من نيويورك على أهداف في أماكن بعيدة مثل إلينوي). وقد استفاض ديفال في إيراد عدد الحالات التي ينطبق عليها هذا المنطق عبر تبيانه أن الشعوب الأبوية التي تهاجمها جماعات ذات تنظيم أمومي يكون عليها أيضًا أن تتبنى تنظيمًا مشابهًا خلال وقت قصير، وإلا سيكون مصيرها الدمار.

لكن دعوني هنا أتقدم بملاحظة تنفي الاستنتاج أن جميع الحالات ذات النظام الأمومي مرتبطة بممارسة الحروب الخارجية. إن الغياب المطول للذكور لأي سبب يمكن أن يؤدي إلى التركيز على النساء كحاملات للألقاب وكوصيات على مصالح الرجال. إن حملات الصيد البري وصيد الأسماك والتجارة البعيدة هما نشاطان ذكريان مرتبطان أيضًا بالنسب الأمومي. المنطق شبيه بما يتعلق بالحروب: يجب أن يتضافر الرجال لِتَوَلي أعمال فيها مخاطرة وتتطلب منهم أن يبقوا خارج البيوت والأراضي والممتلكات الأخرى أسابيع وأشهرًا. تعني هذه الغيابات المديدة أن النساء سيتحملن مسؤولية القرارات في أنماط الأعمال اليومية وفي رعاية الأولاد وتدريبهم، ويجب أن يحملن على عاتقهن عبء الإنتاج الزراعي في البساتين والحقول. نشأ التحول من النظم الأبوية إلى النظم الأمومية كمحاولة الذكور الغائبين نقل الاهتمام بالبيوت والأراضي والممتلكات ذات الملكية المشتركة، إلى الأخوات. يعتمد الإخوة الغائبون على أخواتهم أكثر من زوجاتهم لأن الزوجات جئن من جماعة أخرى ذات مصلحة أبوية ولديهن ولاءات متشعبة. أما الأخوات اللواتي يبقين في البيت، في أي حال، فلديهن مصالح الملكية ذاتها التي لدى الإخوة. ولذلك لا يشجع الإخوة الغائبون على الزيجات التي تنقل الأخوات من المسكن الذي ترعرعوا فيه معًا. وتسعد الأخوات كثيرًا في الطاعة بما أن الزواج الأبوي سيعرضهن للمعاملة السيئة على يدي أزواج يعتقدون بالتفوق الذكري وحموات وأحماءٍ عديمي الشفقة.

لا يحتاج الانتقال الفعلي من المسكن الأبوي إلى المسكن الأمومي إلى أن يتضمن أي تغيرات مؤسسية مفاجئة وصادمة. يمكن أن يتم بحيلة بسيطة وهي تبديل ثمن العروس إلى خدمة العروس. بمعنى آخر، بدلًا من نقل الأشياء الثمينة كمقدمة لأخذ العروس من عائلتها، يستقر الزوج موقتًا مع العائلة، يصطاد لها، ويساعدها في تنظيف الحقول. ومن هذا الوضع هناك خطوة واحدة فقط نحو أنواع الزواج التي تميز النظم الأمومية وذات السكن الأمومي. هذه الزيجات هي علاقات يسهل النكوث بها ويعتبر فيها الأزواج في الواقع مقيمين موقتين يتمتعون بمزايا جنسية، ويمكن أن يطلب منهم الرحيل متى سبّب وجودهم أدنى إزعاج. بين هنود البيبلو ذوي المسكن الأمومي في أريزونا ونيو مكسيكو، على

سبيل المثال، كان يطرد الزوج المزعج بوسيلة بسيطة تتمثل في وضع خفّيه خارج الباب الأمامي. يمكن أن تعزم نساء الإيروكواس على أمر الرجل أن يحمل دثاره ويذهب؛ وكما أشار لويس هنري مورغان (Lewis Henry Morgan) عن الزواج عند الإيروكواس، «كان يمكن لأتفه الأسباب، أو لنزوة لحظة، أن تفك رباط الزواج». بين جماعة النيار (Nayars)، وهم طبقة أمومية حربية على ساحل مالابار في الهند، وصلت قلة أهمية الأزواج إلى حد أن السكن المشترك كان وقفًا على الزيارات الليلية.

تتعارض الأُسَر التي يكون مقيموها الأساسيون الأمهات والأخوات والبنات مع رجال يكونون في الخارج ضمن فرق حربية أو حملات أخرى أو يعيشون موقتًا مع عائلة زوجاتهم، مع فكر وممارسة النسب والميراث الأبوي. ما عاد الأولاد - المتفرقون في مساكن متعددة أقام فيها في فترات علاقاته الجوالة - هم من يبحث الرجل من خلالهم عن استمرارية مأواه وأراضيه؛ بل أولاد أخواته، الذين سيكبرون في المكان الذي ترعرع فيه. أو بالنظر إلى الحالة نفسها من منظار الأولاد، ليس الأب من يتوجهون إليه من أجل الميراث والحماية؛ إنما هو خالهم.

لأتناول إشكالية جديدة. ليست كل المجتمعات التوسعية ما قبل الدولة التي تشارك في حروب خارجية ذات تنظيم أمومي. ففي أفريقيا، مثلًا، تنخرط مجتمعات رعوية مثل النوير (Nuer) والماساي (Massai) في حروب خارجية لكنها ليست أبوية النسب والسكن. وهذه الجماعات تتطلب دراسة مستقلة. معظم المجتمعات الرعوية ما قبل الدولة المرتحلة أو شبه المرتحلة هي مجتمعات توسعية شديدة النزعة العسكرية، ولكنها شديدة الأبوية في النسب والسكن وليست أمومية. ويكمن السبب في أن مصدر رزق الرعويين وثروتهم الأساسيين هو قطيع الحيوانات الحيّ، لا محاصيل الحقل. عندما يكثف رعويو ما قبل الدولة الإنتاج، نتيجة الضغط السكاني، يتوسعون نحو المقاطعات المجاورة، لا يتحتم على المقاتلين الذكور أن يقلقوا حيال ما يحدث في البيت. يمضي الرعويون عادة إلى الحروب لأخذ حيواناتهم إلى مراعٍ أفضل، لذا فالبيت يتبعهم. من هنا كان ما يميز الحروب التوسعية عند الشعوبِ الرعوية ما قبل الدولة الغزوُ الموسمي

مسافات طويلة انطلاقًا من البيت، كما هي الحالة عند كثير من المجتمعات الأمومية الزراعية، ولكن من خلال هجرة الجماعات بكاملها: الرجال والنساء والأولاد والحيوانات.

يجلو اكتشاف العلاقة بين الحروب الخارجية وتطوير النظم أموميةِ النسبِ عددًا من الألغاز التي حيّرت الأنثروبولوجيين أكثر من مئة سنة. يستطيع المرء أن يدرك الآن لماذا لم يُستبدل نظام سلطة الأب بنظام سلطة الأم، وتعدد الأزواج بتعدد الزوجات، ومهر العروس بمهر العريس. استثنيت سلطة الأم ما استمر الذكور في احتكار وسائل وتقنيات العنف الجسدي. والسبب في أن السكن مع إخوة الأم كثيرُ الشيوع في المجتمعات الأمومية هو أن الرجال يرفضون أن يدعوا أخواتهم يسيطرن على حصتهم من الملكية الأمومية المشتركة. كما أن سبب غياب السكن مع عمة الزوج أن النساء – أخوات الآباء – غير قادرات أبدًا على ممارسة درجة ما من السيطرة على ملكيتهن الأبوية أكثر مما يفعل إخوتهن. والسبب في أن مهر العريس لا يُدفع فعليًا هو أن الأزواج في النظم الأمومية النسب لا يحتلون منزلة توازي الزوجات في النظم الأبوية. ولا يعد الأزواج تابعين لجماعة الزوجة المنزلية ولا يتنازلون عن التحكم بعلاقاتهم المنزلية إلى أخواتهم؛ لذلك، لا تدفع الزوجات مهر العريس إلى أخوات الزوج تعويضًا عن خسارة خدمات الرجل الإنتاجية والإنجابية. والسبب في أنه ليس ثمة تعدد للأزواج في المجتمعات الأمومية بالقدر الذي يوجد فيه تعدد الزوجات هو أن الجنس يستمر في كونه مكافأة لشجاعة الذكر. لا يوجد صياد رؤوس متمرس واحد أو سالخ فروة رأس سيقيم في سعادة زوجية بمشاركة أربعة أو خمسة من ندمائه تحت وصاية امرأة واحدة (على الرغم من أن مشاركة المحظيات والاغتصاب الجماعي يمكن القيام بهما بسهولة).

لا أنكر بذلك كله أن تطور النظم الأمومية يضفي تأثيرًا ملطفًا على قسوة عقدة التفوق الذكري. ولأسباب متعلقة بتفسير الانتقال إلى الحروب الخارجية، والتي سأناقشها لاحقًا، يؤدي النسب الأمومي إلى التقليل من قتل الأطفال الإناث التمييزي وحتى إلى عكس تفضيل جنس المولود الأول. رجل الإيروكواس،

على سبيل المثال، يريد أخواته أن ينجبن البنات حتى لا ينقطع نسله الأمومي، وفي مراقبة السكن الأمومي الصارم يجب على الرجل الذي يريد أن يتزوج عددًا من الزوجات أن يقيد نفسه بنساء أخوات لبعضهن. (تعدد الزوجات العرفي كان غالبًا من الماضي في المجتمعات الأمومية النسب، كما هي الحال بين الإيروكواس). وكما أسلفتُ، يمكن النساء فسخ الزيجات في المجتمعات الأمومية بسهولة. فعندما يكون الرجل ضيفًا في مسكن الزوجة، لا يمكنه إساءة معاملتها وأن يتوقع منها أن تأخذ الأمر برحابة صدر. ومع ذلك فإن تخفيف الهرمية الجنسية هذا يجب ألا يختلط ببطلان تلك الهرمية. في حماستهم لقلب الأنماط الشائعة للتفوق الذكوري، يشيد بعض الأنثروبولوجيين بالتأثير الملطف للنظم الأمومية على درجة السيطرة الذكورية كأنها كانت دليلًا على المساواة الجنسية. ينبغي على المرء ألا يعظم حقيقة أن نساء الإيروكواس «كن يعبّرن عن بالغ استيائهن من ضرب الأزواج». وحقيقة أن النساء «يمكن أن ينتحرن ثأرًا لأنفسهن على المعاملة السيئة» ليست إشارة إلى مساواتهن مع الرجال، كما أشار واحد من الباحثين. النقطة المهمة هي أنه لا يوجد امرأة من الإيروكواس تتجرأ على ضرب زوجها. وإذا حدث يومًا شيء كهذا، «سيثأر» الزوج لنفسه بطريقة أكثر إقناعًا من الانتحار. لا أرى سببًا يدعو للشك في أن لويس هنري مورغان كان يعلم عما يتحدث عندما كتب أن الذكر بين الإيروكواس «يعتبر النساء الأدنى منزلة، التابع، وخادم الرجل، ومن العادة والتربية، اعتبرت هي نفسها كذلك بالفعل». كان المراقبون الأوائل الذين عبروا عن آراء مخالفة لرأي مورغان مربكين كليًا بالاختلاف بين النسب الأمومي والتفوق الأنثوي.

كان التأثير المخفف للنسب الأمومي أقوى وربما أكثر استثنائية في مجال السياسة من الزواج والحياة المنزلية. وعلى حد علمي، من بين جميع الحضارات القروية التي نمتلك معلومات موثوقة عنها لم تقترب واحدة منها إلى نظام السلطة الأمومية أكثر من الإيروكواس. ومع أن دور النساء كصانعات قرار سياسي لا يؤسس لمساواة سياسية بين الجنسين، إلا إن لدى رئيسات الإيروكواس سلطة في تعيين الزعماء الذكور الذين يتم انتخابهم إلى كيان الحكم الأعلى، والذي يدعى مجلس الشورى، وعزلهم. ومن خلال تمثيل ذكوري في المجلس يمكنهن التأثير في

قراراته وممارسة السلطة في إدارة الحروب وعقد الاتفاقات. تمر أهلية الانتخاب عبر الخط الأنثوي، وكان واجب النساء ترشيح الرجال الذين سيعملون في مجلس الشورى. ولكن النساء أنفسهن لا يمكنهن العمل في المجلس، والذكور أصحاب المناصب لديهم حق النقض لمرشحي الرئيسات. تختم جوديث براون (Judith Brown) مسحها حول الهرمية الجنسية عند الإيروكواس بملاحظتها أن «الأمة لم تكن ذات سلطة أمومية، كما يدّعي البعض». ولكنها تضيف أن «الرئيسات كن العقول المدبرة». ليست هذه هي النقطة الأساسية، فالنساء أبدًا ذوات سلطة وتأثير خلف الأضواء أكثر مما هن علنًا. وحقيقةُ أنهن نادرًا ما يكن تحت الضوء أمرٌ محير ويمكن تفسير ذلك، كما أرى، بالعلاقة مع ممارسة الحروب.

بمعزل عن المشكلات التي تسببها المجتمعات الأمومية الحربية، هناك سبب آخر في إهمال تأثير الحروب على أدوار الجنسين فعليًا حتى الآن. فقد هيمن الأطباء وعلماء النفس الفرويديون على النظريات الحديثة حول أدوار الجنسين. كان الفرويديون على الدوام متنبهين لوجود نوع ما من الصلة التي لا بد من أنها وُجدت ما بين الحروب وأدوار الجنسين، ولكنهم قلبوا اتجاه مؤشر الأسباب وردوا الحرب إلى العدوانية الذكورية بدلًا من رد العدوانية الذكورية إلى الحروب. أثر قلب الاتجاه هذا في فروع معرفية أخرى ودخل الثقافة الشعبية، حيث نهض مثل ضباب أمام المشهد الفكري. ادعى فرويد أن العدوانية هي تجلٍّ لإحباط الغرائز الجنسية في الطفولة، وأن الحرب هي عدوان مقونن اجتماعيًا وخبيئة في شكلها الأكثر عنفًا. وإذا كان للرجال أن يسيطروا على النساء، فإن ذلك يتبع تلقائيًا الطريقة التي يختبر فيها الذين يمتلكون الأعضاء الجنسية الذكرية والذين يمتلكون الأعضاء الجنسية الأنثوية، على التوالي، تأنيب الجنسانية الطفولية. بحسب فرويد، يتنافس الصبيان مع الأب من أجل السيادة الجنسية على المرأة نفسها. يتخيلون أنهم قادرون كليًا وأن في إمكانهم قتل منافسهم، والذي يهدد، حقيقةً أو وهمًا، بقطع أعضائهم الجنسية. هذا – السيناريو المركزي في نظرية النشاط النفسي الفرويدية – ما سماه فرويد عقدة أوديب. يتضمن انحلالُ العقدة تعلمَ الصبي توجيه عدوانيته بعيدًا من أبيه ونحو نشاطات اجتماعية «بناءة» (والتي قد تتضمن الحرب).

بالنسبة إلى البنت، صور فرويد صدمة موازية، لكنها مختلفة بشكل أساسي. جنسانية البنت موجهة أيضًا نحو الأم، ولكنها في المرحلة القضيبية تكتشف اكتشافًا صادمًا: فهي تفتقد القضيب. «تعتبر الفتاةُ الأمَّ مسؤولة عن حالتها المخصية»، ولذلك «يتحول حبها نحو الأب لأنه يمتلك العضو المهم والذي تتوق لتتشارك به معه». ولكن حبها لأبيها والرجال الآخرين «مختلط مع شعور بالحسد لأنهم يمتلكون شيئًا تفتقر إليه». وبينما يفرغ الذكور عقدة أوديب بتعلمهم التعبير عن العداء تجاه الآخرين، تتعلم الفتاة التعويض عن افتقارها للقضيب بقبول وضع أدنى وإنجاب الأطفال (الذين يرمزون للقضيب المفقود).

على الرغم من أن هذا السيناريو يبدو محض هراء، فإن بحثًا أنثروبولوجيًا بيّن أن هناك تكرارًا واسعًا وحتى عالميًا للنماذج السايكو-دينامية التي تشكّل المساعي الأوديبية؛ أقلُّه في الحد الأدنى من العدوان المشحون جنسيًا بين ذكور الجيلين الأكبر والأصغر وحسد القضيب بين الإناث. أوضح برونيسلاو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) أنه حتى بين أهالي جزر التروبرياند أمومية النسب والسكن عند الخال، يحضر التنافس الأوديبي؛ على الرغم من أنه ليس بالضبط بالصورة التي سبقه فرويد بها من حيث إن الشخصية التي تمتلك السلطة خلال الطفولة هي أخ الأم وليس الأب. بالتأكيد كان فرويد يسعى لشيء ما، لكن للأسف كانت مؤشرات الأسباب لديه تدور إلى الوراء. الهراء يكمن في فكرة أن الطبيعة البشرية مسؤولة عن الحالة الأوديبية، وليس الثقافة البشرية. ولا شك في أن الحالة الأوديبية منتشرة بشكل كبير. كل الشروط لخلق رهاب الخصاء والحسد على القضيب موجودة في عقدة التفوق الذكري؛ في احتكار الذكر للأسلحة وتدريب الذكور على الجرأة والأدوار القتالية، وفي قتل الأطفال الإناث وفي تدريب الإناث على أن يكن مكافآت منفعلة للسلوك «الذكري»، في تحيز النسب الأبوي، وفي غلبة تعدد الزوجات، في الرياضات الذكورية التنافسية، والطقوس الكثيفة لسن البلوغ عند الذكور، واعتبار الحائضات نجساتٍ ضمن الطقوس، وفي مهر العروس، وفي كثير من النظم التي يكون الذكور مركزًا لها. من الواضح، أينما كان هدف تربية الأطفال هو إنتاج ذكور مسيطرين عدوانيين «رجوليين» وإناث خاضعات منفعلات ولديهن «أنوثة»، أنه سيكون هناك شيء كرهاب الخصاء

بين الذكور في أجيال متقاربة - سيشعرون بعدم الأمان تجاه رجولتهم - وبشيء كالحسد من القضيب من أخواتهم، اللواتي سيبالغن في تقدير قوة وأهمية الأعضاء التناسلية الذكرية.

ذلك كله لا يخلص إلا إلى استنتاج واحد: لم تكن عقدة أوديب سبب الحرب؛ بل الحرب هي سبب عقدة أوديب (مع العلم أن الحرب نفسها ليست السبب الأول، بل أمرٌ ثانويٌّ لمحاولة التحكم بالضغوط البيئية والإنجابية). يبدو هذا كمعضلة البيضة والدجاجة التي لا حل لها، ولكن هناك أسبابًا علمية دقيقة لرفض الأولويات الفرويدية. وبدءًا بعقدة أوديب، لا يمكن المرء أن يفسر التنوع في كثافة الحروب ومجالها؛ لِمَ تنزع بعض الجماعات إلى الحروب أكثر من غيرها ولم يمارس البعض أشكالًا خارجية من الغزو والآخر يمارس أشكالًا داخلية منه. ولا يمكن المرء أن يفسر سبب تنوع نظم عقدة التفوق الذكوري في القوة والجوهر. ولا يمكننا أيضًا، إذ نبدأ من عقدة أوديب، أن نفسر أصل الزراعة، والطرق المتشعبة للوفرة والاستنزاف في العالم القديم والعالم الجديد، أو أصل الدولة. ولكن بالبدء من الضغط الإنجابي، الوفرة والاستنزاف، يمكن أن يفهم المرء الجوانب الثابتة والمتنوعة للحرب. ومن معرفة أسباب التنوع في الحرب، يمكن أن يصل المرء إلى فهم أسباب التنوع في تنظيم الأسرة، والهرميات الجنسية، وأدوار الجنسين، ومن ثم الخصائص الثابتة والمتنوعة لعقدة أوديب. هناك مبدأ أساسي في فلسفة العلم يفيد أنه إذا وجب على المرء الاختيار بين نظريتين، فإن النظرية التي تعطي تفسيرًا لأنواع مختلفة بأقل عدد من الفرضيات المستقلة غير المفسرة تستحق الأولوية.

تستحق الفكرة المتابعة لأن الخلاصات المنطقية الفلسفية والعملية تلتزم كل نظرية. من جهة، تشبه نظرية فرويد إلى حد كبير مقاربةَ «الحرب كطبيعة بشرية». فهي تجعل العدوان والعنف يبدوان محتّمين. وفي الوقت نفسه تقيّد الرجال والنساء على السواء ضمن صيغة بيولوجية مُلزِمة («الفرق التشريحيّ قدر»)، وبذلك تثير الشك، بل تقنن التحرك في سبيل الوصول إلى المساواة الجنسية. على الرغم من أنني ناقشت أن التكوين التشريحي يختصُّ الذكورَ في أن يتدربوا على

أن يكونوا عنيفين وعدوانيين إذا كان هناك حرب، لم أقل إن التشريح أو المورثات أو الغريزة أو أي شيء آخر يجعل من الحرب أمرًا محتومًا. ليست حقيقة أن كل البشر في العالم اليوم وفي الماضي المعروف عاشوا في مجتمعات حربية متحيزة جنسيًا أو مجتمعات متأثرة بمجتمعات حربية متحيزة جنسيًا سببًا كافيًا لوضع الطبيعة البشرية في صورة الخصائص الهمجية ضرورية الوجود لشن الحروب الناجحة. ولا تعني حقيقة أن الحرب والتحيز الجنسي أديا واستمرا في تأدية دور مهيمن في العلاقات الإنسانية أنهما يجب أن يستمرا كذلك في المستقبل. ستتوقف ممارسة الحروب والتحيز الجنسي عندما تتحقق وظائفهما البيئية والإنتاجية والإنجابية ويُستعاض عنها ببدائل أقل تكلفة. هذه البدائل في متناولنا أول مرة في التاريخ. فإذا فشلنا في الاستفادة منها، لن يكون الخطأ خطأ طبائعنا، بل خطأ ذكائنا وإرادتنا.

المراجع والملاحظات

يُنظر: Evelyn Reed, *Woman's Evolution* (New York: Pathfinder Press, 1975).

عن نبش القبور. وعن إظهار التشديد على تبعية المرأة بشكل مبالَغ فيه يُنظر:
Ernestine Friedl, «The Position of Women: Appearance and Reality,» *Anthropological Quarterly,* vol. 40 (1967), pp. 97-108; Louise Sweet, «The Women of 'Ain and Dayr',» *Anthropological Quarterly*, vol. 40 (1967); Louise Lamphere, «Women and Domestic Power: Political and Economic Strategies in Domestic Groups,» in: Dana Raphael (ed.), *Being Female: Reproduction, Power, Change* (The Hague: Mouton, 1975); Carol Hoffer, «Bundu: Political Implications of Female Solidarity in a Secret Society,» in: Raphael (ed.), *Being Female*; Rayna Reiter (ed.), *Toward an Anthropology* of *Women* (New York: Monthly Review Press, 1975).

عن الهجوم على المتعامين؛ الذكور يُنظر: Phyllis Kalberry, *Aboriginal Woman, Sacred and Profane* (London: Routledge, 1970; [1939]); Sally Linton, «Woman the Gatherer: Male Bias in Anthropology,» in: Sue Ellen Jacobs (ed.), *Women in Perspective: A Guide for Cross Cultural Studies*. Urbana: University of Illinois Press, 1973).

تشير الإحصاءات الصادرة عن مردوخ إلى نسخة بطاقة الكمبيوتر المخرَّمة عن **الأطلس الإثنوغرافي**. يُنظر أيضًا: George P. Murdock, *Ethnographic Atlas* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1967).

العمل الأنموذجي عن القرابة والزواج هو لمردوخ: George P. Murdock, *Social Structure* (New York: Macmillan, 1949).

عن الناغوفيسي يُراجع: Jill Nash, *Matriliny and Modernization: The Nagovisi of South Bougainville* (New Guinea Research Bulletin, 1974).

مصطلح 'المهر' dowry يعني أحيانًا حصة المرأة من ميراث الوالدين التي تُمنح لها حين الزواج. ويجب أن تُسمى الميراث المسبق بدلًا من المهر. يُنظر: Claude Lévi-Strauss, *The Elementary Structures of Kinship*, rev. ed., trans. by J. H. Bell, J. R. von Sturmer & Rodney Needham (Boston: Beacon, 1969).

لمعرفة المزيد عن المؤسسات غير المتماثلة يمكن الاطلاع على **المدخل إلى روزالدو ولامفير**: M. Z. Rosaldo & L. Lamphere (eds.), *Women, Culture and Society* (Stanford: Stanford University Press, 1974); Ernestine Friedl, *Women and Men: An Anthropologist's View* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1975).

في ما يتعلق بحرب الإيروكواس، اعتمدتُ: Raymond Scheele, «Warfare of the Iroquois and Their Northern Neighbors,» PhD dissertation, Columbia University, 1950; Lewis H. Morgan, *League of the Iroquois* (New York: Corinth Press, 1962);

يُنظر: William Divale, «An Explanation for Matrilocal Residence,» in: Raphael (ed.), *Being Female*; W. T. Divale, F. Chamberis & D. Gangloff, «War, Peace and Marital Residence in Pre-Industrial Societies,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 20 (1976),

للاطلاع على مسكن الأم والحرب الخارجية. الاقتباس عن زواج الإيروكواس مأخوذ من: Morgan, *League*, p. 325,

عن نساء الإيروكواس يُنظر: Judith Brown, «Iroquois Women: An Ethnohistoric Note,» in: Rayna Reiter (ed.), *Toward an Anthropology of Women* (New York: Monthly Review Press, 1975).

عن الرعوية، يُنظر: Philip Salzman (ed.), «Comparative Studies of Nomadism and Pastoralism,» *Anthropological Quarterly*, vol. 44, no. 3 (1971), pp. 104-210.

النسوية المضللة مقتبسة عن: Scheele, «Warfare of the Iroquois,» p. 48.

الاقتباس الذي يليه مأخوذ عن مورغان: Morgan, *League*, p. 324,

والاقتباس الذي ورد بعده عن: Brown, «Iroquois Women,» pp. 240-241.

وبما يتعلق بعقدة أوديب يُنظر: Calvin Hall & G. Lindzey, «Freud's Psychoanalytic Theory of Personality,» in: Robert Hunt (ed.), *Personalities and Cultures: Readings in Psychological Anthropology* (Garden City: Natural History Press, 1967); Victor Barnouw, *Culture and Personality* (Homewood, Ill.: Dorsey Press, 1973); Bronislaw Malinowski, *Sex and Repression in Savage Society* (London: Routledge & Kegan Paul, 1927),

ولمثال جيد عن الأولويات السببية المقلوبة للفرويدية يُنظر: Maurice Walsh & B. Scandalis, «Institutionalized Forms of Intergenerational Male Aggression,» in: Martin Nettleship, R. Dale Givens & Anderson Nettleship (eds.), *War, Its Causes and Correlates* (The Hague: Mouton, 1975).

7

أصل الدول البدائية

كان الإنسان العادي في معظم مجتمعات القرى والجماعات قبل نشوء الدولة، يتمتع بحريات اقتصادية وسياسية لا تتمتع بها اليوم سوى أقلية ذات امتيازات خاصة. كان الرجال يقررون بأنفسهم كم يعملون من الوقت في يوم محدد، وما الذي سيعملونه، أو إذا كانوا سيعملون في الأصل. وكانت النساء أيضًا، على الرغم من خضوعهن للرجال، يضعن عمومًا جداولهن اليومية الخاصة ويحددن وتيرة عملهن بشكل فردي. كانت هناك أنماط قليلة. كان الناس يقومون بما عليهم القيام به، ولكن المكان والزمان لم يكن يفرضهما الآخرون. لم يكن هناك مسؤولون، كبار عمال، أو مديرون يقفون جانبًا، يقيسون ويحصون. لم يقل أحد كم دبًا أو غزالًا عليك أن تصطاد أو كم درنة يام[1] بري عليك أن تنبش. يقرر الرجل ما إذا كان اليوم ملائمًا ليوتر قوسه، يكوم قش الأسقف، يبحث عن الريش، أو يتسكع حول المخيم. تقرر المرأة ما إذا كانت ستبحث عن اليرقات، أو تجمع الحطب، أو تجدل سلة، أو تزور أمها. إذا كان يمكن الاتكال على ثقافات مجتمعات القرية والجماعة المعاصرة في كشف الماضي، فإنه كان يتم العمل على هذا الشكل لعشرات آلاف السنين. علاوة على ذلك، كان خشب القوس، وأوراق الأسقف، والعصافير وريشها، والجذوع من أجل النار، وخيوط السلال - كلها

(1) اليام (yam): نوع من البطاطا الحلوة. (المترجم)

متاحة للجميع. كانت الأرض والماء والنباتات والصيد ملكية مشاعية. كل رجل وكل امرأة لديه حق الملكية في حصة متساوية من الطبيعة. لم تكن الإيجارات، الضرائب أو الجزية تمنع الناس من القيام بما يريدون القيام به.

مع نشوء الدولة انقضى هذا كله. لخمس أو ست ألفيات مضت، فإن 9 من 10 من كل البشر الذين عاشوا يومًا قاموا بذلك كمزارعين أو أفراد من طبقة أو فرقة عبودية. لكن مع نشوء الدولة، كان على الرجال العاديين الذي يسعون للاستفادة من خيرات الطبيعة أن يستأذنوا شخصًا آخر، وكان عليهم أن يدفعوا مقابل ذلك ضرائبَ، أو جزية أو جهدًا إضافيًا. وانتُزعتْ منهم الأسلحة وتقنيات الحرب والاعتداء المنظم، ومُنحت لجنود متخصصين ورجال شرطة يحكمهم موظفون بيروقراطيون عسكريون ودينيون، أو مدنيون. أول مرة ظهر على الأرض الملوك، والدكتاتوريون، وكبار الكهنة، والأباطرة، ورؤساء الوزراء، والرؤساء، والحكام، ورؤساء البلديات، والعمداء، والأميرالات، وضباط الشرطة، والقضاة، والمحامون، والسجانون، مع الزنزانات والسجون والإصلاحيات ومعسكرات الاعتقال. وتحت سلطة الدولة، تعلم البشر أول مرة كيف ينحنون ويتمرغون بالتراب ويركعون ويسجدون. كان في نشوء الدولة من جوانب كثيرة انحطاط العالم من الحرية إلى العبودية.

كيف حدث ذلك؟ للإجابة، سأميز بين كيفية حدوث ما حدث في مناطق معينة من العالم وحدوثه منذ ذلك فصاعدًا. يجب التمييز، بالاعتماد على مصطلحات مورتون فرايد (Morton Fried)، بين أصل الدول «البدائية» والدول «التابعة». الدولة البدائية هي الدولة التي لم يسبق وجود دولة قبلها تحفز عملية تشكيل الدولة. للتثبت من ذلك، وعلى اعتبار أنه لا يوجد مجتمع في الفراغ، فإن العمليات التطورية كلها تتأثر بالتفاعل بين المجتمعات، ولكن «هناك حالات لا تكون فيها أيٌّ من الثقافات الخارجية أكثر تعقيدًا من الثقافة المدروسة ذاتها، ويمكن اعتبار هذه الحالات بدائية».

يميل علماء الآثار إلى الاتفاق على أن هناك على الأقل ثلاثة مراكز لتطور الدولة البدائية، وربما تصل إلى ثمانية. الأمثلة الثلاثة الأكيدة هي بلاد ما بين

النهرين في نحو عام 3300 ق. م، والبيرو نحو زمن المسيح، وأميركا الوسطى في نحو عام 300م. من المؤكد فعليًا أن الدول البدائية في العالم القديم نشأت أيضًا في مصر (حوالى عام 3100 ق. م)، وفي وادي السند (قبل عام 2000 ق. م بوقت قصير)، وفي حوض النهر الأصفر شمالي الصين (بعد عام 2000 ق. م بوقت قصير). هناك في أي حال شك جدير بالاعتبار في ادّعاء بعض علماء ما قبل التاريخ حول تطور الدول البدائية أيضًا في جزيرة كريت وجزر إيجه في نحو عام 2000 ق. م، وفي إقليم البحيرات شرق أفريقيا نحو عام 200م. هناك خلاف أيضًا بشأن مسألة ما إذا كانت دول أميركا الوسطى في العالم الجديد قد نشأت أولًا في منطقة المايا (Maya) المنخفضة أم في المرتفعات المكسيكية. وسأوضح ذلك في الفصل التالي.

يظهر أن الصورة الأمثل لفهم قيام الدول البدائية أنها نتيجة لتكثيف الإنتاج الزراعي. فمثل مجتمعات الصيادين وجامعي الثمار، كانت القرى الزراعية تميل إلى تكثيف محاولات إنتاج الغذاء للتخفيف من الضغوط الإنجابية. وعلى عكس مجتمعات الصيد وجمع الثمار، في أي حال، يمكن للمشتغلين بالزراعة في المناطق ذات التربة الأفضل أن يكثفوا محاولاتهم لوقت أطول نسبيًا من دون أن يعانوا استنزافات حادة أو خسارات في الكفاية. لذلك تميل القرى المستقرة التي تشتغل بالزراعة إلى تطوير مؤسسات مختصة بتشجيع التكثيف من خلال المكافأة المجزية للذين يعملون بجد أكبر من غيرهم. إن الطبيعة المتميزة للمؤسسات المسؤولة عن مكافأة مكثفي الإنتاج في القرى الزراعية المستقرة ما قبل الدولة هي جزء أساسي من العملية التي تطورت من خلالها تركيبة الخضوع في الدولة.

يشير الأنثروبولوجيون إلى مكثفي الإنتاج الزراعي بـ «الرجال العظماء». ففي مرحلتهم الأنقى والأكثر مساواة، المعروفة جيدًا من خلال دراسات جماعات عدة في ميلانيزيا وغينيا الجديدة، يؤدي «الرجال العظماء» دور الأفراد العاملين بجد، الطموحين، الذين يحملون روح الجماعة والذين يحثون أقاربهم وجيرانهم بالعمل لديهم من خلال وعدهم بإقامة وليمة كبيرة مما ينتجون من طعام فائض. عندما تقام الوليمة، يقوم «الرجل العظيم»، محاطًا بمساعديه الفخورين، بتباهٍ

بتوزيع أكوام من الطعام وهدايا أخرى ولا يترك شيئًا لنفسه. وتحت ظروف بيئية معينة، وخلال الحروب، فإن مدبِّري الغذاء هؤلاء يمكنهم بالتدريج أن يرفعوا أنفسهم فوق أتباعهم ويصبحوا النواة الأصلية للطبقات الحاكمة للدول الأولى.

أخذ الأنثروبولوجي من جامعة هارفرد دوغلاس أوليفر (Douglas Oliver) على عاتقه القيام بدراسة كلاسيكية عن «حالة العظَمة» خلال عمله الميداني بين سيواي في بوغانفيل في جزر سليمان. بين السيواي، يدعى «العظيم» «ميومي» (mumi)، والوصول إلى مرتبة «ميومي» هو أعلى طموح لأي شاب. يثبت الشاب قدرته على أن يصبح «ميومي» من خلال العمل بجد أكبر من أي شخص آخر ومن خلال الحد بعناية من استهلاكه للحم وجوز الهند. في النهاية، يقنع زوجته وأولاده وأقاربه المقربين بجدية نواياه، فيندفعون لمساعدته في تحضير أولى ولائمه. فإذا نجحت الوليمة، تتسع دائرة داعميه ويجهز للعمل بسرعة على عرضٍ أكبر لسخائه. يهدف تاليًا إلى إنشاء نادٍ للرجال يستطيع أتباعه الرجال أن يتسكعوا فيه ويستطيع ضيوفه أن يأكلوا ويبتهجوا. تقام وليمة أخرى عند تكريس المنتدى، وإذا نجحت هذه أيضًا فإن دائرة داعميه – أولئك الراغبين في العمل على وليمة أخرى – تتسع أكثر وسيبدأ الكلام عنه على أنه «ميومي». ماذا يستفيد داعموه من هذا كله؟ على الرغم من أن ولائم أكبر تعني أن مطالب «ميومي» من أتباعه تصبح أكثر تضييقًا، فإن المقدار الإجمالي للإنتاج يرتفع. لذلك إذا تذمر التابعون بين الفينة والأخرى حول الجهد الذي يبذلونه في العمل، فسيبقون موالين لـ «ميومي» ما دام أنه يستمر في المحافظة على شهرته «كوهّاب» أو زيادتها.

في النهاية يأتي وقت تحدّي الـ «ميومي» الجديد للآخرين الذين ارتقوا قبله. يقام ذلك في وليمة «ميوميناي»، حيث يُحفظ سجل بجميع الخنازير وفطائر جوز الهند وحلويات دقيق نخل الساغو باللوز التي يهبها الـ «ميومي» المضيف وأتباعه إلى الـ «ميومي» الضيف وأتباعه. إذا لم يكن بمقدور الـ «ميومي» الضيف أن يرد خلال سنة تقريبًا بوليمة لا تقلّ سخاءً عن سخاء وليمة متحديه، سيعاني إهانة اجتماعية كبيرة ويكون هبوطه من الـ «ميومية» وشيكًا. على الـ «ميومي» أن يختار

بعناية من يتحداه. فيحاول أن يختار ضيفًا يزيد هبوطه من سمعته، ولكن يجب أن يتفادى واحدًا يتفوق عليه بقدرته على الرد.

في نهاية وليمة ناجحة، لا يزال على الـ «ميومي» الأعظم أن يواجه حياة من الكدح الشخصي مع الأخذ في الاعتبار أمزجة وأهواء تابعيه. الـ «ميومية» – في الأقل، كما راقبها أوليفر – لا تعطي القوة لإكراه الآخرين على تنفيذ الأوامر، ولا ترفع من مستوى عيش الـ «ميومي» فوق غيره. في الواقع، بما أن الوهب هو دم الحياة في الـ «ميومية»، يستهلك الـ «ميوميون» العظماء من اللحم والأطعمة الشهية كمية أقل مما يستهلكها السيواي العادي الهامشي. هناك مقولة بين الكوكا (Kaoka)، وهي جماعة أخرى من جزر سليمان أنجز هربرت إيان هوغبين (Herbert Ian Hogbin) تقريرًا عنها، وهي: «واهب الوليمة يأخذ العظام والكعك البائت؛ والآخرون يأخذون اللحم والدهن».

علاوة على ذلك، لا يستطيع الـ «ميومي» أن يركن إلى أمجاده، بل يجب عليه أن يُحضِّر على الدوام لتحديات جديدة. في وليمة كبيرة حضرها 1100 شخص في العاشر من كانون الثاني/ يناير 1939 وهب الـ «ميومي» المضيف، ويدعى سوني، اثنين وثلاثين خنزيرًا إضافة إلى كمية كبيرة من حلويات دقيق الساغو باللوز. مع ذلك عاد سوني وأقرب أتباعه جائعين. وقال أتباعه «ينبغي أن نأكل صيت سوني وذِكره». تلك الليلة، وهم منهكون من التحضيرات المحمومة، تحدثوا عن الراحة التي كسبوها الآن بما أن الوليمة انتهت. ولكن في الصباح الباكر أيقظهم صوت طنين الناقوس الخشبي الذي قرع في نادي سوني. انتشر مجموعة من الأشخاص الناعسين لرؤية من يسبب هذه الضجة. كان ذلك سوني، وهذا ما قاله لهم:

> مختبئون في بيوتكم مجددًا؛ تضاجعون نساءكم ليل نهار وهناك عمل يجب القيام به! لماذا، لو كان الأمر لكم، لقضيتم باقي حياتكم تشمون رائحة خنزير البارحة. ولكنني أقول لكم وليمة البارحة لم تكن شيئًا يُذكر. الوليمة التالية ستكون كبيرة حقًا.

في ما مضى، كان الـ «ميوميون» مشهورين بقدرتهم على دفع الرجال إلى القتال لمصلحتهم، وبقدرتهم على جعلهم يعملون في خدمتهم. كانت الحروب

قد أخمدتها السلطات المستعمرة منذ وقت طويل قبل أن يقوم أوليفر بدراسته، ولكن ذكرى قادة الحرب الـ«ميوميين» لا تزال حية بين السيواي. وكما قال عجوز:

> في الأزمنة القديمة كان الـ «ميوميون» أعظم من الوقت الحاضر. كانوا قادة حرب قساة وعديمي الشفقة. اكتسحوا الأرياف وكانت نواديهم محاطة بجماجم من ذبحوهم.

في غناء مديح الـ «ميومي»، يدعو الجيل المسالم من السيواي الـ «ميوميين» بـ «المحاربين» و«قتلة الرجال والخنازير».

أيها الرعد، يا من تهز الأرض،
يا مقيم الولائم الوفيرة،
كم هي فارغة الأماكن من صوت النواقيس
إذا هجرتنا!
أيها المحارب، الزهرة الجميلة،
يا قاتل الخنازير والرجال،
من سيجلب الشهرة إلينا
إذا هجرتنا!

أبلغ مزوِّدو المعلومات أوليفر أن الـ «ميوميين» كانت لهم سلطة أكبر في الأيام التي كانت لا تزال تمارس فيها الحرب. حتى إن بعض قادة الحرب الـ«ميوميين» يحتفظون بأسير أو اثنين يعاملون كالعبيد ويجبرون على العمل في بساتين عائلة الـ «ميومي». ولم يكن الناس يستطيعون التكلم «بصوت مرتفع وقذف الـ 'ميومي' من دون خوف من العقوبة». وذلك يوافق التوقعات النظرية بما أن القدرة على توزيع اللحم والطعام النباتي وغيرها من الأشياء ذات القيمة يتماشى مع القدرة على جذب أتباع من المحاربين وتجهيزهم للقتال ومكافأتهم بغنائم المعارك. بدا التنافس بين الـ «ميومي» الحربيين في بوغانفيل أنه كان يسير نحو تنظيم سياسي على مساحة الجزيرة عندما وصل الرحالة الأوروبيون الأوائل. وبحسب أوليفر، «لفترات معينة من الزمن، كان كثير من القرى المتجاورة تقاتل

بتناسق كامل حتى نشأ أنموذج من **مناطق** حربية، كل منها مسالمة نوعًا ما داخليًا وكل منها فيها 'ميومي' بارز أمّنتْ نشاطاته الحربية تلاحمًا اجتماعيًا داخليًا». كان هؤلاء الـ «ميوميون» المناطقيين يتمتعون بلا شك بقوة الإكراه بشكلها الأولي. ومع ذلك، بقي اقتراب السيواي من الطبقات المعتمدة على فروق التفوق في القوة بدائيًا وسريع الزوال. ويظهر هذا من خلال واقعة أن الـ «ميوميين» يجب أن يزودوا محاربيهم بعاهرات يؤتى بهن إلى النوادي وبالهدايا من لحم الخنزير والمأكولات الشهية المختلفة. وفي هذا قال أحد المحاربين:

«إذا لم يزودنا الـ 'ميومي' بالنساء، نغضب... طوال الليل نضاجع ولا نزال نريد المزيد. وكذلك بالنسبة إلى الطعام. من المعتاد أن يكون النادي مليئًا بالطعام، وكنا نأكل ولا نشبع. كانت تلك أيامًا رائعة».

علاوة على ذلك، على الـ «ميومي» الذي يريد أن يقود فرقة حربية أن يكون جاهزًا شخصيًا لأن يدفع تأمين ضرر لأي من رجاله الذين يقتلون في المعركة وأن يقدم خنزيرًا لكل وليمة جنائزية. (كأننا، باهتمامنا بالمحافظة على الاحترام التام لحياة الناس العاديين، ألزمنا «عظماءنا» العسكريين والسياسيين بدفع قيمة تأمين لكل من الوفيات بسبب القتال من جيوبهم الخاصة).

لأقدم توضيحًا آخر كيف أن زعماء الحرب الموزعين استطاعوا أن يتطوروا بالتدريج إلى حكام دائمين يمتلكون قوة الإكراه على الإنتاج والاستهلاك. على مبعدة 125 ميلًا تقريبًا شمال شرق سفح غينيا الجديدة هناك أرخبيل التروبرياند، وهو مجموعة صغيرة من الجزر المرجانية المنخفضة درسها الإثنوغرافي العظيم بولندي المولد برونيسلاو مالينوفسكي. كان مجتمع التروبرياند مقسمًا إلى عشائر متعددة أمومية النسب وعشائر فرعية تتمتع بالرفعة وتحظى بامتياز تصل من خلاله إلى حق وراثة البساتين. روى مالينوفسكي أن التروبرياند كانوا «أشداء في القتال» وأنهم قادوا «حروبًا قاسية ودَوريةً»، مغامِرين في المحيط الواسع بزوارقهم بغية التجارة - أو إذا دعت الحاجة، القتال - مع بشر من جزر بعيدة بمئات الأميال. وعلى عكس الـ «ميومي» السيوايين، احتل «العظماء» التروبرياندين مناصب وراثية، ولم يكن بالإمكان عزلهم إلا من خلال هزيمتهم في الحرب. أحد من

اعتبرهم مالينوفسكي «الزعيم الأعلى» لكل جزر التروبرياند، سيطر على أكثر من 12 قبيلة تتضمن عدة آلاف من الناس. (كانت منزلته الفعلية أقل تعظيمًا نوعًا ما بما أن الآخرين كانوا يدّعون المساواة معه). كانت الزعامة وراثية بين العشائر الفرعية الأكبر والأكثر ثراء، وكان التروبرياندِيون ينسبون هذا التفاوت إلى حروب الفتوحات التي قامت منذ زمن طويل. وكان بمقدور الزعماء دون سواهم أن يتقلدوا حليًّا صدفية كشارة على المنزلة الرفيعة، وكان يمنع على أي شخص من العامة أن يقف أو يجلس في وضعية تجعل رأس الزعيم أقل مستوى من أي شخص آخر. ويروي مالينوفسكي عن مشاهدته الناس الحاضرين في قرية بويتالو وهم يهبطون من شرفاتهم «كأن إعصارًا ما حصدهم»، لدى سماعهم نداء «أو غياوو!» المطول الذي يعلن وصول زعيم ذي شأن.

على الرغم من مظاهر التبجيل هذه، كانت سلطة الزعيم الفعلية محدودة. تستند في الأساس إلى قدرته على أداء دور «الوهاب»، الذي يعتمد على روابط القرابة والزواج أكثر من السيطرة على الأسلحة والموارد. كان السكن عند عامة التروبرياند عمومًا عند الخال. كان الصبية المراهقون يعيشون في أكواخ للعازبين حتى يتزوجوا. عندها يأخذون عرائسهم ليعيشوا في بيت أخ الأم، حيث يعملون معًا في البساتين التابعة لنسب الزوج الأمومي. عند إدراك وجود النسب الأمومي، كان الإخوة في وقت الحصاد يعلمون أن أخواتهم يمتلكن جزءًا من إنتاج الأراضي الأمومية فيرسلون إليهن هدايا من السلال المملوءة باليام، محصولهم الأساسي. كان زعيم التروبرياند يعتمد على هذا التقليد للمحافظة على قاعدته الاقتصادية والسياسية. وكان يتزوج أخوات رؤساء الجماعات الذين يمتلكون عددًا كبيرًا من الأنسباء. يحصل بعض المشايخ على 24 زوجة تقريبًا، كل واحدة منهن لها الحق في هدية إلزامية من اليام من إخوتها. تقدم ثمار اليام هذه إلى قرية الزعيم وتعرض على حمالات خاصة باليام. عندها يُوزّع بعضًا منها في ولائم كبيرة حيث يرسخ فيها الزعيم مكانته كـ «وهّاب»، بينما يستخدم الباقي لإطعام المتخصصين ببناء الزوارق والحرفيين والسحرة وخدم العائلة الذين بذلك يخضعون لسلطة الزعيم ويعززون قوته. ما لا شك فيه، كانت مخازن اليام قديمًا تهيئ الأساس للانطلاق بحملات التجارة والغزو على مسافات بعيدة.

مع ذلك، فعلى الرغم من أنهم يخشون زعماء الحرب «الوهابين» ويحترمونهم، فإن عامة التروبرياند لا يزالون بعيدين عن التحول إلى حالة المزارعين. وكونهم يعيشون في جزر، لم يكن لهم الحرية في التوسع، وارتفعت كثافتهم السكانية في فترة مالينوفسكي إلى 60 شخصًا في كل ميل مربع. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن بإمكان الزعماء التحكم ما يكفي بنظام الإنتاج كي يكسبوا قوة كبيرة. ولم يكن هناك نباتات تنتج الحبوب، وكان اليام يتعفن بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، ما يعني أن «الوهاب» التروبرياندي لم يكن بإمكانه استغلال الناس بتوزيع الغذاء أو الإنفاق من مخازنه على حامية سياسية عسكرية دائمة. وثمة عامل مساوٍ في الأهمية هو الموارد المفتوحة من البحيرات والمحيط التي يستمد منها التروبرياند حاجاتهم من البروتين. ولأنه لم يكن بمقدور زعيم التروبرياند الحيلولة دون الوصول إلى هذه الموارد، ولذا لا يمكنه أبدًا ممارسة سلطة سياسية إكراهية وفعلية دائمة على تابعيه. ولكن مع أشكال أكثر كثافة للزراعة والمحاصيل الكبيرة من الحبوب، تطورت قوة «الوهاب» أكثر من حدود زعيم التروبرياند.

كما أوضح كولين رينفرو (Colin Renfrew)، تتضمن كتابة عالم التاريخ الطبيعي في القرن الثامن عشر وليام بارترام (William Bartram) وصفًا تصويريًا لأهمية التوزيع في التركيب الاجتماعي للمجتمعات الزراعية في شمال أميركا. يظهر وصف بارترام لـ «الشيروكي» (Cherokee)، مالكي وادي تينيسي الأصليين، نظام توزيع يعمل في وضع شديد الشبه بنظام التروبرياند، على الرغم من «النكهة» المختلفة تمامًا عن ثقافات الغابات الشرقية والميلانيزية. فعند «الشيروكي»، كما عند «الإيروكواس»، هناك مؤسسات اجتماعية تعتمد النسب الأمومي والسكن الأمومي وتمارس الحروب الخارجية. كانت محاصيلهم الرئيسة هي الذرة والفاصولياء والقرع. وكان في مركز المستعمرات الرئيسة «بيت شورى» كبير دائري يناقش فيه مجلس المشايخ مسائل تتعلق بعدد من القرى والأماكن التي تتم فيها إقامة ولائم التوزيع. ولمجلس الزعماء زعيم أعلى، أو «ميكو»، وهو نقطة الالتقاء المركزية في شبكة التوزيع عند «الشيروكي». وقد روى بارترام أن في موسم الحصاد يقام كوخ كبير، يعرف على أنه «مخزن الميكو» في كل حقل. «تحمل إليه كل عائلة وتودع كمية معينة بحسب قدرتها أو رغبتها، أو لا تودع

شيئًا على الإطلاق إذا شاءت ذلك». وكانت وظيفة مخازن «الميكو» تتمثل في كونها «خزينة عامة... للجوء إليها» في حالة فشل المحاصيل، كمصدر للغذاء «لخدمة الغرباء أو المسافرين»، وكمستودع عسكري «عندما يذهبون في حملات إغارة». وعلى الرغم من أن كل مواطن كان يتمتع «بحق الوصول الحر والعام»، كما يقول بارترام، فإن على العامة أن يكونوا على دراية كاملة بأن المستودع يعود بالفعل إلى الزعيم الأعلى لأن «الثروة هي من تدبير الملك أو الميكو» الذي كان لديه «قدرة وحق حصري... في توزيع العون والبركات إلى المعوزين». وتظهر بوضوح حقيقة أن «الميكو»، كزعيم للتروبرياند، كان بعيدًا من كونه «ملكًا» فعليًا، ففي تعليق بارترام أنه خارج المجلس «يشارك الناس كرجل عادي، يتحدث معهم ويتحدثون إليه بألفة ويسر كاملَين».

يفسح التوزيع بلا شك المجال لفهم كثير من النصب والبنى العريقة التي حيّرت العلماء والسياح قرونًا عدة. فكما رأينا، فإن الـ«ميومي» وكذلك «الرجال العظماء»، ورؤساء الجماعات والزعماء، لديهم المقدرة على تنظيم العمل لمصلحة مشاريع جماعية. وكان ضمن المشاريع البناء، الذي يتضمن مئات العمال، والزوارق الكبيرة، والمباني، والقبور والنصب. وقد لفت كولين رينفرو إلى مزيد من التشابه الصادم بين مجالس الولائم المركزية عند «الشيروكي» التي تكون خشبية دائرية الشكل وبين المباني الدائرية الغامضة التي عثر على فجواتها العمودية الخشبية داخل الحدود الدائرية للمرافق الشعائرية النيوليتية، أو «الهنغ»[2]، في بريطانيا العظمى وشمال أوروبا. فلحُجرات الدفن التي تزداد إتقانًا، المتاريس الترابية والصفوف المؤلفة من حجارة ضخمة التي هي من خصائص الفترة الممتدة بين عامي 4000 و2000 ق. م. وفي أوروبا نظائر مماثلة إلى حد بعيد بين المتاريس التي أقامها سكان أوهايو ووديان المسيسيبي ما قبل التاريخ، وبين منصات الدفن الحجرية والتماثيل المنحوتة من صخور أحادية في بولينيزيا والقبور المصنوعة من صخرة واحدة والنصب التذكارية في بورنيو المعاصرة.

---

(2) الهنغ (henge): هي مناطق مسطحة لها شكل دائري أو بيضاوي محاطة بصف خارجي من الصخور الكبيرة وتستخدم لأغراض طقوسية. (المترجم)

أدت هذه البنى كلها دورًا في التوظيف التمهيدي لنظم التوزيع ما قبل الدولة، وهي تخدم كموضع لإقامة ولائم التوزيع، وطقوس الجماعة المكرسة للتحكم بقوى الطبيعة، واحتفاءً بذكرى كرم من فقدوا من زعمائهم الأبطال «العظماء» وبسالتهم. تبدو هذه البنى مبهمة لأنها مجرد معابد، لا جوهر، لنظم التوزيع. وبما أننا لا نستطيع أن نفهم استثمار العمل الإضافي في الإنتاج الزراعي، يبدو بناء النصب نوعًا من هاجس غير عقلاني بين هذه الشعوب القديمة. ولكن بالنظر إليها من خلال السياق المعيشي لنظام التوزيع، تبدو القبور والصخور الضخمة والمعابد مكونات وظيفية ذات تكلفة ضئيلة مقارنةً بالمحاصيل المتزايدة التي يجعلها التكثيف الشعائري للإنتاج الزراعي أمرًا ممكنًا.

كلما كان عدد السكان أكبر وأكثر كثافة، أصبحت شبكة التوزيع أكبر وأصبح زعيم الحرب الموزع أكثر قوة. وفي ظل ظروف معينة، أصبحت ممارسة الموزع وتابعيه المقربين القوة من جهة، ومنتجي الغذاء العاديين من جهة أخرى غير متوازنة بشكل كبير حيث كان يشكل الزعماء الموزعون قوة إكراهية رئيسة في الحياة الاجتماعية لكل الأهداف والأغراض. وعندما كان ذلك يحدث، توقفتْ المساهمات في المستودع المركزي عن كونها مساهمات طوعية، بل أصبحت ضرائب. كما أن الموارد الطبيعية والأراضي الزراعية ما عادت المحيط الذي كان يتم الوصول إليه بشكل عادل. فأصبحت «منَحًا». وما عاد الموزعون زعماء، بل أصبحوا ملوكًا.

لإيضاح هذه التحولات البالغة الأهمية في بيئة الدولة الصغيرة ما قبل الصناعية، عليَّ أن أستحضر وصف جون بيتي (John Beattie) لـ «البونيورو»[3]، الذين كان يحكمهم حاكم وراثي يدعى «موكاما». ويبلغ تعداد «البونيورو» نحو 100,000 نسمة يقطنون منطقة تبلغ مساحتها 5000 ميل مربع تشكل جزءًا من المنطقة المركزية للبحيرات في شرق أفريقيا والمعروفة اليوم بأوغندا، ويكسبون عيشهم بشكل أساسي من زراعة نبات الدخن والموز. وكان **تنظيم** «البونيورو» إقطاعيًا، لكن على الرغم من ذلك كان بالفعل مجتمع دولة.

(3) بونيورو (Bunyoro): مملكة في غرب أوغندا.

وكان «الموكاما» الخاص بهم ملكًا، لا مجرد زعيم توزيع. وكان امتياز استخدام الأراضي والموارد الطبيعية ترخيص يمنحه «الموكاما» لحوالى 12 زعيمًا، وهم من يعطون الترخيص بدورهم للعامة. وفي مقابل هذا الترخيص، تُمرر كميات من الغذاء والأعمال اليدوية والخدمات عبر الهرم السلطوي إلى مقرات «الموكاما». وكان «الموكاما» بدوره يشرف على استخدام هذه السلع والخدمات لمصلحة مشاريع الدولة. ويبدو ظاهريًا أن «الموكاما» هو مجرد زعيم توزيع «وهاب» آخر. بكلمات بيتي:

> كان يعتبر الملك المتلقي الأعلى للسلع والخدمات، والمانح الأعلى لها على حد سواء... كان يطلب من الزعماء الكبار الذين يتلقون الجزية من أتباعهم، أن يقدموا لـ «الموكاما» جزءًا من ريع ممتلكاتهم في شكل محاصيل، أو أبقار، أو دببة أو نساء... ولكن على الجميع أن يعطي الملك، لا الزعماء وحدهم... لم يكن دور «الموكاما» كمانح، بذلك، أقل أهمية. يؤكد كثير من أسمائه شهامَتَه، وكان يتوقع منه تقليديًا أن تكون هباته للأفراد سخية في شكل ولائم وهدايا.

لكن تكشف المقارنة بين «الموكاما» و«الزعيم الأعلى» عند «التروبرياند» و«الشيروكي» في أن علاقات القوة أصبحت معكوسة. كان زعماء «التروبرياند» و«الشيروكي» يعتمدون على سخاء منتجي الغذاء؛ بينما كان منتجو الغذاء «البونيورو» يعتمدون على سخاء الملك. وكان الملك وحده قادرًا على منح الإذن بالأخذ بالثأر أو منعه، ويمكن أن ينتج من عجز المساهمة في مدخول «الماكوما» خسارة الفرد أرضه أو النفي أو العقوبة الجسدية. وعلى الرغم من سخاء وهب الولائم، ومن سمعة «الموكاما» كـ «وهاب»، كان يستخدم شطرًا كثيرًا من مدخوله في تدعيم احتكاره لقوى الإكراه. وبتحكمه بمستودعات الحبوب المركزية كان يبقي على حراسة دائمة للبلاط ويغدق المكافآت على المحاربين الذين يظهرون الشجاعة في القتال والولاء لشخصه. كان «الموكاما» ينفق أيضًا حصصًا كبيرة من ثروة الدولة على ما يمكن أن ندعوه اليوم «تأسيس الصورة الحسنة» والعلاقات العامة. وكان يحيط نفسه بعدد كبير من الموظفين والكهنة والسحرة، وحافظي حقوق الملك مثل القيمين على الرماح والقبور الملكية والطبول الملكية والعروش الملكية، والتيجان الملكية، وكذلك «الذين يقلِّدونه» التيجان الملكية والطباخين

وخدم الحمام والرعاة والخزافين وصانعي الثياب المدبوغة والموسيقيين. وكان لكثير من الموظفين عدد مساعدين. وكان يتجول في القصر مستشارون آخرون، وعرافون، وخدم على أمل أن يُعيَّنوا زعماء. كما أن هناك حريم «الموكاما» الواسع وأولاده الكثر ومدبّرو منازل إخوته متعددي الزوجات وشخصيات ملكية أخرى. وكي يحافظ على قوته كاملة، كان «الموكاما» يقوم ومعه قسم من حاشيته برحلات متكررة عبر أرض «البونيورو»، ويقيم في قصور محلية على حساب الزعماء والعامة.

كما يوضح بيتي، كانت خصائص عدة من المَلَكية حاضرة أيضًا في أوروبا الإقطاعية ما بعد الرومانية. ومثل «الموكاما»، كان وليام الفاتح وحاشيته يسافرون بشكل دائم في أنحاء إنكلترا في القرن السابع عشر، يتفقد «زعماءه» ويستفيد من حسن ضيافتهم. وكان ملوك إنكلترا، في ذلك الوقت، يظهرون الدليل على أصولهم كـ «وهابين» على رأس شبكات التوزيع. وكان وليام الفاتح، على سبيل المثال، يقيم ثلاث ولائم كبيرة سنويًا يرتدي فيها تاجه ويقيم حفلاتٍ ترفيهيةً لأعداد كبيرة من أمرائه وأتباعه. وكما سنرى عمومًا، قاد التطور الإضافي لأنظمة الدولة بالتدريج إلى إزالة الالتزامات التي ترتّب على الحكام أن يكونوا «وهابين» لأتباعهم.

ما هي الظروف التي يُحتمل أن يحدث في ظلها التحول من الزعامة القبَلية التوزيعية الطابع إلى الدولة الإقطاعية؟ ثم إلى التكثيف والنمو السكاني والحرب والحبوب القابلة للتخزين والموزعين الوراثيين، أضف عاملًا آخر: الانحشار. لنفترض، كما بيّن روبرت كارنييرو (Robert Carneiro)، أن جماعة بشرية تتلقى خدمة موزعين توسعت داخل منطقة محاطة، أو مطوقة بحواجز بيئية. لا داعي لأن تكون هذه الحواجز محيطات لا يمكن عبورها أو جبالًا لا يمكن تسلقها؛ بل يمكن أن تتألف من مجرد مناطق تحول بيئي يجد فيها الناس الذين يهجرون القرى المزدحمة أنفسهم مضطرين إلى خفض مستوى معيشتهم بشكل حاد أو تغيير نمط حياتهم بالكامل كي يمكنهم البقاء. من خلال الانحشار، يجد نوعان من الجماعات أن فوائد حالة الخضوع الدائم تفوق تكاليف محاولة الاستقلال.

أولًا، القرى التي تتألف من أنسباء مجبرين على دخول مناطق التحول سيغريهم أن يقبلوا علاقة تبعية بالتبادل مع المشاركة في التوزيع الذي ترعاه مستعمراتهم الأصلية. **ثانيًا**، القرى العدوة التي هزمت في المعركة تجد أن دفع الضرائب والجزية أقل تكلفة من الهرب إلى هذه المناطق.

كانت الحاجة تتطلب القليل من الإكراه الجسدي المباشر للإبقاء على الفلاحين الناشئين ضمن النسق التقليدي. وتستخدم القرابة لتبرير شرعية الإمكانات المتفاوتة للوصول إلى الموارد من جهة النسل الأكبر والأصغر أو بين الجماعات المتصاهرة التي تقدم الزوجات أو تحظى بالزوجات (أولئك الذين قدموا الزوجات يتوقعون بدلًا وخدماتٍ في العمل مقابل ذلك). وقد يكون الوصول إلى الحبوب المخزنة مشروطًا بأداء أعمال يدوية أو خدمات عسكرية. أو بإمكان «الرجال العظماء» للجماعات الأقوى الشروع بفرض الضرائب ببساطة من خلال توزيع أقل مما يأخذوه. ويمكن أن تزداد وتائر الحروب الخارجية فتمتثل القرى المهزومة بشكل اعتيادي لشبكة الضريبة والجزية. ويتم إطعام الفيالق العسكرية المتنامية، والاختصاصيين الحرفيين ورجال الدين من مخازن الحبوب المركزية، وبالتالي يتم تضخيم صورة الحكام كـ «وهابين» محسنين. وسيتسع الفارق الاجتماعي بين النخبة السياسية – العسكرية – الكهنوتية – الإدارية والطبقة الناشئة من المزارعين الكادحين منتجي الغذاء أكثر أيضًا مع تزايد منشآت إنتاج الغذاء المتكاملة، وتوسُّع شبكات التجارة، والنمو السكاني، ورفع وتيرة تكثيف الإنتاج من خلال فرض ضرائب أكبر، وتسخير العمالة، والجزية.

إلى أي درجة تتفق نظرية الترسيم البيئي والانحشار مع البرهان؟ تمتلك المناطق الست التي يرتفع فيها احتمال تطور الدولة البدائية مناطقَ إنتاج واضحة الترسيم. وكما بيّن مالكوم ويب (Malcolm Webb)، تتضمن هذه المناطق كلها مراكز خصبة محاطة بمناطق ذات طاقة زراعية بالغة الانخفاض. في الواقع، هي مجرد وديان أنهار أو نسق بحيرات محاطة بصحراء، أو في الأقل بمناطق شديدة الجفاف. إن اعتماد مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين والهند على السهول الفيضية للنيل ودجلة والفرات ونهر السند أمر معروف. أما في الصين القديمة، فكانت الظروف

المناخية والتربة والطبوغرافيا تحدد أشكالًا مكثفة من الزراعة وراء الحدود النهرية لحوض النهر الأصفر. وكانت هضبة المكسيك المركزية جنوب «تيخوانتيبيك» جافة أيضًا، فضلًا عن أنها «تعاني آثار شديدة للأمطار القاسية في أحواض الهضبة ومجاري الأنهار التي شكلت المراكز السكانية البدائية». وأخيرًا، فإن ساحل البيرو مشهور بتناقضه الصارخ ما بين الغطاء النباتي الأخضر الذي يحاذي الأنهار الساحلية القصيرة التي تتدفق من جبال «الإنديز» والظروف الصحراوية التي تسود في سائر الأمكنة الأخرى. وتُبرهن هذه المناطق كلها صعوبات خاصة أمام القرى التي يمكن أن تسعى للتفلّت من تركّز السلطة المتزايد بيد زعماء الحرب الموزِّعين والشديدي العدوانية.

علاوة على ذلك، ليس ثمة شك في أن سائر هذه المناطق كانت ساحة للنمو السكاني المتسارع الذي يسبق ظهور الدولة. ذكرت سابقًا أن عدد سكان الشرق الأوسط ازداد أربعين مرة بين عامي 8000 و4000 ق. م. ويقدر كارل باتزر (Karl Butzer) أن عدد سكان مصر تضاعف بين عامي 4000 و3000 ق. م. ويقدر وليام ساندرز (William Sanders) أن عدد السكان في المناطق الهضبية التي بدأ منها تشكيل الدولة القديمة في المكسيك قفز إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف، وهناك تقديرات مشابهة أيضًا تنطبق على البيرو والصين ووادي السند.«يتشكل انطباع لدى المرء حول هذه المناطق عن حدوث تزايد لا في العدد الإجمالي للمواقع فحسب، بل في كثافة التوزع والحجم والتطوير في المواقع أيضًا».

كما استعرض مالكوم ويب الدليل على إمكان وقوع الحروب، فتاريخ مصر الأسطوري يبدأ بحكاية عن غزوٍ ما، وتظهر أدوات مخصصة للحرب والتحصين في سجلات علماء الآثار. وفي بلاد ما بين النهرين يوجد تصوير للعبيد والمعارك في عصور الأولى السابقة لحكم السلالات. كما تشير التحصينات والدلائل الموثقة إلى أن الصين إبان حكم سلالة شانغ، في زمن ظهور الدول الأولى على ضفاف النهر الأصفر، كانت مجتمعًا عسكريًا إلى حد بعيد. وأكدت الاكتشافات الحديثة في وسط دول نهر السند الأقدم وجود قرى نيوليتية شديدة التحصين دمرها الغزو. وفي العالم الجديد «تُظهر البيرو الساحلية وأميركا الوسطى على

السواء تاريخًا حربيًا طويلًا»؛ «هناك دلائل أركيولوجية على القتال في وقت ليس أبعد من بداية الألفية الأولى قبل الميلاد».

يجب أن يتضمن نوع الحروب المؤدية إلى نشوء الدولة قتالًا خارجيًا صريحًا بين مسافات متباعدة تقوم به تحالفات كبيرة من القرى لا حروبًا داخلية كحروب «اليانومامو». ولأن السكن الأمومي نظام متكرر في تجاوزه المقدرة المحدودة للجماعات الأبوية القروية على تشكيل أحلاف عسكرية متعددة القرى، يبدو من المحتمل أن المجتمعات التي توشك على إنجاز نظام الدولة تتجلى دائمًا في تنظيم اجتماعي ذي صبغة أمومية. ووفقًا لروبرت بريفولت (Robert Briffault)، هناك دليل، وهو جزء مهم من نص أدبي، يدعم الرأي القائل إن مجتمعات الدول القديمة كانت تمتلك نظمًا أمومية قبل وقت قصير أو بعد وقت قصير من إنجازها الدولةَ. وقد تبنى عالم الآثار الفرعونية فليندرز بتري (Flinders Petrie) الرأي القائل إن التقسيمات الإدارية، أو الولايات، في أوائل عهد السلالات في مصر، كانت يومًا ما عشائر أمومية النسب وأن السكن بعد الزواج في الأزمنة القديمة كان أموميًا. كما دوّن سترابو (Strabo)، المؤرخ اليوناني، ما يفيد أن سكان كريت القديمة كانوا يعبدون آلهة مؤنثة في الأغلب، وكانوا يمنحون النساء دورًا بارزًا في الحياة العامة، ويمارسون السكن الأمومي. ويقول بلوتارخوس (Plutarch) إن السكن بعد الزواج في إسبارطة كان أموميًا وإن «النساء كن يحكمن الرجال». وكان الكلاسيكي العظيم غيلبرت موراي (Gilbert Murray) مقتنعًا أن في اليونان أيامَ هوميروس «كان الأبناء يذهبون إلى قرى غريبة ليخدموا فيها ويتزوجوا نساء لامتلاك أراضٍ هناك». وكان هيرودوتس قد قال عن الكنعانيين سكّانِ الطرف الشرقي من البحرِ المتوسط، أن «لديهم عادة واحدة فريدة يختلفون فيها عن كل أمة أخرى في العالم: وهي تسمية أنفسهم بأسماء أمهاتهم لا آبائهم». وعن الألمان الأوائل، كتب تاسيتوس (Tacitus) أن «أبناء الأخت يقدرون أخوالهم بمنزلة الأب»، وأضاف، «حتى إن بعضهم يعتبر رابطة السابق أقوى».

حتى في أيامنا هذه فإن إشارة الأنثروبولوجيين القوية على الرابطة بين الخال وابن الأخت يؤكد وجود تنظيم أمومي قديم. علاوة على ذلك، فإن وصف

تاسيتوس المنزلة العالية نسبيًا للنساء في ألمانيا القديمة مدعَّم باكتشافات لإناث يرتدين زيّ المحاربين مدفونات جنبًا إلى جنب مع ذكور يرتدون الزي نفسه. ويشير ليفي إلى أن الـ **كوراي** (curiae)، أو التقسيمات الإدارية القديمة، كانت تسمى بأسماء نساء الـ «سابين» اللواتي يفترض أن أتباع رومولوس اغتصبوهن[4]. وأخيرًا، يوضح بريفولت أن تسمية الأنسباء الرومان حافظت على التفريق بين أخ الأب وأخ الأم. كان الأول يدعى عم (patruus)، والثاني خال (avunculus). وكانت الكلمة اللاتينية للسلف هي «avus». من هنا، كما هي الحال في النظام الأمومي، يشار إلى أخ الأم بتعبير يدل على سلف مشترك مع ابن الأخت. (تفترض حقيقة أن الكلمة الإنكليزية «uncle» بقيت حية بعد الكلمة التي تشير إلى «أخ الأم» الأهمية السابقة لعلاقات ابن أخ/ أخت الأم).

تؤمن النصب والتماثيل الأنثوية التي عثر عليها في حضارات عدة ما قبل الدولة في أوروبا وجنوب غرب آسيا سلسلة أخرى من الدلائل التي تشير إلى مؤسسات أمومية. ففي مالطا، على سبيل المثال، كان معبد تاركسين (Tarxien)، والذي بني قبل عام 2000 ق. م، يحتوي على نصب حجري بطول ستة أقدام لامرأة مكتنزة بوضعية الجلوس. ويتكرر موضوع «النساء المكتنزات» في عدة نسخ أصغر عثر عليها في المعابد المالطية، وجميعها مرافقة للمدافن البشرية والمذابح وعظام الأضاحي الحيوانية، التي تشير إلى طائفة من الأسلاف الإناث.

بينما تتناسب معظم هذه الدلائل مع تشكيل الدول التابعة في أوروبا، أجد من الواجب أن نؤكد الخلاصة بأن الدول البدائية عبرت في وقت أسبق مرحلة أمومية شبيهة. ولكن إذا كان هناك مرحلة كهذه، أكان للدول البدائية أم التابعة، فلا بد من أنها استمرت وقتًا قصيرًا. ما نستشفه من كتابات المؤرخين الرومان والإغريق الكلاسيكيين هو الآثار المتأخرة لأنظمة ارتدت إلى النسب الأبوي. عدد قليل جدًا من مجتمعات الدولة المعاصرة أو القديمة لديها نسب أمومي أو سكن أمومي

(4) تحكي قصة اغتصاب نساء سابين أن الرومانيين في بداية فترة تشكيل الإمبراطورية أرادوا الزواج من نساء سابين فجوبهوا بالرفض، ما أدى برومولوس (ملك روما) وأتباعه إلى خطف النساء في أثناء احتفال دعوا سابين إليه. (المترجم)

(وذلك سبب وصف هيرودوتس الكنعانيين بأنهم يختلفون عن «كل أمة في العالم»). مع نشوء الدولة، فقدت النساء مكانتهن مجددًا. فمن روما إلى الصين كُن يُعَرَّفن شرعيًا بأنهن قاصرات تحت رعاية آبائهن، أو أزواجهن أو إخوتهن. ويعود السبب في ذلك، على ما أعتقد، هو أن السكن الأمومي ما عاد فاعلًا من الناحية العملية لتجنيد القوى المسلحة وتدريبها. فكانت الدول تشن الحرب بواسطة متخصصين عسكريين يعتمد تماسكهم وجاهزيتهم على الصفوف الهرمية والانضباط الصارم، لا على السكن المشترك ما بعد الزواج. لذلك فقد وجد صعود الدولة أن عقدة التفوق الذكري يعيد إثبات نفسه بكامل قوته. لا أعتقد أنه من المصادفة أن الـ «السيواي»، و«التروبرياند»، و«الشيروكي» ما قبل الدولة انخرطوا في حروب خارجية ولديهم نظم أمومية، بينما دولة بونيورو، والتي انخرطت في حروب خارجية أكثر في ما بعد، لها نظم أبوية وعقدة تفوق ذكري قوي.

ما أن تتشكل دول بدائية في منطقة معينة، حتى تبدأ الدول التابعة بالنشوء تحت ظروف متنوعة. تتشكل بعض الدول التابعة كنوع من الدفاع ضد غزوات السلب التي تقوم بها الدولة المجاورة الأكثر تطورًا، بينما تنشأ أخرى نتيجة محاولات انتزاع السيطرة على طرق تجارية استراتيجية وعلى المقادير المتزايدة من السلع التي تُنقلُ وتُرافق عادة نمو الدول في أي منطقة. وتتشكل دول أخرى أيضًا في محاولة للشعوب البدوية التي تعيش على أطراف دولة ما لنهب ثرواتها. أما الدول التي توجد في مناطق منخفضة الكثافة، وغير مزدحمة نسبيًا، فيجب أن تتم دراستها دائمًا مع أخذ هذه الاحتمالات في الاعتبار قبل استنتاج أن التكثيف والضغوط الإنجابية لم تسبب نشوء الدول البدائية في المنطقة. فعلى سبيل المثال، طورت الشعوب الرعوية منخفضة الكثافة - كالترك والمغول والهون[5] والمانكوس[6] والعرب - بشكل متكرر دولاً فقط من طريق اغتنام الإمبراطوريات الموجودة سابقًا كالهندية والصينية والرومانية والبيزنطية. وتطورت الدول التابعة في غرب أفريقيا نتيجة المحاولات الأوروبية والإسلامية للسيطرة على تجارة

(5) شعوب بدوية عاشت في شرق أوروبا. (المترجم)

(6) أقلية عرقية صينية. (المترجم)

العبيد والذهب والعاج، بينما طور شعب «الزولو» في جنوب أفريقيا دولة في القرن التاسع عشر لمواجهة التهديد العسكري الذي شكله المستعمرون الهولنديون الذين احتلوا أرضهم.

ما أجده لافتًا أكثر من غيره حول نشوء الدول البدائية هو أن ذلك كان نتاج عملية لاواعية، إذ يبدو أن المساهمين في هذا التحول الكبير لا يعلمون ما كانوا يخلقون. ومن خلال التغيرات التدرجية في إعادة التوزيع العادل من جيل إلى آخر، ربط البشر أنفسهم بشكل من أشكال الحياة الاجتماعية تحط فيه الكثرة من قدرها على حساب تبجيل القلة. وبإعادة صياغة كلمات مالكوم ويب، ففي بداية العملية الطويلة لم يكن بإمكان أحد التنبؤ بالنتيجة النهائية. «على الرغم من أنها كانت أمرًا ثانويًا، كانت المساواة القبلية تزول بالتدريج من دون إدراك طبيعة التغيير، وكان الإنجاز النهائي للسلطة المطلقة عند تلك النقطة يبدو مجرد تعاقب قليل الشأن للعرف الراسخ. كان اندماج القوة الحكومية سيحدث كسلسلة من الاستجابات الطبيعية، المجدية، الخارجة قليلًا (إن خرجت أصلًا) عن قانون الظروف الحالية، وكل اكتساب جديد لقوة الدولة يمثل انفصالًا صغيرًا فقط عن الممارسة المعاصرة». وبمرور الوقت غرقَ باقي المجمع القديم أخيرًا في العجز قبل بروز قوة الملك، ولم يكن أحد ليتذكر الزمن الذي كان الملك فيه مجرد «ميومي» معظَّم استندت منزلته المبجلة إلى صدقة أصدقائه وأقربائه.

أطالب من يشعر بأن تفسيري لتطور الثقافة موغلٌ في حتميته وميكانيكيته أن يأخذ في الاعتبار احتمالَ أننا في هذا الوقت بالتحديد نمرّ بدرجات بطيئة من سلسلة من التغيرات «الطبيعية، المجدية والخارجة قليلًا... على القانون»، والتي ستحول الحياة الاجتماعية بطرق يتمنى عن وعي القليلون ممن يعيشون اليوم أن تصيب أجيال المستقبل. من الواضح أنه لا يمكن أن يكمن علاج هذه الحالة في نكران عنصر الحتمية في العمليات الاجتماعية؛ بل يكمن في استحضار هذا العنصر إلى ميدان الوعي الشمولي.

لكن سيأتي لاحقًا المزيد عن هذا التضمين الأخلاقي للحكاية. والمهمة المباشرة التي أمامنا هي اقتفاء العواقب الأبعد لصعود الدولة في إطار نماذج

مناطقية متباينة للتكثيف والاستنزاف والأزمات البيئية. أتوجه بداية إلى التاريخ المأساوي لأميركا الوسطى.

المراجع والملاحظات

أتقدم بامتناني إلى مورتون فرايد، يُنظر خصوصًا: Morton H. Fried, *The Evolution of Political Society: An Essay in Political Anthropology* (New York: Random House, 1967).

وإلى باربارا برايس، خصوصًا: Barbara Price, «Turning State's Evidence: Problems in the Theory of State Formation,» Unpublished paper, 1977.

للمساعدة طويلة الأجل بالتفكير بأصل الدولة. يُنظر: Malcolm Webb, «The Flag Follows Trade: An Essay on the Necessary Integration of Military and Commercial Factors in State Formation,» in: Jeremy Sabloff & C. C. Lamberg Karlovsky (eds.), *Ancient Civilization and Trade* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1975),

لبحث المناطق التي ربما نشأت منها الدول البدئية. عُرِّفَت إعادة التوزيع أصلًا كشكل من أشكال التبادل من قبل الاقتصادي كارل بولاني وأُدخلَ إلى الأنثروبولوجيا على يد: Karl Polanyi, C. Arensberg & H. Pearson (eds.), *Trade and Markets in the Early Empires* (Glencoe, Ill.: The Free Press, 1957),

والعلاقة بين إعادة التوزيع والطبقية stratification الاجتماعية اقترحها أولًا: Marshall Sahlins, *Social Stratification in Polynesia*, American Ethnological Society Monographs (Seattle: University of Seattle Press, 1958).

والاقتباسات عن mumis، يُنظر: Douglas Oliver, *A Solomon Island Society: Kinship and Leadership Among the Siuai of Bougainville* (Cambridge: Harvard University Press, 1955), pp. 439, 411, 399, 421.

يُنظر: H. Ian Hogbin, *A Guadalcanal* Society: *The Kaoka Speakers* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1964),

لـ Kaoka «الرجال الضخام». عن سكان جزر التروبرياند يُنظر: Bronislaw Malinowski: «War and Weapons Among the Natives of the Trobriand Islands,» *Man*,

vol. 20 (1920), pp. 10-12; *Argonauts of the Western Pacific* (New York: Dutton, 1922); *Coral Gardens and Their Magic*, 2 vols. (London: Allen & Unwin, 1935); J. P. Singh Uberoi, *Politics of the Kula Ring: An Analysis of the Findings of Bronislaw Malinowski* (Manchester: Manchester University Press, 1962).

يُنظر: Colin Renfrew, *Before Civilization* (New York: Alfred A. Knopf, 1973).

للمقارنة بين ثقافات الـ henge الشيروكية والأوروبية. الاقتباسات عن البونيورو مأخوذة عن: John Beattie, *Bunyoro: An African Kingdom* (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1960), pp. 34, 36.

السيناريو الخاص بي عن نشوء الدول البدئية أُخِذَ من: Robert Carneiro, «A Theory of the Origin of the State,» *Science*, vol. 169 (1970), pp. 733-738.

لكنه رفض التحديد 'الاجتماعي' كبديل للتحديد البيئي. سيناريو: Webb, «The Flag Follows Trade,»

هو الأقرب إلى السيناريو الخاص بي. لتقديرات عدد السكان يُنظر: Karl Butzer, *Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in Cultural Ecology* (Chicago: University of Chicago Press, 1976); William T. Sanders, «Population, Agricultural History and Societal Evolution in Mesoamerica,» in: Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications* (Cambridge: MIT Press, 1972).

يُنظر: Robert Briffault, *The Mothers* (New York: Grosset & Dunlap, 1963).

لنقاش القرابة الأمومية. يُنظر: Renfrew, *Before Civilization*,

لـ 'النساء البدينات'.



8

دول أميركا الوسطى ما قبل كولومبوس

يدعي بعض علماء الآثار أنه لم يكن للضغوط البيئية والإنجابية تأثير كبير على صعود الدولة في أميركا الوسطى. يعتقدون أن الانتقال إلى الدولة حدث أولًا لدى «الأولمك» (Olmec) والمايا الذين عاشوا في مستنقعات وأدغال الأراضي المنخفضة حيث لم يكن هناك فرصة لممارسة أشكال مكثفة من الزراعة أو حواجز تعوق التوسع السكاني. نشأت دول الأدغال هذه افتراضًا نتيجة دوافع روحية تخص مفهوم «الأولمك» والمايا عن العالم. وباعتقادهم أن الأمطار والمحاصيل واستمرار الحياة كانت بإذن من الآلهة، شعر «الأولمك» والمايا بضرورة بناء مراكز شعائرية لإسكان طبقة كهنوتية تألفت ممن لا ينتجون الغذاء وإعالتها. ولأنهم كانوا أكثر تدينًا من شعوب قروية أخرى ما قبل الدولة، بنوا معابد أكبر وأظهروا احترامًا وورعًا كبيرين تجاوزَ المألوف تجاه كهنتهم وشخصياتهم الرسمية. ولم يكن للفائدة والمنافع علاقة بالموضوع. كما لم يكن تنظيمهم السياسي نتيجةَ النمو السكاني والكفايات المنخفضة والحروب، والانحشار،أو أي شدة أخرى. بل نشأ عن خضوع طوعي لثيوقراطيا خيرة.

يبدو علماء الآثار الذين يعتقدون بهذا النوع من التفسير لأصل الدولة في أميركا الوسطى مبتهجين بالرأي القائل إن الإيمان والإبداع الإنسانيين انتصرا على الظروف البيئية غير الملائمة. بينما أتعاطف مع هذه الفكرة العاطفية التي تقبع وراء هذا الاحتفال بإنجازات حضارات كـ«الأولمك» والمايا، أعتقد أن الأكثر إلحاحًا

هو أن نفهم الحدود التي وضعتها العوامل البيئية والإنجابية على أكثر أشكال النشاط الإنساني إلهامًا.

«الأولمك» حالة محيرة بالفعل. فكما وصفهم عالم الآثار المكسيكي كوفاروبياس (Covarrubias) «بالحضارة الأم» للعالم الجديد، سكنوا في الأراضي المنخفضة الرطبة وفي السهول الساحلية لدول ساحل خليج المكسيك «فيرا كروز» (Vera Cruz) و«تاباسكو» (Tabasco). شيدوا بين عامي 800 و400 ق. م عددًا من مراكز العبادة المتفرقة – وهي الأقدم في العالم الجديد – على قمة تلال اصطناعية على امتداد فدانين من الأرض أو ثلاثة. والموقع الأكثر شهرة هو «لافينتا» (La Venta) في «تاباسكو»، على جزيرة في وسط مستنقع. وكان أكثر الأبنية مهابة في «لافينتا» مخروط ترابي بقطر 420 قدمًا وارتفاع 105 أقدام تقريبًا. تتناثر حول الموقع منحوتات ضخمة تتألف من ألواح حجرية منحوتة بوزن 50 طن تسمى بلاطات (stelae)، وتنتشر في أرجاء المكان مذابح ورؤوس بشرية مستديرة ضخمة يظهر أنها تضع خوذًا تشبه خوذ لاعبي كرة القدم الأميركية.

في حين تتضمن المراكز الشعائرية الأولمكية دليلًا مثيرًا على قدرة الزعماء الموزِّعين على تنظيم المشاريع التعاونية ودعم الحرفيين المهرة في النحت والبناء وصنع المجوهرات من الأحجار الكريمة والخزف الدقيق، إلا أن مستوى إنجازهم يبوء بالفشل قياسًا لما ينتظره المرء من كيان حكومي على مستوى الدولة. كان بإمكان عدد من السكان لا يزيد عن ألفين أو ثلاثة آلاف شخص أن يبنوا مواقع عدة، كلٌّ منها بعيد جدًا من الآخر حيث لا يمكن أن يشكل نظامًا سياسيًا واحدًا مترابطًا.

بإبقاء «الأولمك» في الاعتبار، لا بد من أن يأخذ المرء في الاعتبار مستوى البناء المميز للمواقع التي كانت تعرف تاريخيًا أنها وصلت عتبة تشكيل الدولة. فعندما بلغ أوائل المكتشفين الفرنسيين وادي المسيسيبي، على سبيل المثال، وجدوا «مدنًا» مزدحمة ومنصات ترابية ضخمة تدعم معابد خشبية وبيوتًا للكهنة والنبلاء. ولا يزال ثمة أثر باقٍ من أكبر هذه البنى، «تل كاهوكيا» (Cahokia)، المشرف على شرق سانت لويس. قبل أن تجرفه الجرافات، كان بارتفاع أكثر من مئة قدم ويغطي

15 فدانًا، مقارنة بالفدانين الاثنين أو الثلاثة الأنموذجية للمواقع الأولمكية. علاوة على ذلك، لدينا ما يشير إلى أن أعمالًا مثيرة للإعجاب في البناء كان يمكن تنفيذها تحت رعاية زعماء موزِّعين من «الرجال العظماء» الذين يفتقدون القدرة على فرض الضرائب أو التجنيد الإلزامي أو معاقبة أتباعهم. حتى إن شعبي «كواتيوتل» (Kwatiutl) و«هايدا» (Haida) غير الزراعيين شمال غرب المحيط الهادئ، واللذين كان يقودهما زعماء موزِّعون، كانا مؤهلين لمقدار معين من صناعة النصب في شكل أعمدة طوطمية، ودعائم منزلية. وفي «ستونهنج» (Stonehenge) ومراكز شعائرية قديمة أخرى في أوروبا استطاع نظام الزعماء أن يشيد نصبًا متقنة أُعِدَّتْ للأغراض الفلكية من كتل حجرية تزن أكثر بكثير من التي عثر عليها في «لافينتا». وتعتبَر المواقع الأولمكية ضئيلة فعليًا مقارنة بالمراكز الكبيرة في مرتفعات هضبة المكسيك الوسطى. ولا تمثل في أفضل الأحوال إلا درجة من سلّم التطور كُبحت في مرحلة الدولة الأولية. كان سبب فشلهم في التطور يعود بجلاء إلى حقيقة أن الشروط البيئية أسهمت في بقاء كثافة السكان في المنطقة منخفضة وغير مزدحمة بسبب الظروف البيئية.

ينبغي أن أشير أيضًا إلى أنه يُحتمل اكتشاف بنى شعائرية تشير إلى دولة أولية أقدم من «الأولمك» في مرتفعات الهضبة الوسطى. تشير حفريات حديثة قام بها رونالد غرينز رافيتز (Ronald Grennes-Ravitz) وجورج كولمان (G. Coleman) أن قِدَمَ التماثيل ذات الطابع الأولمكي التي عثر عليها في «مورلوس» ووادي المكسيك بِقِدَم تلك التي وجدت في «فيرا كروز» و«تاباسكو». وعلاوة على ذلك، ظهر النتاجَ الصناعي الأولمكي في مواقع المرتفعات هذه فوق طبقة تحتوي آثارًا خزفية محلية وتسبق تاريخيًا الفترة الأولمكية بنحو 400 سنة. لذا يظهر أن مراكز المعابد الأولمكية كانت معتمدة جزئيًا على نشوء دول المرتفعات الأولى. من المحتمل أيضًا أن تمثل المواقع الأولمكية بؤرًا استيطانية في شكل مستعمرات – ربما مراكز ارتحال، كما افترض غرينز رافيتز وكولمان – حيث كانت تنظم التجارة حولها بين المنخفضات الاستوائية والهضبة الوسطى الجافة.

في شرق أراضي «الأولمك» الوسطى تقع شبه جزيرة «يوكاتان» (Yucatán)، وهي منطقة أخرى يبدو أن سبيل العبور فيها نحو الدولة يتحدى القواعد البيئية.

هنا عاش المايا، وهم شعب ابتكر نظامًا معقدًا من الكتابة الهيروغليفية والترقيم الرياضي، وكتبَ تاريخه في كتب على شكل طية المظلة، وقام بأرصاد فلكية دقيقة، وطور تقويمًا شمسيًا بالغَ الدقة، وكان بارعًا في فنون النحت والبناء الحجري.

مع ذلك فإن النصف الأدنى من شبه جزيرة «يوكاتان» مغطى بمنطقة أدغال كثيفة تدعى «بيتين» (Petén). وبين عامي 300م و900م شغل المايا أنفسهم ببناء مراكز شعائرية عدة في وسط هذه المنطقة تمامًا. وقد أحصى نورمان هاموند (Norman Hammond) ثلاثة وثمانين موقعًا رئيسًا في القسم الجنوبي من «يوكاتان»، تفصل بينها مسافة بمعدل 15 كم فقط (9.3 ميلًا). يوجد في هذه المراكز أبنية متعددة الحجرات ومزخرفة بشكل متقن طوّقتْ بتناسق ساحاتٍ مركزيةً مرصوفة وملاعب كرة للألعاب الطقسية وألواح حجرية عليها تواريخ تذكارية وسلاسل نسب الحكام ومعلومات تاريخية أخرى لم تفك رموزها ومذابح نُقشتْ عليها نصوص هيروغليفية أخرى، ونصب ضخمة للآلهة والنبلاء، إضافة إلى أبراج في شكل أهرامات ضخمة من دون قمة مدببة تكسو واجهتها الحجارة المقتطعة وتعلو قمتها المعابد الحجرية. أما الموقع الأكبر فهو «تيكال» (Tikal)، الذي ترتفع أهرامات معابده 190 قدمًا بشكل شديد الانحدار فوق أرضية الساحة. وفي ذروته، خلال القرن التاسع ميلادي، وصل عدد سكان «تيكال» إلى 40 ألف في محيطها القروي، بينما قُدّرت كثافة المنطقة الإجمالية بـ 250 شخصًا في كل ميل مربع. وهذا يجعل بيتين مأهولة بكثافة توازي كثافة سكان أوروبا المعاصرة. وما من شك في أن أكبر مراكز المايا كانت العواصم الإدارية للدول الصغيرة. ولكن ليس هناك فرصة في أن تصل (حضارة) المايا مرحلةَ الدولة بشكل مستقل كليًا عن الدول السابقة الوجود في منطقة المرتفعات. فقد كانت «تيوتيخواكان»، والتي سأصفها بعد حين، تحتوي في الأصل على عشرات الآلاف من السكان عندما كانت «تيكال» في بداية تجاوزِ ارتفاعها قمم الأشجار. وتبعد «تيوتيخواكان» أكثر من 600 ميل عن «تيكال»، ولكن موجات الصدمات العسكرية والاقتصادية التي تصدرها الإمبراطوريات الكبرى في المرتفعات كانت تصل بشكل منتظم إلى مناطق أكثر بعدًا. فنحن نعلم أن في عام 300م وقعت «كامينالجويو» (Kaminaljuyu)، وهي من

مدن المايا في مرتفعات غواتيمالا تشرف على بيتين، تحت نفوذ «تيوتيخواكان». ومن المحتمل أن «كامينالجويو» كانت تحتوي على حامية عسكرية تحكمت بطرق التجارة بين بيتين وساحل المحيط الهادئ وهضبة المكسيك الوسطى. وبعد عام 300م لم تترك السلع التجارية وأسلوب الرسم والموتيفات المعمارية في مراكز بيتين نفسها شكًا في أن المايا كانت متأثرة بأحداث مرتفعات الهضبة الوسطى. ولا يمكن استثناء الاشتباكات العسكرية الفعلية بين دول المرتفعات المتأخرة في قيامها والكلاسيكية القديمة مع دول المايا البدائية في بيتين.

من المحتمل أن التجارة بين المايا وجيرانهم في المرتفعات جعلت المايا أقرب إلى الدولة. لكن تفتقر منطقة بيتين إلى مصادر طبيعية من الصخور المناسبة لبناء هاون حجري مسطح أو صنع السكاكين والرؤوس القاذفة. كانت هذه الأغراض أساسية لطحن الذرة وللتسليح العسكري. وإضافة إلى الملح، كان يتم الحصول عليها من طريق التجارة مع المرتفعات. ومن المحتمل أن هذه التجارة وسعت المسافة بين زعماء المايا الموزعين القدماء والعامة بطريقتين: أمكن الحصول على شروط تجارية أكثر فاعلية من طريق أفراد أكثر قوة كانوا مساوين لنبلاء الدولة الذين كان عليهم التعامل معهم، وأمكن إضافة التحكم بالموارد الاستراتيجية الإضافية إلى القدرة على التحكم بالمزارعين منتجي الغذاء البدائيين. عمومًا، كلما كان مقدار التجارة أكبر، كان الإنتاج في نظام التوزيع أكبر وقوة الأفراد المسؤولين عن عملية التوزيع أكبر.

لا يلغي الدليل المؤدي إلى نتيجة أن مراكز المايا كانت دولًا تابعة إمكانَ أن تكون الضغوط البيئية والإنجابية التي حدثت في منطقة بيتين نفسها قد أسهمت في عملية تشكيل الدولة. تلوح «أدغال» بيتين، لدى معاينتها من قرب، أنها مليئة بالمفاجآت. الوجهة الأولى التي تحتاج إلى التوضيح هي حجمها؛ 30,000 ميل مربع فقط، مقارنة بـ«أورينوكو» في الأمازون بمساحتها البالغة مليونَي ميل مربع. تاليًا، لديها نمطها المتفرد من الغابة المطرية. بتوجهنا نحو الشمال من بيتين إلى طرف شبه جزيرة «يوكاتان»، ينخفض معدل هطول الأمطار السنوي وتستبدل بالغابات جنبات شوكية مثل الصبار ونباتات أخرى مقاومة للجفاف. وفي داخل

غابة بيتين الوسطى نفسها، يبلغ معدل الهطولات السنوي ما لا يزيد عن نصف المعدل في «أورينوكو»، الأمازون. إضافة إلى ذلك، فإن فصل بيتين الجاف قاسٍ بشكل استثنائي، وإجمالي الهطولات السنوية والموسمية عرضة لاختلافات شديدة؛ إذ يمكن ألا تسقط قطرة مطر واحدة في شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل. ويسود الجفاف بشكل متكرر طوال شهري شباط/ فبراير وأيار/ مايو، وحتى خلال فصل الأمطار نفسه. فبحسب كلمات سيروس لونغوورث لوندل (C. L. Lundell):

> لا تتميز الحياة النباتية بخصوبة الغابة المطرية الحقيقية، من هنا يحتمل أنها شكلت غابة شبه مطرية. فمعدلات هطول الأمطار لا تتجاوز 1800 مم (71 بوصة)، وهو أقصى معدل غير كافٍ للمحافظة على غابة مطرية حقيقية ضمن منطقة تحوي فصلًا جافًا صريحًا.

تتساقط أوراق معظم أشجار بيتين في كل فصل جاف، وهذه حالة جلية في الجفاف. في الواقع، تجف هذه «الأدغال»، في بعض الأوقات بحيث لا يضطر المزارعون حتى إلى «القطع» لتنظيف مناطق البساتين للموسم التالي بإضرام النار في الشجيرات. وكان الحؤول دون انتشار النار هو همّهم الرئيس في مثل هذه المناسبات.

الآن نأتي إلى حقيقة أن لشبه جزيرة «يوكاتان» تركيبًا جيولوجيًا خاصًا. فمعظم طبقتها الصخرية السفلى تتشكل من حجر جيري نفّاذ فقط (من هنا جاءت الحاجة إلى استقدام الصخور من المرتفعات لطحن الذرة). نتج ذلك من وجود عدد قليل من الأنهار والبحيرات الدائمة بما أن معظم مياه الأمطار ترشح بسرعة في الحجر الجيري وتختفي كليًا من دون أن تبقى ثمة مياه مطرية على سطح الأرض. وخلال فصل الجفاف هناك أيضًا نقص في مياه الشرب، باستثناء الأماكن التي تقع أسفلَها جيوب مائية طينية أو جيوب ضمن الصخور الجيرية سُدَّت مصارفها الداخلية.

كما يمكن أن يتوقع المرء، كانت قرى المايا الأقدم تتوضع بقرب نهرين دائمين على شبه جزيرة «يوكاتان»: نهر «يوسوماسينتا» (Usumacinta) في الجنوب الغربي و«بيليز» (Belize) في الجنوب الشرقي. يظهر حوالى عام 600 ق. م أن

المنطقة المحيطة بـ «تيكال» لم تكن مأهولة، ما يدل على أنها بعد أن امتلأت الأمكنة النهرية المفضلة بدأ المزارعون بالاستيطان في داخل الغابة. ولا بد من أن هؤلاء المستوطنين يشبهون «اليانومامو» و«الهنود السّيّارين» ممن لم يكن لديهم زوارق وكانوا يعيشون في المناطق التي تفتقر إلى البروتين في حوض «أورينوكو» في الأمازون بعيدًا من الأنهار الرئيسة. ولكن خلال فترة وجيزة أنتجتْ التضاريس الأرضية والمناخ المميز لمنطقة بيتين وضعًا ليس له نظير في منطقة الأمازون.

لم يكن مزارعو بيتين القدماء أحرارًا في التوسع بشكل متساوٍ في الغابة. كان على المستعمرات أن تكون متوضعة قرب الجيوب المائية التي كان بالإمكان الاعتماد عليها لمقاومة الجفاف في فترات الشّحّ القاسي. نعلم أن أحواضًا صناعية كاملة تسمى «شولتون» (chultuns) حُفرتْ في ما بعد بعمق ست وستين قدمًا في طبقة الصخور الجيرية، وكُسِيَتْ بالإسمنت الجيري لضمان التزود بالمياه العذبة. كان بعض «الشولتون» يبنى تحت ساحات مرصوفة تتبع المراكز الشعائرية، والتي قامت بدور أحواض التجميع والصرف خلال العواصف المطرية. في قرية معاصرة في «كامبش» (Campeche)، كان يجب أن يُلجأ إلى الحصول على مياه الشرب في موسم الجفاف من خلال الهبوط 450 قدمًا تحت السطح عبرَ كهف جوفيّ. وقد بُنِيتْ جميع مواقع المايا الكلاسيكية، ومنها «تيكال» ومراكز بيتين أخرى، إلى جوار آبار وخزانات احتياطية طبيعية أو صناعية. وكان أكثر الجيوب المائية الطبيعية شهرة الـ «سينوتي»[1] (cenotes)، التي تقع قرب تشيتشن إيتزا (Chichen Itza)، من أواخر مراكز المايا في شمال«يوكاتان». إن الكميات الكبيرة من العظام البشرية والصناعات الذهبية التي جرفت من قاعها تفترض أن البشر والأشياء الطقسية كانت ترمى فيها لاسترضاء آلهة المياه. وبذلك ثمة احتمال قوي على أن المستعمرات القديمة في بيتين كانت تميل إلى التمدد خلف حدود التفرّق الطبيعية لقرى الغابة الاستوائية. ونظرية النمو الابتدائي هذه تنقل مراكز المايا الشعائرية من العالم السماوي إلى عالم الأرض والمياه. كان لدى مزارعي المايا سبب عملي قوي في عدم الهجرة باتجاه الغابات حيث بدأ زعماؤهم الموزِّعون يتصرفون كالملوك بدلًا من الـ «ميومي».

(1) حفرة طبيعية ناتجة من انهيار الحجر الجيري الذي يكشف المياه الجوفية تحته. (المحرر)

المسألة التالية التي سنواجهها هي كيف استطاع شعب المايا بإدارة زعمائه الموزِّعين رفع كثافة السكان إلى حد أعلى بـ 250 مرة من الحد الذي تم الوصول إليه في مناطق الحيد البيني لـ «أورينوكو» الأمازون. افترض علماء الآثار عمومًا أن المايا القدماء زرعوا بيتين بالطريقة التي تزرع بها سلالتهم المعاصرة، بأساليب النظام المعروف بالقطع والحرق، ولكن في هذا استحالة أكيدة.

نظام القطع والحرق هو شكل من أشكال الزراعة التي تناسب مناطق لها غطاء غابات وفيرة ومعدلات عالية من التجدد. الهدف من نظام القطع والحرق هو استخدام قسم من الغابة عددًا من السنوات، ثم إراحة الأرض بما يكفي لنمو الأشجار فيها من جديد، ومن ثم استعمالها مجددًا. يشير «القطع» إلى عملية تقطيع الأشجار الصغيرة، أشجار الكرمة، والشجيرات وتركها لتجف قبل حرقها. يتم الحرق عادة قبل بداية موسم الأمطار مباشرة، ويشكل طبقة من الرماد الذي يستعمل سمادًا. تزرع المحاصيل مباشرة في التربة المغطاة بالرماد في حفر أو أكوام صغيرة دون الحاجة إلى الحراثة. هناك محاصيل كبيرة من الذرة والفاصولياء والكوسا ومحاصيل أخرى يمكن الحصول عليها لموسمين أو ثلاثة. وحينها تنتشر الأعشاب من الغابات المحيطة غير المقطوعة وتتفرق في الحقول؛ في الوقت نفسه يجرف الرماد المسمّد بعيدًا بمياه الأمطار. وخلال وقت قصير يجب إيجاد رقعة جديدة. يمكن لزراعة القطع والحرق تأمين عائدات كبيرة في كل فدان وتكفّل وقت العمل البشري في أن تتم المحافظة على فترة فاصلة كافية لإتاحة نمو الأشجار والشجيرات الضروري الفاصل بين عمليات الحرق المتعاقبة. كلما كانت كمية الرماد أكبر، كانت المحاصيل أكبر. وكلما كانت الفترة الفاصلة التي تترك الغابة فيها لترتاح، كانت كميات الأخشاب التي يُنتج منها الرماد أكبر. لهذا السبب يعتقد مزارعو القطع والحرق في جنوب شرق آسيا أنهم «الشعب الذي يأكل الغابات». كلما كانت فترة إراحة الأرض أقل، كانت المحاصيل أقل. وفي الغابات الاستوائية يمكن أن يكون الانخفاض شديدًا لا لأن زخات الأمطار الغزيرة الكثيفة تجرف المواد المغذية للتربة فحسب، بل أيضًا لأن الأعشاب تنمو بشكل أكثف كل سنة يستمر فيها استخدام الحقل.

كان القطع والحرق بلا شك نظامًا استخدمته الشعوب المزارعة القديمة التي دخلت بيتين، ولكنه استحال أن يبقى أسلوب العيش الأساسي خلال الانتقال إلى الدولة وبعده. ومن طريق إحصاء خرائب مواقع السكن، يقدر دينيس بولستون (Dennis Puleston) من جامعة مينيسوتا، أنه كان هناك 2250 شخصًا في كل ميل مربع في المنطقة حول تيكال و750 شخصًا في كل ميل مربع في المنطقة بين تيكال وجارتها «أوكزاكتون» (Uxactun). من المتعذر لأنظمة القطع والحرق آنفة الذكر أن تعيل هذه الكثافات السكانية. وبأخذ منطقة بيتين بكاملها في الاعتبار، بيّن شيربورن كوك (Sherburne Cook) أن كميات كافية من الذرة، الفاصولياء والكوسا كان يمكن أن تنمو بتقنيات القطع والحرق لإعالة عدد السكان الإجمالي المقدر بحوالى 1.5 مليون. ولكن تفترض هذه الإحصاءات أن المزارعين كانوا ينتشرون بالتساوي في الغابة وأنهم كانوا أحرارًا في الانتقال إلى أراضٍ جديدة مقطوعة الأشجار عندما تستنزف المناطق القديمة. أيّ من هذه الافتراضات غير صحيح لأن التأثير المقيد للفصل الجاف على توافر مياه الشرب لا يؤخذ في الاعتبار. علاوة على ذلك، تواجه المناطق المنخفضة عن سطح الأرض في الفصول الماطرة مشكلات معاكسة – الكثير من الماء – وهي مستنقعية إلى حد يصعب فيه استخدامها من دون حفر قنوات تصريف.

من الناحية النظرية، تبدو صورة ما يجب أن يكون قد حدث واضحة. عندما ازداد عدد سكان بيتين، كان لا بد من تكثيف دورة القطع والحرق، ما نتج منه فترات إراحة أقصر للأرض بين الحرق، وبالتالي كفاية متدهورة. يؤمن ذلك السبيل لاعتماد وانتشار نظام أكثر كفاية يتضمن تكاليف بدء أكبر، ويؤمن بالمقابل الأساس لكثافة سكانية أكبر أيضًا ونشوء أولى الدويلات. ولكن ما طبيعة النظام الجديد والأكثر إنتاجية؟ أخشى أن نظريتي تسبق الوقائع الأركيولوجية، غير أن هناك دلائل مبشرة على أن الوقائع في طريقها للانجلاء.

تمثَّل أحد المقاييس التي تأخذها المايا عندما كانت تتراجع كفاية القطع والحرق في غرس بساتين من أشجار البندق، من فصيلة شجر الحليب (brosimum alicastrum). وكما أوضح سيروس لونغوورث لوندل في الثلاثينيات من القرن

العشرين، أن شجرة البندق هي الشجرة الأكثر شيوعًا التي تغطي حطام مراكز بيتين الشعائرية. وعندما يتكلم علماء الآثار بشكل مثير على ضرورة شقهم طريقهم في الأدغال كي يكشفوا عن عجائب عمارة ونحت المايا، يهملون عمومًا القول إنهم كانوا يشقون طريقهم في بساتين مفرطة النمو. فللمحاصيل الشجرية بالطبع تكاليف إنماء مرتفعة – على المرء أن ينتظر سنوات قبل أن تبدأ بردّ الجهد المستثمر فيها – إلا أنها منتجة بشكل مرتفع في كل فدان أرض ومقابل كل ساعة عمل. حديثًا، توصل دينيس بولستون (Dennis Puleston)، بعد أن اكتشف أن كل موقع سكني في تيكال كان محاطًا ببستان أشجار البندق، إلى استنتاج أن هذه الأشجار كانت تؤمن 80 في المئة من السعرات الحرارية التي كان شعب تيكال يستهلكها خلال القرن التاسع الميلادي. هناك بدائل أخرى، في أي حال، تغاضى عنها ببساطة جيل من علماء الآثار الذين فضلوا الاعتقاد بأن معابد المايا قد تنزّلت من السماء بخيوط ذهبية ولم يبنها أولئك الذين أرادوا أن يعرفوا من أين ستأتي وجبتهم التالية. بهذا الربط، يبدو أن أحد أهم الاكتشافات حول المايا هو ما قام به راي ماثناي (Ray Mathnay) في عام 1975 في إدزنا، ولاية كامبيتشي، في المكسيك. بالعمل بمرافقة صور فوتوغرافية جوية أخذت خلال الفصل الماطر (آخرون اقتصرت صورهم الجوية على الفصل الجاف، حيث كانت الظروف «أفضل»)، اكتشف ماثناي شبكة من القنوات والخنادق المائية والخزانات التي تتفرع من المركز الشعائري. وبسبب الأوراق الكثيفة التي تغطيها خلال الفصل الماطر وواقع أن الماء يجف فيها خلال فصل الجفاف، كان من الصعب اكتشاف هذه البنى من خلال المسوح الأرضية وحدها.

تمتد القنوات نحو ميل تقريبًا طولًا، ومئة قدم عرضًا ونحو عشرة أقدام عمقًا. افترض ماثناي أنها كانت تستخدم لمياه الشرب ولسقاية البساتين المجاورة، ومصدرًا للطين لتجديد خصوبة الحقول «المراحة». أود أن أضيف استنتاجًا هو أنهم مكنوا بعض المناطق من زراعة نوعين من المحاصيل في السنة، أحدهما كان يعتمد على الارتشاح في المناطق المنخفضة عن سطح الأرض خلال فصل الأمطار والآخر يزرع في طين رطب خلال فصل الجفاف. بينما تقع إدزنا خارج منطقة بيتين الوسطى، تعني حقيقة عدم اكتشاف نظامها للتحكم بالمياه لمدة طويلة

أن كل الأحكام التي تتعلق بغياب نظم مكثفة داخل بيتين نفسها لا بد من أن تبقى معلقة.

هذا ما يحيلنا إلى الجانب الأكثر إثارة في بيتين المايا. فبعد عام 800م، وفي مركز بعد آخر، توقف البناء، ولم تصنع نقوش تذكارية بعد ذلك، وأصبحت المعابد ركامًا مبعثرًا مع قمامة المنازل، وانتهى كل نشاط حكومي وإكليريكي في بيتين فجأة تقريبًا. تختلف المصادر المتعلقة بسرعة انخفاض عدد السكان. لكن زمن وصول الإسبان، كانت قد عادت منذ وقت طويل إلى كثافات سكانية مساوية لما كانت عليه أو أقل منه في عصور ما قبل الدولة ولهذا اليوم تبقى المنطقة غير مأهولة عمليًا. عانى كثير من أنظمة الدولة ما قبل الكولومبية في أميركا الوسطى، ومنها «تيوتيخواكان»، انهيارات مفاجئة في زمن أو آخر. الأمر المتفرد في بيتين المايا أن الدول لم تختفِ نهائيًا فحسب، بل مجمل السكان أيضًا. كان الانهيار السياسي في مرتفعات الهضبة الوسطى عادةً ما يتبعه صعود دول جديدة أكبر وإمبراطوريات تشمل أراضي وسكان الأسلاف. لذلك، فإن ما يعنيه انهيار المايا ضمنًا، هو أن دولة بيتين قد تطورت على قاعدة بيئية هشة بشكل غير اعتيادي بحيث لا يكون بالمقدور تجديدها عندما تنهار.

لا يمكن معرفة كيف دمرت القاعدة البيئية عند المايا بالضبط، إلا عندما يتكون لدينا فهم أفضل لكيفية تكامل المكونات المتنوعة لنظامها الزراعي بعضها مع بعض. إن أنسبَ ما يكمن فعله موقتًا هو القول إن لكل مكون حده الأقصى الذي يمكن دفعه إليه، وبعد ذلك يرتد رجوعًا بعواقب مدمرة. فالإراحة القصيرة الأمد للأرض من الحرق والقطع يمكن أن تحيل الأدغال إلى أراضٍ عشبية دائمة. وفي وسط بيتين تمامًا، هناك سافانا عشبية واسعة من المحتمل أنها تشكلت بسبب الحرق المفرط. كما تؤدي إزالة الغابات بدورها إلى تعرية الهضاب. وكان الغطاء الترابي في مرتفعات بيتين سطحيًا للغاية وقابلًا للزوال إذا لم يُحمَ بغطاء نباتي. ويمكن التعرية أن تؤدي أيضًا أنظمة التحكم بالمياه في المنخفضات بما أنها تؤدي إلى تشكيل طمي زائد في القنوات والخزانات. أخيرًا، يمكن للعبث بغطاء شاسع من الغابات بحجم ذلك الذي يغطي منطقة بيتين أن يغير بسهولة من نمط معدل

هطول الأمطار السنوي في المنطقة، وأن يطيل فصل الجفاف ويزيد تواتر التصحر وقسوته.

تضمّن الزوال الفعلي لكل من مراكز بيتين سيناريو مختلفًا قليلًا – فشل المحصول في بعض المراكز والمجاعة في بعضها الآخر، والتمرد في بقاع أخرى، والهزيمة العسكرية في مناطق مستقرة، أو اتحادات متعددة تأسست بسبب أحداث محلية. ولكن العملية الأساسية تتضمن بلا شك استنزاف التربة الضعيفة وموارد الغابات إلى حد منخفض جدًا بحيث يتطلب تجديدها قرونًا من عدم الاستخدام.

أيًا يكن السبب الدقيق لانهيار المايا، فإن سبب النهوض السابق لمرتفعات أميركا الوسطى يبدو واضحًا. كانت إمكانات وديان الهضبة الوسطى شبه الجافة على تحمل تكثيفات زراعية متعاقبة يفوق قدرة غابة المايا شبه الاستوائية. ولأعرض كيف حدثت عملية التكثيف هذه في تاريخ إمبراطورية «تيوتيخواكان».

وادي «تيوتيخواكان» هو فرع من وادي المكسيك يقع على بعد نحو خمسة وعشرين ميلًا شمال شرق مركز مدينة مكسيكو. ومثل وادي «تيخواكان»، حيث وجد ريتشارد ماكنيش أقدم النباتات المؤهَّلة، لم يكن في وادي «تيوتيخواكان» أيضًا قرى دائمة إبّانَ الألفية الأولى قبل الميلاد. فبين عامي 900 ق. م و600 ق. م كانت مواقع القرى مقيدة بمنحدرات الوادي الحرجية المرتفعة، تحت خط الصقيع، لكن على علو يكفي للاستفادة من هطول الأمطار الإضافي على التلال. كانت الزراعة التي تمارسها هذه القرى الأولى بلا شك شكلًا من أشكال القطع والحرق والإراحة الطويلة للأرض. بين عامي 600 و300 ق. م تشكلت قرى كبيرة كثيرة على مرتفعات أكثر انخفاضًا على أطراف قاع الوادي، ولعلّ ذلك للاستفادة من تربة الطمي ولممارسة شكل بدائي من أشكال الري. خلال الفترة اللاحقة، بين عامي 300 و100 ق. م، تنامت المستوطنات مباشرة في قاع الوادي، وإحداها – النواة التي أصبحت مدينة تيوتيخواكان – كانت تحتوي في الأصل على 4000 نسمة. يفترض الانتقال من المنحدرات إلى قاع الوادي بقوة ضغوطًا إنجابية متزايدة تنتج من تكثيف واستنزاف نظام القطع والحرق، وعلى الأخصّ عن إزالة الغابات وتعرية الأرض. ومع انخفاض كفاية العمالة في زراعة القطع

والحرق، أصبح من المهم الإنفاق على انطلاقة في عمالة البناء وعلى مؤسسات الري. وشكل عدد من الينابيع الكبيرة التي تغذيها المياه الراشحة من خلال التلال البركانية النفاذة إلى قاع الوادي الأساس لنظام الري في تيوتيخواكان ولا تزال في قيد الاستخدام حتى اليوم. ومع ازدياد عدد سكان المستوطنات المركزية، استُخدمتْ شبكة قنوات بحجم الأنهار، التي تغذيها الينابيع في النهاية لري حوالى 14000 فدانًا من الأراضي الزراعية ذات المردود العالي، والتي تنتج نوعين من المحاصيل.

نمت مدينة تيوتيخواكان بسرعة بعد عام 100م، ووصلت إلى الذروة في عدد السكان الذي ربما بلغ 125,000 نسمة في القرن الثامن الميلادي. يظهر رسم الخريطة الدقيق الذي قام به رينيه ميلون (René Millon) من جامعة روكستر أن المدينة كانت مقسمة إلى أحياء ومناطق مخططة، كل واحدة لها خصوصيتها الحِرَفية ومقاطعاتها العرقية ومعابدها وأسواقها وحجارة بلاطتها ودُورها المكسوة بالجص للأثرياء وأصحاب النفوذ، وبيوتها المظلمة المخصصة لعامة الشعب والمقسمة لإسكان عدة أسر – نحو 2200 بيت مقسّم إلى شقق. أحصى ميلون أكثر من 400 معملًا متخصصًا في صناعة الأدوات المصنوعة من الزجاج البركاني وأكثر من 100 معمل خزف. شكلت الأبنية الأكبر والأكثر زخرفة طريقًا مدرجًا ضخمًا يشق المدينة طولانيًا مسافةَ ميلين تقريبًا من الشمال إلى الجنوب. النصب المركزي – الذي يدعى هرم الشمس، مبني من كسارة ذات واجهة حجرية – يبلغ امتداد جانبه 700 قدم ويرتفع إلى 200 قدم.

بحلول 700م تعرضت تيوتيخواكان إلى انهيار مفاجئ، ربما كان بسبب حرق وسلب رافقا صعود قوة إمبراطورية جديدة – وهي التولتك، التي كانت عاصمتها تقع على بعد لا يزيد عن 20 ميلًا في وادي تولا. الدليل غير كامل، ولكنني أزعم أن الاستنزاف البيئي كان مسؤولًا عن ذلك بالدرجة الأولى. فمقدار عائد المياه من الينابيع يتقلب حسب هطول الأمطار. كان يمكن لهبوط دائم طفيف في كمية المياه التي تغذيها الينابيع وفي النطاق المائي تحت قاع الوادي أن يجعل من تيوتيخواكان مكانًا غير مقبول لأن يكون مأهولًا. نعلم أنه كان هناك إزالة للغابات ضمن نطاقٍ

محيط، وتتسع المساحة الجرداء كلما نمت المدينة واستهلكت كميات متزايدة من الأخشاب للعوارض والرافدات المنزلية والفحم للطبخ وصناعة الجص الجيري. تمّتْ إزالة الغابات هذه على نطاق واسع بما يكفي لتغيير نمط الهطولات والمياه السطحية على المنحدرات العلوية للوادي.

كان هناك حل تقني واحد لمشكلة المياه لم يقم سكان تيوتيخواكان بتجربته إلا على أساس محدود، تضمن استخدام البحيرات قليلة العمق والأراضي السبخية التي كانت تحيط بوادي تيوتيخواكان من الجنوب الغربي والتي من المحتمل أنها كانت في تلك الأيام مرتبطة ببحيرة تيكزوكو، وهي ذات قوام مائي كبير مالح جزئيًا كان يملأ معظم وادي المكسيك المجاور. من أجل الانتفاع من حواف البحيرة، كان من الضروري حفر قنوات تصريف وتكويم التربة المحفورة على تلال – وهو إجراء كان أكثر تكلفة من الأشكال الأخرى للري. بحلول عام 1100م لم يكن بإمكان سكان وادي المكسيك تفادي تكاليف البدء المرتفعة بنمط كهذا من الزراعة. وانتشرت شبكة من قنوات الصرف والتلال عالية الإنتاجية، والتي كانت خصوبتها تدعَّم باستمرار بتربة مجروفة جديدة، على امتداد حواف البحيرة وكانت تؤمن الأساس المعيشي لستٍّ حكومات حربية. كانت إحداها دولة الأزتك، التي أصبحت القوة الإمبراطورية الهندو–أميركية الأخيرة في أميركا الشمالية. ولأن عاصمة الأزتك، تينوشتيتلان، تقع على جزيرة تتصل بالشاطئ عبر ممر، ما منح الأزتك ميزة عسكرية على جيرانهم فبسطوا سيطرتهم بعد فترة وجيزة على منطقة البحيرة بكاملها. وعندما ازداد عدد السكان ليبلغ كثافة غير مسبوقة، عمدوا إلى توسيع تلال الركام نحو البحيرة نفسها بإهالة الطين على قمم الأغصان وسيقان الذرة وفروع الأشجار، لينتج من ذلك «شينامبا» أو الـ «حدائق العائمة» ذات الإنتاجية الهائلة، (وتلك الحدائق ليست طافية في الواقع).

في البداية، كانت تستعمل ألسنة البحيرة داخل البر فقط في هذه الحالة. ولكن مع ازدياد المناطق التي تغطيها الشينامبا، حاول مهندسو الأزتك خفض ملوحة الأجزاء المالحة قليلًا من خلال تصريفها ودفق مياه عذبة فيها عبر قنوات نظام معقد من المجاري وبوابات تحكم.

إذًا، بالعودة إلى النظر في السياق التطوري في وادي تيوتيخواكان ووادي المكسيك خلال الألف سنة بين عامي 200م و1200م، يمكننا أن نتبين ثلاث مراحل واضحة من التكثيف الزراعي يتبعها ثلاثة تحولات في أسلوب الإنتاج: **الأولى**، تكثيف زراعة الحرق والقطع على التلال؛ **الثانية**، الري من طريق القنوات التي تغذيها الينابيع؛ **الثالثة**، إقامة الشينامبا. كانت كل واحدة منها تتضمن نفقات بدء وبناء متزايدة، ولكن كلًا منها كانت تمنح بشكل أساسي سبل الحياة لأعداد سكانية أكبر ودول أكبر وأكثر قوة. في الألف سنة هذه ارتفع عدد سكان وادي المكسيك من بضع عشرات من الآلاف إلى مليونَي نسمة، بينما اتسع مجال الحكم السياسي من وادٍ واحد إلى اثنين إلى شبه قارة. ووفق نظرية التطور إلى الأمام والأعلى، فكان من المحتم أن يعني ازدياد الإنتاج الزراعي تمتُّعَ الأزتك وجيرانهم بوتيرة متصاعدة بفوائد «الحضارة الرفيعة»؛ عبارة لم يتردد الأنثروبولوجيين في تطبيقها عليهم. ولكنها ليست العبارة المناسبة على الإطلاق.

المراجع والملاحظات

لمزيد من الأمثلة المقاربة الرومانتيكية يُنظر: S.G. Morely & G. Brainerd, *The Ancient Maya* (Palo Alto: Stanford University Press, 1956); J. E. Thompson, *The Rise and Fall of Maya Civilization* (Norman: University of Oklahoma Press, 1954); Michael Coe, *America's First Civilization: Discovering the Olmec* (New York: American Heritage, 1968); Miguel Covarrubias, *Indian Art of Mexico and Central America* (New York: Alfred A. Knopf, 1957),

اعتمدتُ على: Gordon Willey, *An Introduction to American Archaeology*, vol. 1 (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1966); Muriel Weaver, *The Aztecs, Maya, and Their Predecessors* (New York: Seminar Press, 1972).

للحصول على معلوماتي الأساسية عن حقبة ما قبل التاريخ في أميركا الوسطى. لم يكن لتحليلاتي البيئية أن ترى النور من دون (التوليفة) التي اقترحها: W. T. Sanders & B. Price, *Mesoamerica: The Evolution of a Civilization* (New York: Random House, 1968);

يُنظر: Ronald Grennes-Ravitz & G. Coleman, «The Quintessential Role of Olmec in the Central Highlands of Mexico,» *American Antiquity*, vol. 41 (1976), pp. 196-205; Norman Hammond (ed.), *Mesoamerican Archaeology: New Approaches* (Austin: University of Texas Press, 1974).

لتقدير عدد سكان المايا يُنظر: William Haviland, «A New Population Estimate for Tikal, Guatemala,» *American Antiquity*, vol. 34 (1969), pp. 429-433; William T. Sanders, «Population, Agricultural History and Societal Evolution in Mesoamerica,» in: Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications* (Cambridge: MIT Press, 1972); Sherburne Cook, *Prehistoric Demography* (Reading (Mass.): Addison Wesley, 1972).

لنظرية التبادل لدولة المايا يُنظر: William Rathje, «The Origin and Development of Lowland Classic Maya Civilization,» *American Antiquity*, vol. 36 (1971), pp. 275-285.

ولدحضها يُنظر: Barbara Price, «Turning State's Evidence: Problems in the Theory of State Formation,» Unpublished paper, 1977.

لا تزال دراسة لونديل: Cyrus Lundell, *The Vegetation of Peten* (Washington, DC: Carnegie Institution, 1937).

عن بيتين أفضل ما توفر لدينا حتى اليوم. يُنظر: Gifford (1972); David C. Grove et al., «Settlement and Cultural Development at Chalcatzingo,» *Science*, vol. 192 (1976), pp. 1203-1210.

لمعرفة أولى مستوطنات المايا. ولـ 'القطع – ثم – الحرق' يُنظر: Ursula Cowgill, «An Agricultural Study of the Southern Maya Lowlands,» *American Anthropologist*, vol. 64 (1962), pp. 273-286; Esther Boserup, *The Conditions of Agricultural Growth* (Chicago: Aldine, 1965); Betty Meggers, E. Ayensu & W. Duckworth, *Tropical Forest Ecosystems in Africa and South America: A Comparative Review* (Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1973); Harold Conklin, *The Study of Shifting Cultivation* (Washington: Pan American Union, 1963).

وبالنسبة إلى الشعب الذي يأكل الغابات يُنظر: George Condominas, *Nous avons mangé la forêt de la Pérre-Genie Goo* (Paris: Plon, 1957).

يُنظر: D. E. Puleston, «Intersite Areas in the Vicinity of Tikal and Uaxactun,» in: Hammond (ed.), *Mesoamerican Archaeology*; B. L. Turner, II, «Prehistoric Intensive Agriculture in the Maya Lowlands,» *Science*, vol. 185 (1974); Cook, *Prehistoric*,

وعن أشجار الـ breadnut يُنظر: D. E. Puleston & O. S. Puleston, «An Ecological Approach to the Origin of Maya Civilization,» *Archaeology*, vol. 24 (1971), pp. 330-337.

يُنظر: Ray Mathenay, «Maya Lowland Hydraulic Systems,» *Science*, vol. 193 (1976), pp. 639-646.

وعن انهيار المايا، يُنظر: T. P. Culbert (ed.), *The Classic Maya Collapse* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1973).

وعن ظهور تيوتيخواكان يُنظر: Sanders, «Population, Agricultural History»; Sanders & Price, *Mesoamerica*;

يُنظر: Rene Millon, «The study of Urbanism at Teotihuacan, Mexico,» in: Hammond (ed.), *Mesoamerican Archaeology*.

لكن تجاهلْ هجومَه المسعور على علماء البيئة. وحول الـ *chinampas* ينظر: Angel Palerm, «Agricultural Systems and Food Patterns,» *Handbook of Middle American Indians*, vol. 6 (1967), pp. 26-52.

وللنماذج الديموغرافية في وادي المكسيك يُنظر: Jeffrey Parsons & R. Blanton, *Prehispanic Demography in the Eastern Valley of Mexico: The Texaco, Ixtapalapa and Chalco Areas* (Unpublished manuscript, 1969).



9

مملكة آكلي لحوم البشر

لأنهم مدربون تدريبًا عاليًا، وسفاحون متمرسون في ميدان القتال، ولأنهم مواطنون من بلاد محاكم التفتيش، كان كورتيز (Cortés) ورجاله، الذين وصلوا إلى المكسيك في عام 1519، معتادين على عروض الوحشية وإراقة الدماء. لا بد أنه بلغهم دون أن يُبدوا كثير الاستغراب أن الأزتك (Aztecs) كانوا يضحون بالبشر بشكل منتظم، بقدر ما كان الإسبان وشعوب أوروبية أخرى يقومون أيضًا بشكل منتظم بكسر عظام البشر على المخلعة، واقتلاع الأذرع والأرجل بحبال مربوطة بين خيول، وحرق النساء المتهمات بالسحر على الوتد. لكن على الرغم من ذلك كله، لم يكونوا مهيئين بالفعل لما وجدوه في المكسيك.

لم يحدث في أي مكان آخر من العالم أن شعبًا طور دينًا رسميًا كان فنه وعمارته وطقوسه يسودها العنفُ والموت والمرض بكل معنى الكلمة. كما لم يحدث في أي مكان آخر أن أُعِدّتِ الجدرانُ وساحات المعابد العظيمة والبلاط لمثل هذه العروض التي ركّزتْ على الفكوك والأنياب والأصابع والأظافر والعظام ورؤوس الموت المحملقة الأعين. لا تترك تقارير كورتيز العيانية ورفيقه الفاتح، برنال دياز (Bernal Diaz)، مجالًا للشك في ما يتعلق بالمعنى الإكليريكي بالصور المخيفة المنحوتة في الحجر. فآلهة «الأزتك» تأكل البشر. إنها تأكل القلب البشري وتشرب الدم البشري. وكانت الوظيفة المعلنة للكهنة الأزتكيين

تأمين القلوب البشرية الحية والدم كي يتجنبوا غضب الآلهة عديمة الرحمة فتسبب الإعاقات وتبعث الوباء وتدمّر وتحرق العالم بأسره. كان الإسبان أول من رأى معبدًا أزتكيًا من الداخل كضيوف دعاهم إليه موكتيزوما (Moctezuma)، آخر ملوك الأزتك. لم يكن موكتيزوما قد حسم أمره بشأن نوايا كورتيز – غلطة ثبت بعد فترة وجيزة أنها قاتلة – عندما دعا الإسبان إلى علو 114 درجة نحو المعبد التوأم لـ «يوتيزيلوبوتشلي»[1] و«تلالوك»[2] اللذين يقعان فوق قمة أعلى هرم في «تينوشتيتلان» في وسط ما تسمى اليوم مدينة مكسيكو. حالما صعد الإسبان الأدراج، كتب برنال دياز، بدأت معابد وأضرحة أخرى بالظهور «جميعها تلمع بالبياض». في المساحة الواسعة عند قمة الهرم «ثمة حجارة ضخمة في المكان الذي يضعون فيه الهنود المساكين للتضحية». هنا أيضًا كانت «صورة ضخمة تشبه التنين، وأشكال شريرة أخرى وكثير من الدم المراق في ذاك اليوم بالتحديد». بعدها سمح لهم موكتيزوما برؤية صورة «يوتيزولوبوتشلي»، «بوجهه العريض الواسع وعينيه المخيفتين والرهيبتين»، وأمامه «كانوا يحرقون قلوب ثلاثة من الهنود الذين تمت التضحية بهم ذلك اليوم». جدران وأرضية المعبد «كانت ملطخة ومغطاة بالدم الأسود اللون» و«كانت تفوح من المكان كله رائحة نتنة قذرة». في معبد تلالوك، أيضًا، كل شيء كان مغطى بالدم، «الجدران والمذبح، وحالما خرجنا منه تنفسنا الصعداء بسبب الرائحة النتنة».

المصدر الرئيس لطعام آلهة الأزتك كان أسرى الحرب، الذين كانوا يجرون على أدراج الأهرامات إلى المعابد، يمسكهم أربعة كهنة، يفردون أيديهم وأرجلهم إلى الخلف على حجر المذبح، ويشقون من جانب من الصدر إلى الآخر بسكين من الزجاج البركاني يتقن استعمالها كاهن خامس. بعد ذلك، كان قلب الضحية – ويوصف عادة أنه لا يزال ينبض – يُنتزع ويحرق قربانًا. ثم يتدحرج الجسد عن أدراج الهرم، التي بنيت شاهقة وشديدة الانحدار عمدًا لتلائم هذا الغرض.

---

(1) يوتيزيلوبوتشلي: إله الشمس. (المترجم)

(2) تلالوك: إله المطر. (المترجم)

أحيانًا كان بعض الضحايا القرابين - محاربون شهيرون ربما - يُمنحون امتياز الدفاع عن النفس فترة قبل أن يقتلوا. وقد وصف برناردينو دي ساهاغون (Bernardino de Sahagun)، المؤرخ وعالم السكان الأعظم عند الأزتك، هذا العراك الزائف كالتالي:

> ... ذبحوا أسرى آخرين، وهم يتعاركون معهم - هؤلاء يكونون مربوطين، عند الخصر، بحبل يمر عبر تجويف في حجر مدوّر، كما في الطاحونة؛ ويكون (الحبل) طويلًا ما يكفي (المأسور) بالتحرك حول كامل محيط الحجر. أعطوه أسلحة كي يقاتل بها. وهاجمه أربعة محاربين بسيوف وتروس، وتبادلوا الواحد تلو الآخر ضربات السيف معه حتى غلبوه.

كما يتضح في دولة الأزتك قبل قرنين أو ثلاثة، فالملك نفسه لم يكن بريئًا من قتل بضع ضحايا بيديه. هنا تقرير لدييغو دوران (Diego Duran) عن ذبح يفوق الخيال لأسرى من «المكستيك»[3] (Mixtecs):

> دخل الكهنة الخمسة ودعَوا الأسير الذي يقف في أول الخط... كل أسير أخذوه إلى المكان الذي وقف فيه الملك، وبعدها أجبروه على الوقوف على الصخرة التي اتخذت شكل وصورة الشمس، رموه على ظهره. أحدهم أخذه من يده اليمنى، والثاني من اليسرى، الثالث من قدمه اليسرى، والرابع من اليمنى، بينما ربط الكاهن الخامس عنقه بحبل ثخين وأمسكه كي لا يتحرك.
>
> رفع الملك السكين نحو الأعلى وأحدثَ جرحًا عميقًا في صدره. بعد أن فغر الجرح استخرج القلب ورفعه عاليًا بيده كقربان للشمس. عندما هدأ القلب قذف به إلى التجويف الدائري، ملأ راحته بشيء من الدم ورشّه إلى جهة الشمس.

لم يكن الضحايا كلهم أسرى حرب؛ إذ كان يُضحى بعدد وافر من العبيد أيضًا. إضافة إلى ذلك، كان يُختار شباب محددين وفتيات لتمثيل شخصيات آلهة وآلهات معينين. كان هؤلاء يعاملون بعناية ولطف فائقين خلال السنة التي تسبق إعدامهم. في **دريسدن كوديكس** (*Dresden Codex*)، وهو كتاب من القرن السادس

---

(3) المكستيك: أحد أقوام أميركا الوسطى الأصليين. (المترجم)

عشر مكتوب باللغة الناهيوتيلية، لغة الأزتك، يرد هذا التقرير حول موت امرأة كانت تمثل دور الإلهة أوكزتوسيتل[4]:

بعد أن ذبحوا الأسرى، عندها بالضبط جاء دور (مُشخِّصة) أوكزتوسيتل؛ أتت فقط في الآخر. وصلوا إلى الختام وانتهوا بها وحدها.

وعندما تم ذلك، عندها مددوها فوق صخرة القربان. بسطوها على ظهرها. استحكموا بها؛ سحبوا وبسطوا ذراعيها ورجليها، وقد ثنوا صدرها بشدة (إلى الأعلى)، ثنوا ظهرها (إلى الأسفل)، وشدوا رأسها إلى الأسفل، نحو الأرض. وجوفوا داخل عنقها بخطم مضغوط بشدة، شوكي مسنن، يعود لسمكة المنشار.

كان ناحرها يقف هناك؛ قام. ومن ثم شق فاتحًا صدرها.

وعندما فتح صدرها، تدفق الدم عاليًا؛ تفجر بقوة وتدفق غزيرًا، فوّارًا.

بعد الانتهاء من ذلك، رفع قلبها قربانًا (للإله) ووضعه في الجرة الخضراء، التي تدعى جرة الصخرة الخضراء.

بعد أن تم ذلك، نفخت الأبواق بصخب. وبعد ذلك خفضوا الجسد والقلب (صورة) أوكزتوسيتل، غُطي بغطاء ثمين.

لكن العروض المهيبة كتلك كانت قليلة ومتباعدة. لم يصعد معظم الضحايا درجات الهرم فرحين، كانوا يسكنون ألمهم بظنهم أنهم إنما يوشكون على إرضاء أحد الآلهة. وكان بعضهم يجر من شعره:

عندما أخذ أسياد المأسورين عبيدهم إلى المعبد إلى حيث يذبحون، جروهم من شعورهم. وعندما سحلوهم على درجات الهرم، أُغمي على بعض المأسورين، وجذبهم أسيادهم وجروهم من شعورهم إلى صخرة التضحية حيث موتهم.

لم يكن الأزتك أول شعوب أميركا الوسطى التي تقدِّم أضاحيَ بشرية. نعلم أن التولتك والمايا مارسوا ذلك أيضًا، ومن المنطقي أن كل الأهرامات في أميركا الوسطى ذات الجوانب الشديدة الانحدار، والقمم المسطحة كانت مُعدّة كي تكون

---

(4) إلهة الخصب وربة الملح والمياه المالحة، الأخت الكبرى لتلالوك، إله المطر. (المترجم)

منصة للعرض الذي تقدم فيه الأضاحي البشرية طعامًا للآلهة. ولم تكن التضحية بالبشر من ابتكار الدين الرسمي. فالدلائل من المجتمعات القروية والجماعات على امتداد الأميركيتين وفي بقاع أخرى من العالم، تشير إلى أن التضحية بالبشر تسبق تاريخيًا بكثير ظهور الأديان الرسمية.

من البرازيل إلى السهول الكبرى، كانت المجتمعات الهندو-أميركية تقدم شعائريًا أضاحيَ بشرية لبلوغ منافع معينة. في واقع الأمر، فإن كل طقس من طقوس الأزتك كان يؤذِن بمعتقدات وممارسات لشعوب قروية وجماعات. حتى الاستغراق في الإزالة الجراحية للقلب كانت له سوابق؛ فالإيروكواس، على سبيل المثال، تنافسوا بعضهم مع بعض من أجل امتياز أكل قلب أسير شجاع، كي يكسبوا بعضًا من شجاعته. في كل مكان، كان الذكور هم الضحايا الرئيسين. فقبل أن يقتلوا، كانوا يُعَدون للجري في سباق، أو كانوا يضربون، أو يرشقون بالحجارة، أو يحرقون، أو يشوهون، أو يتعرضون لصنوف أخرى من التعذيب والتنكيل. فكانوا أحيانًا يربطون إلى أوتاد وتقدم لهم هراوة كي يدافعوا بها عن أنفسهم ضد معذبيهم. وبين حين وآخر كان يتم إبقاء أسير أو أسيرين فترات مطولة ويقدم إليهم أطعمة جيدة وجوارٍ.

كانت التضحية العشائرية بأسرى الحرب عند المجتمعات القروية والجماعات تُستتبع بأكل كل جسد الضحية أو أجزاء منه. ويعود الفضل إلى التقارير العيانية التي قدمها هانز ستادين (Hans Städen)، البحار الألماني الذي تحطمت سفينته على ساحل البرازيل في أوائل القرن السادس عشر، فلدينا صورة حية كيف أن أحد الجماعات، وهي جماعة تيوبينامبا، جمعت التضحية العشائرية إلى أكل لحوم البشر.

في يوم تقديم التضحية كان أسير الحرب المربوط من وسطه يُجرّ إلى الساحة، مُحاطًا بنساء يحقّرنه ويؤذينه، لكن سُمح له أن ينفس غضبه برمي الفاكهة أو قطع الفخار المكسورة عليهن. وكانت نساء عجائز مطليات بالأسود والأحمر ويلبسن عقودًا من الأسنان البشرية يُخرجن أوانيَ مزخرفةٍ تطبخ فيها دماء وأحشاء الضحية. وكانت الهراوة الشعائرية التي ستستعمل لقتله تنقّل جيئة وذهابًا بين أيادي الرجال

كي «تكتسب تلك الأيادي القوة لإمساك الأسير في ما بعد»، بينما كان الجلاد الفعلي يلبس عباءة طويلة من الريش يتبعه أقارب يغنون ويقرعون الطبول. وكان الجلاد والأسير يسخر كلٌّ منهما من الآخر. وكان الأسير يُمنح بعض الحرية بما يكفي لتفادي الضربات، وكانت توضع أحيانًا في يده هراوة كي يحمي نفسه من دون أن يكون قادرًا على رد الضربات. في النهاية عندما كانت تتحطم جمجمته، كان الجميع «يهلل ويطلق الصفير». وفي حال كان الأسير قد مُنح زوجة في فترة أسره، فكان يُتوقع منها أن تذرف الدموع على جسده قبل الانضمام إلى المأدبة التي تلي مقتله. وكانت النسوة العجائز «يهرعن لشرب الدم الحار»، وكان الأطفال يغمسون أيديهم فيه. كانت «الأمهات تلطّخن حلمات أثدائهن بالدم كي يُتِحنَ حتى للأطفال الرضّع تذوقه». وبعد تقطيع الجسد إلى قطع وشيّه كانت «النسوة العجائز اللواتي كن أكثر تلهفًا للحم البشر» يلعقن الشحم الذي يقطر من قضبان موقد الشواء.

عشرة آلاف ميل نحو الشمال، بعد قرابة قرنين، شهدت حملات اليسوعيين التبشيرية طقسًا مشابهًا بين الهورون في كندا. كانت الضحية رجلًا من الإيروكواس قُبض عليه مع رفقاء آخرين بينما كانوا يصيدون في بحيرة أونتاريو. أوضح زعيم الهورون المسؤول عن الطقس أن الشمس وإله الحرب سيكونان راضيين بما سيقومون به. كان من المهم عدم قتل الضحية قبل الفجر، لذا في البداية كان عليهم فقط أن يحرقوا رجليه. كما ينبغي عليهم ألا يقوموا بأي اتصال جنسي خلال الليل. كان الأسير، ويداه مقيدتان، بشكل متناوب، يصرخ ألمًا ويغني أغنية تحدٍّ تعلمها في الصغر خصيصًا لهذه المناسبة، وعندما أُدخل إلى الداخل، هاجمه بعنف حشد مسلح بوسوم من لحاء مشتعل. وبينما تهادى من نهاية الغرفة إلى الطرف الآخر، قبض بعضهم على يديه، «يكسرون عظامه بليِّها بقوة»، بينما ثقب آخرون أذنيه بأعواد تركوها داخلها». وكان كلما أوشك على لفظ نفسه الأخير، تدخل الزعيم «وأمرهم بالكف عن تعذيبه، قائلًا إن من المهم أن يرى ضوء النهار». وعند الفجر اقتيد إلى الخارج، وأُرغم على اعتلاء منصة بُنيت على سقالة خشبية حتى تتمكن القرية بكاملها من مشاهدة ما سيحدث له – أُعدت السقالة كمنصة تضحية في غياب الأهرامات ذات القمم المسطحة المشيدة لأغراض كهذه في دول أميركا

الوسطى. في هذه المرحلة أخذ أربعة رجال على عاتقهم مهمة تعذيب الأسير. فأحرقوا عينيه، وانهالوا بضربات فؤوس ملتهبة على كتفيه، وغرزوا وسومًا محماةً في حلقه وفي شرجه. وعندما بات واضحًا أنه شارف على الموت، «بتر أحد الجلادين قدمًا، وبتر آخر يدًا، وفي الوقت نفسه تقريبًا فصل ثالث رأسه من على الكتفين، راميًا إياه إلى الحشد حيث أمسكه أحدهم»، وحمله إلى الزعيم، الذي أقام لاحقًا «مأدبة عليه». في اليوم نفسه تقام مأدبة لجذع الضحية. وفي طريق عودتها إلى البيت التقت البعثة التبشيرية برجلٍ «كان يحمل على سيخ أحد يدي الضحية نصف مشوية».

لأتوقف هنا قليلًا لأناقش التفسيرات لهذه الطقوس التي تعزى إلى دوافع بشرية فطرية. إنني مهتم بشكل خاص بالنظريات المفصلة المقترحة في الإرث الفرويدي التي تدّعي أن التعذيب وتقديم الأضاحي وأكل لحوم البشر يمكن فهمها كتعابير غرائز الحب والعدوانية. فقد بيّن إيلي ساغان (Eli Sagan)، على سبيل المثال، حديثًا أن أكل لحوم البشر هو «الشكل الأكثر بدائية للعدوانية البشرية»، بما أنه يتضمن توفيقًا بين حب الضحية من خلال أكلها، وقتلها لأنها مخيبة. خلاصة القول إن هذا يفسر لماذا تُعامل الضحية في بعض الأحيان بمنتهى اللطف قبل بدء تعذيبها؛ الجلادون ببساطة يعيدون تمثيل علاقة الحب–الكره مع آبائهم. لكن لِمَ تفشل هذه المقاربة في توضيح الأمر لأن التعذيب والتضحية وأكل أسرى الحرب لا يمكن أن تتم إلا بوجود أسرى حرب، ولا يكون ثمة أسرى حرب من دون حروب. وقد استنتجت سابقًا أن النظريات التي تُرجع الصراعات إلى غرائز لدى البشرية جمعاء لا فائدة لها لتفسير التنوع في أسلوب الصراع وشدته بين الجماعات وأنها مضللة بشكل خطير لأنها تدل على أن الحرب أمر محتم. إن محاولات فهم سبب معاملة الأسرى برفق، ثم تعذيبهم، فالتضحية بهم وأكلهم وفقَ الغرائز العالمية المتصارعة بين الحب والكره لا نفع لها وخطيرة للسبب ذاته. لكن لا يُعامل الأسرى دائمًا برفق، ومن ثم يعذبون، فالتضحية بهم وأكلهم، وأي نظرية تخلص إلى تفسير سبب حدوث هذا المركب النفسي لا بد من أن تكون قادرة أيضًا على أن تفسر سبب عدم حدوثه. ونظرًا إلى أن الأفعال الخاضعة للتساؤل هي جزء من تطور الصراع المسلح، يجب أن تأخذ تفسيراتها

في الاعتبار في المقام الأول الحسابات والمنافع العسكرية؛ في المتغيرات التي تعكس الحجم، والحالة السياسية، والتكنولوجيا الحربية، والخدمات اللوجيستية للمقاتلين. على سبيل المثال، أخذ الأسرى بذاته عمل يعتمد على مقدرة الطرف المغير على تجنب الهجمات المضادة والكمائن في طريق العودة في أثناء إعاقتهم بأسرى مقاومين من الأعداء. فعندما يكون الطرف المغير قليل العدد، ولا بد له من قطع مسافات شاسعة عبر أقاليم يمكن للعدو أن ينتقم منه قبل وصوله إلى منطقة آمنة، فإن اصطحاب الأسرى يمكن أن يُلغى كليًا. وتحت ظروف كهذه يمكن حمل أشلاء من الأعداء فقط دليلًا على عدد الجثث الأساسي بغيةَ تأكيد الحقّ في المكافآت المادية والاجتماعية المستحقة للكفاءة والشجاعة في القتال. من هنا ندرك التقليد الواسع الانتشار لإعادة الرؤوس والجماجم والأصابع وأجزاء أخرى من الجسم بدلًا من إحضار الأسير الحي.

حين يُصطحب الأسير إلى القرية، تتوقف المعاملة التي يمكنه أن يتوقعها تتوقف بشكل كبير على كفاءة مضيفيه على استيعاب العمل الدنيء وترتيبه، يكمن الفرق الحاسم بين الأنظمة السياسية ما قبل الدولة وما بعدها. فعندما يكون الأسرى قليلي العدد ومتباعدين، فإن معاملتهم كضيوف شرف ليست مدعاةً للدهشة. فمهما تكن وجهات النظر السيكولوجية العميقة التي يمكن أن توجد في عقول المعتقلين متباينة، يبقى الأسير ملكية ثمينة؛ فمن أجله جازف مضيفوه بحياتهم بكل معنى الكلمة. مع ذلك ليس من طريقة تجعله يندمج في الجماعة؛ وبما أنه لا يمكن إرساله إلى العدو، فلا بد والحال هذه أن يقتل. وللتعذيب نظامه الرهيب الخاص. فإذا كنت ستعذّب، كما يقال، فستموت ألف ميتة، إذًا فلتعذب أسيرًا مسكينًا واحدًا لأن هذا يعني أنك تقتل ألفًا من الأعداء. التعذيب هو أيضًا عرض - تسلية - اختُبِر عبر الزمن ولاقى استحسان جمهور المشاهدين على مرّ العصور. فلا نيّة لديّ في الجزم أن الاستمتاع برؤية الناس يضربون ويحرقون ويمزقون هو جزء من الطبيعة البشرية. ولكنه جزء من الطبيعة البشرية أن يعير المرء انتباهًا منتشيًا للمشاهد والأصوات غير الاعتيادية مثل تفجر الدم من الجروح والصراخ الحاد والعويل. (وحتى في تلك اللحظات، يولي كثيرون منا ظهورهم رعبًا).

مرة أخرى، ليس القصد أننا نستمتع فطريًا بمشاهدة شخص آخر يتألم، بل إن لدينا الإمكان للاستمتاع بذلك. إن إدراك هذا الإمكان كان مهمًا بالنسبة إلى مجتَمَعَي تيوبينامبا وهورون. لقد كانا مجتمَعين لقّنا شبابهما أن يكونوا قساة عديمي الرحمة تجاه أعدائهم في ساحة المعركة. مثل هذه الدروس تُكتسب عن طيب خاطر أكثر عندما تدرك أن العدو سيفعل بك ما فعلت به فيما لو وقعت بين يديه. أضف إلى قيمة الأسير جسدَه الحي، وهو ماثل أمام المحاربين في التدريب كالجثث أمام الأطباء. تاليًا سنأتي على ذكر طقوس القتل - التضحية لإرضاء الآلهة، والجلادين بمعدّاتهم المقدسة، والإمساك عن الاتصال الجنسي. كي نفهم هذا كله يعني أن نفهم أن الحرب في المجتمعات القروية والجماعات هي قتل طقسي، بغض النظر عما إذا كان العدو قد قتل على أرض المعركة أو في الوطن. فقبل الخروج إلى المعركة، يدهن المحاربون ويزينون أنفسهم، ويتضرعون إلى الأسلاف، ويتناولون عقاقير مخدرة ليتصلوا مع الأرواح الحارسة، ويقوون أسلحتهم بقراءات سحرية. فالأعداء المذبوحون في ساحة القتال هم «أضاحٍ» في ضوء ما يُقال في أن موتهم هو لإرضاء الأسلاف أو آلهة الحرب، تمامًا كما يقّال إن الأسلاف وآلهة الحرب يرضون بتعذيب الأسير وبموته. في النهاية، هناك سؤال حول أكل لحم البشر؛ السؤال الذي، عندما يسأل، يكشف بنفسه سوء فهم السائل العميق. يمكن البشر أن يتعلموا أن يستسيغوا طعم اللحم البشري أو لا يستسيغوه، تمامًا كما يمكنهم أن يبتهجوا بالتعذيب أو يرتعدوا منه. الواضح أن هناك ظروفًا عدة يمكن في ظلها أن يكون الميل المكتسب للحم البشري مدمجًا في النظام التحريضي الذي يثير المجتمعات البشرية للمضي إلى الحروب. علاوة على ذلك، يعني أكل العدو حرفيًا أن تستمد القوة من هلاكه. إذًا، إن ما يجب تفسيره، بناء على ذلك، هو لماذا لا تحجم الثقافات التي ليس لديها رادع لقتل الأعداء عن أكله. ولعلّ ذلك لغز لسنا مهيئين بعد لمواجهته.

إذا كان هذا الاستطراد في التكاليف العسكرية بما هو تفسير لمركّب التعذيب - التضحية - أكل لحم البشر يبدو ميكانيكيًا جدًا، فلأوضح أنني لا أنكر وجود دوافع نفسية مترددة كتلك المتولدة عن الحالة الأوديبية في المجتمعات العسكرية الذكورية. إنني آخذ في الاعتبار أن الحرب تُنتج مشاعر متناقضة وأنها

تعني إلى المنخرطين فيها أشياء عدة متباينة في وقت واحد. ولا أنكر أن أكل لحم البشر يمكن أن يعبر عن كلا الحب والكره تجاه الضحية. ما أرفضه رفضًا قاطعًا هو وجهة النظر القائلة بأنه يمكن لنماذج معينة من العدوانية بين الجماعات أن تُفسر بعناصر نفسية متناقضة وغامضة استُخلصت بجرأة من ضغوط بيئية وإنجابية استحثت البشر على وضع الحرب في المقام الأول.

بالعودة إلى الأزتك، يمكننا أن نرى أن الإسهام الذي تفرّد به معتقدهم لم يكن في إدخال التضحية بالبشر، بل التوسع نحو سبل تدميرية محددة. الجدير بالذكر، أن الأزتك حولوا التضحية بالبشر من حصيلة ثانوية عرَضية للحظ في ساحة المعركة إلى نمط متكرر حيث لم يكن ليمر يوم من دون أن يكون هناك أحد منفرِش الأذرع والأرجل على مذابح المعابد العظيمة كمعابد يوتيزيلوبوتشلي وتلالوك. كما كانت تقدَّم الأضاحي في عشرات من المعابد الأقل شأنًا التي ينحدر تصنيفها إلى ما يسمى دُور عبادة مجاورة. إحدى هذه الدُّور المجاورة – ذات البناء المنخفض، الدائري، مسطح القمة بقطر يبلغ نحو عشرين قدمًا – اكتُشفت خلال بناء نفق مدينة مكسيكو، لا تزال تنهض الآن، محميةً خلف الزجاج، في واحدة من أكثر المحطات ازدحامًا. ومن أجل إضاءة سريعة للمسافرين الذين يمرون به يوميًا، هناك لافتة مرفقة تشير فقط إلى أن المكسيكيين القدماء كانوا «متدينين للغاية».

بما أن جيوش الأزتك كانت أكبر آلاف المرات من جيوش الهورون وتيوبينامبا، فقد كان بإمكانهم اعتقال آلاف الأسرى في معركة واحدة. إضافة إلى التضحيات اليومية لأعداد صغيرة من الأسرى والعبيد في أضرحة رئيسة وثانوية، يمكن أن تقام علاوة على ذلك، تضحيات ضخمة تتضمن مئات وآلاف الضحايا للاحتفال بمناسبات خاصة. روي للمؤرخين الإسبان، على سبيل المثال، أن في عام 1487 في تدشين هرم تينوشتيتلان العظيم إن أربعة صفوف من الأسرى على امتداد ميلين لكل صف منها ضحى بها فريق من الجلادين عملوا ليل نهار أربعة أيام متوالية، بإفراد دقيقتين لكل أضحية، وقدر المؤرخ والديموغرافي شيربورن كوك أن عدد الضحايا في تلك المناسبة وحدها بلغ 14,100. يمكن صرف النظر عن عدد هذه الطقوس باعتباره مبالغًا به، لكن الأمر لم يكن كذلك إذا أخذنا في

الاعتبار معاينة كلّ من برنال دياز (Bernal Díaz) وأندريه دي تابيا (Andrés de Tápia) لصفوف الجماجم البشرية سهلة الإحصاء التي رُصّت بشكل منظم في ساحات مدن الأزتك. يكتب دياز أن في ساحة سوكوتلان:

> كانت هناك أكوام من الجماجم البشرية مرتبة بشكل شديد التنظيم حيث يمكن المرء أن يحصيها، وقد قدّرتها بأكثر من مئة ألف.
>
> أكرر مجددًا أنها كانت أكثر من مئة ألف جمجمة.

لدى معاينته حمالة الجماجم الضخمة في وسط تينوشتيتلان، كتب تابيا:

> كانت الصفوف مفصولة بعضها عن بعضها الآخر بمقدار أقل بقليل من فارا (ما يقارب مقدار ياردة)، ومرصوصة بقضبان متقاطعة من القمة إلى الأسفل، وعلى كل قضيب متقاطع في كل معبد كان هناك خمس جماجم معلقة على أسياخ اخترقت صدغيّ كل ضحية: وقد أحصى الكاتب مع غونزالو دي أومبريا (Gonzalo de Umbría) الموثوق، عدد القضبان المتصالبة وأجريا عملية ضرب بخمسة رؤوس لمجموع القضبان المتقاطعة من الطرف إلى الطرف، فكان الناتج أن هناك 136 ألف رأس، كما قلت.

ولكن ذلك ليس كل شيء. إذ يصف تابيا برجين عاليين صُنعا بالكامل من الجماجم الملصَقة بالجير واحتوى على عددٍ لا يحصى من عظام الرؤوس والفكوك.

بسبب الكمِّ المهول لهذا الذبح، تُصنفُ التفاسير التقليدية الأزتك كشعب مهووس بفكرة أن آلهته بحاجة إلى شرب دم البشر، بذلك مضى بكل إيمان يشن الحروب كي يؤدي هذا الواجب المقدس. وبكلمات جاك سوستيل (Jacques Soustelle):

> من أين تأتي ضحايا جديدة إذًا؟ فهم ضروريون لتأمين الغذاء للآلهة... أين استطاع المرء أن يجد الدم النفيس والذي من دونه لكانت الشمس وكل ما في الكون بأسره محكومًا بالهلاك. من الضرورة البقاء في حالة حرب... لم تكن الحرب مجرد أداة سياسية: لقد كانت علاوة على ذلك كله شعيرة دينية، حربَ قداسة.

لكن الحروب المقدسة بين الدول سهلة ورخيصة. فاليهود والمسيحيون والمسلمون والهندوس واليونانيون والفراعنة والصينيون والرومان؛ الجميع مضوا إلى الحرب لإرضاء آلهتهم أو لتنفيذ مشيئة الإله. وحدهم الأزتك شعروا بأن من القداسة المضي إلى الحرب للتزود بأعداد ضخمة من الأضاحي البشرية. وفي حين قامت الدول القديمة، وتلك غير الموغلة بالقدم بسفك الدماء وتقطيع البشر، فإن أيًا منها لم يقم بذلك بذريعة أن للحكام السماويين رغبة لا تُكبح في شرب دم البشر. (كما سنرى لاحقًا، ليست مجرد مصادفة أن آلهة كثير من دول العالم القديم كانت تشرب الميد[5] أو الرحيق، وتأكل الشمام، أو تعير أي اهتمام لمصدر وجبتها التالية). كان الأزتك مصممين للغاية على العودة بالأسرى كي يُضحوا بهم حيث إنهم مرارًا وتكرارًا كانوا يحجّمون تفوقهم العسكري مخافةَ أن يقتلوا عددًا كبيرًا من جند العدو قبل أن يتم تدبير إجراءات استسلامه. هذا التكتيك كلفهم غاليًا في اشتباكاتهم مع جند كورتيز، الذي بدا من وجهة نظر الأزتك أنه كان مصممًا بشكل يفتقر إلى الحكمة على قتل كل من تقع عليه أنظاره.

كان شيربورن كوك أول أنثروبولوجي معاصر تنصّل من النهج المغرق بانفعاليته للغز تضحية الأزتك: «مهما كان قويًا، ليس ثمة دافع ديني محض يستطيع أن يحافظ على نفسه بنجاح طوال أي حقبة زمنية أساسية في مواجهة مقاومة اقتصادية بنيوية». افترض كوك أن حرب الأزتك وتضحياتهم كانت جزءًا من نظام لضبط النمو السكاني. وضع نصب عينيه أن الأثر المركَّب لقتلى الحروب والأضحيات تؤدي إلى ارتفاع يقدر بـ 25 في المئة في معدل الوفيات. بما أن «التعداد السكاني كان يبلغ الحدّ الأعلى من التوافق مع سبل العيش... فإن تأثير الحرب والأضحيات سيكون فاعلًا إلى حد كبير في ضبط الزيادة المفرطة في التعداد». شكلت هذه النظرية تطورًا عن سابقاتها، ولكن خللًا كان يشوب لبَّها بشكل واضح. لم يكن بإمكان الأزتك التحكم بتعداد السكان في وادي المكسيك من خلال الحرب وتقديم الأضحيات البشرية. بما أن جميع الوفيات القتالية تقريبًا والضحايا المضحى بهم من الذكور، فإن مقدار 25 في المئة من

(5) شراب مخمر من الماء والعسل والخميرة والحبوب المنقوعة. (المترجم)

ارتفاع معدلات الوفاة يشير فقط إلى الذكور ويمكن معادلته بارتفاع 25 في المئة من معدل الولادات. لو كان الأزتك يتعمدون منهجيًا تقليص معدل نمو السكان، لكانوا ركزوا على التضحية بالفتيات العذراوات بدلًا من الرجال البالغين. أضف إلى ذلك، حتى لو كانت وظيفة الأضحيات هي التحكم بالتعداد السكاني، فلماذا لمْ يقم الأزتك ببساطة بقتل أعدائهم في أثناء المعركة كما تجد الجيوش الضخمة في بقاع أخرى من العالم أن ذلك أنسب ما يمكن القيام به؟ فشل تفسير كوك في أن يصيب خصوصية ممارسة أميركا الوسطى؛ في أن يفسر لِمَ وجب تنفيذ الذبح في قمة الهرم بدلًا من ساحة القتال.

ينتهي الوصف التقليدي لطقس الأزتك في التضحية بجسد الضحية وهو يتدحرج باتجاه قاعدة الهرم، وأعمته صورة القلب الذي لا يزال ينبض وهو مرفوع عاليًا بين يدي الكاهن، يمكن المرء أن يغفل بسهولة عن السؤال عما حلّ بالجسد عندما يستقر أسفل الأدراج. سعى مايكل هارنر (Michael Harner) من المدرسة الجديدة[6] وراء هذا السؤال بذكاء وشجاعة فاقتا الجميع. وسأعتمد في باقي هذا الفصل بشكل كبير على عمله. فهو دون سواه صاحب الفضل في حل أحجية أضاحي الأزتك.

كما يوضح هارنر، أن لا غموض حقيقيًا يكتنف مسألة ما سيحدث للجثث بما أن جميع التقارير العيانية متوافقة جوهريًا. يفترض على كلّ من لديه دراية بكيفية تخلّص الهورون والتيوبينامبا ومجتمعات قروية أخرى من ضحاياها أن يكون قادرًا على بلوغ الاستنتاج ذاته: الضحايا كانت تؤكل. إن وصف برناردينو دي ساهاغون يترك مجالًا ضئيلًا للشك:

> بعد أن انتزعوا قلوبهم منهم وسكبوا الدم في وعاء من اليقطين، والذي تلقاه سيد الذبح بنفسه، بدأوا بدحرجة الجسد على أدراج الهرم. استقرّ على مربع صغير في الأسفل. هناك بعض الرجال العجائز، والذين يدعونهم كواكواكولتين، أمسكوا به وحملوه إلى معبد قبيلتهم حيث سيقطعونه ويقسمونه كي يأكلوه.

---

(6) إحدى جامعات نيويورك. (المترجم)

أوضح ساهاغون النقطة تكرارًا:

> بعد أن ذبحوهم وانتزعوا قلوبهم، أخذوهم بعيدًا بلطف، دحرجوهم حتى أسفل السلالم. عندما وصلوا إلى الأسفل، قطعوا رؤوسهم وأولجوا قضيبًا فيهم، وحملوا الأجساد إلى البيوت التي تدعى كالبولي، حيث قسموهم كي يأكلوهم.
>
> ... وأخرجوا قلوبهم واقتلعوا رؤوسهم. ولاحقًا قسموا كل الجسد بينهم وأكلوه...

يقدم لنا دييغو دوران وصفًا مشابهًا:

> ما إن يُنتشل القلب حتى يقدَّم إلى الشمس ويُذرّ الدم نحو المعبود الشمسي. وبالتوازي مع هبوط الشمس باتجاه الغرب كانت الجثة تتداعى للأسفل على سلالم الهرم. بعد التضحية يترأس المحاربون مأدبة عظيمة بكثير من الرقص والاحتفال الشعائري وأكل لحم البشر.

توضح هذه التوصيفات عددًا من النقاط حول مركب الحرب – الأضحية – أكل لحم البشر عند الأزتك. يشير هارنر إلى أن كل أسير له مالك؛ ربما (القائد) العسكري المسؤول عن الجنود الذين قاموا فعليًا بالأسر. عندما يحضر الأسير إلى تينوشتيتلان، يتم إسكانه في رقعة المالك السكنية. نعلم قدرًا ضئيلًا عن المدة التي يبقى فيها هناك أو كيف يُعامل، ولكن يمكن المرء أن يخمن أنه يُطعم فطائر الذرة للحيلولة دون فقدانه وزنه. حتى إنه يبدو من المحتمل أن القائد العسكري القوي كان يحتفظ لديه بعدد كبير من الأسرى، ويسمنهم تحضيرًا لأيام ولائم خاصة أو مناسبات عائلية مهمة كالولادة أو الوفاة أو الزواج. عندما يحين موعد تقديم الأضحية، ربما يتم تعذيب الأسرى من أجل تعليم أو تسلية عائلة المالك وجيرانه. في يوم التضحية، كان المالك وجنده من دون شك يواكبون الأسير إلى أسفل الهرم ليشاهدوا الإجراءات بمشاركة آخرين من أصحاب المقامات الرفيعة والذين سيُضحى بأسراهم في اليوم ذاته. بعد أن يُنتزع القلب، لم يكن الجسد يدحرج على السلالم كثيرًا بقدر ما كان يدفعه الحاضرون نحو الأسفل، بما أن السلالم لم تكن منحدرة ما يكفي لإبقاء الجسد يتقلّب المسافةَ بين القمة والأسفل

من دون توقف. كان الرجال المسنون، الذين يشير إليهم ساهاغون بالتسمية كواكوكيلتين، يطالبون بالجسد ويعيدونه إلى مسكن المالك، حيث يقطعونه ويحضرون الأعضاء للطبخ؛ الوصفة المفضلة هي الطهو البطيء مع منكهات الفلفل والطماطم. يقول ساهاغون إنهم يضعون «أزهار اليقطين» في اللحم. ويضيف بأن دم الضحية كان يجمعه الكهنة في قربةٍ يقطين ويقدم إلى المالك. نعلم أن القلب كان يوضع في مجمرة ويحرق مع بخور الكوبال، ولكن الأمر يبقى غامضًا فيما إذا كان يحرق حتى الترمد أم لا. ثمة أيضًا سؤال يتعلق بالجذع وأعضائه والرأس ودماغه. في النهاية، ينتهي الأمر بالجمجمة إلى أن تُعرض على واحد من الحمالات التي وصفها أندريه دي تابيا وبرنال دياز. ولكن بما أن معظم أكلة لحوم البشر تنكِّه الأدمغة، يمكننا أن نفترض أن الأخيرة تُزال - ربما من الكهنة أو المتفرجين - قبل أن تنتهي الجماجم إلى العرض. بشكل مشابه، على الرغم من أنه بحسب دياز فإن الجذع كان يقذف إلى الثدييات اللاحمة، والطيور والأفاعي المحتجزة في حديقة الحيوان الملكية، أشك في أن عددًا كبيرًا من مسؤولي الحديقة - يقول تابيا - كانوا يزيلون أولًا معظم اللحم قبل ذلك.

كنت أتتبع مصير جسد الضحية كي أثبت فكرة أن أكل لحوم البشر عند الأزتك لم يكن تذوقًا روتينيًا لطعام احتفالي شهي. كل الأجزاء الصالحة للأكل كانت تستعمل في حالة قابلة تمامًا للمقارنة باستهلاك لحم الحيوانات الداجنة. يمكن أن يوصف الكهنة الأزتك شرعًا بأنهم جزارون طقسيون ضمن نظام الدولة معَدُّون لإنتاج وإعادة توزيع الكميات الأساسية للبروتين الحيواني من خلال لحم البشر. بالطبع، للكهنة واجبات أخرى، ولكن ليس لأيٍّ منهم أهمية وظيفية تتجاوز القتل.

إن الظروف التي أدت إلى نهوض مملكة آكلي لحوم البشر تستحق الدراسة الدقيقة. في أماكن أخرى، ساهم نهوض الدول والإمبراطوريات في تدمير النماذج القديمة للتضحية بالبشر وأكل لحمها. وعلى عكس آلهة الأزتك، حرّمتْ الآلهة العليا للعالم القديم استهلاك اللحم البشري. فلماذا في أميركا الوسطى دون سواها شجعتْ الآلهة أكل لحوم البشر؟ كما يفترض هارنر، يجب أن نبحث عن

الجواب في الاستنزافات واضحة المعالم للنظام البيئي في أميركا الوسطى تحت تأثير قرون النمو وتصاعد التعداد السكاني بالتوازي مع تكاليف/ منافع استخدام اللحم البشري كمصدر للبروتين الحيواني مع واقعِ تَوفرُّ خيارات أرخص.

كما قلت سابقًا، تُركت أميركا الوسطى في نهاية العصر الجليدي في ظرف أكثر استنزافًا من أي منطقة أخرى في ما يتعلق بالمصادر الحيوانية. إن النمو الثابت للسكان وتكثيف الإنتاج تحت التأثير الإداري القسري لإمبراطوريات المرتفعات الكلاسيكية أسقطَ عمليًا لحم الحيوان من النظام الغذائي للناس العاديين. واستمرت الطبقة الحاكمة وخدمها بشكل طبيعي في الاستمتاع بالأطعمة الشهية كالكلاب والديوك الرومية والبط والدببة والأرانب والأسماك. لكن، وكما يشير هارنر، فإن طعام العامة – على الرغم من توسع زراعة الشينامبا؛ كان عادة ما يقتصر على الطحالب التي تُكشط عن سطح بحيرة تيكزوكو. وبينما كانت الذرة والفاصولياء بكميات وفيرة كفيلةً بتأمين جميع الحموض الأمينية الأساسية، كان شُحَّ الإنتاج المتواتر على مدار القرن الخامس عشر يعني خفض حصص البروتين بشكل متكرر إلى مستويات تبرر بيولوجيًا التوق الـمُلِحّ إلى اللحوم. أضف إلى ذلك، كانت الدهون من جميع الأنواع على مدار العام محدودة التوافر.

هل يمكن لإعادة توزيع اللحوم من الضحايا المضحى بهم أن يكون بالفعل قد أضاف تحسّنًا ملحوظًا إلى مكونات البروتين والدهون في النظام الغذائي عند أمة الأزتك؟ لو أن سكان وادي المكسيك كانوا مليونَي نسمة وكان عدد الأسرى المتوافر لإعادة التوزيع في السنة يبلغ فقط 15,000 أسيرًا، فالجواب هو لا. لكن ثمة خلل في السؤال. فالمسألة يجب ألا تكون كم أسهمتْ إعادة توزيع لحم البشر هذه في صحة وقوة المواطن العادي ولكن كم خضعتْ تكلفة/ مكاسب التحكم السياسي لتحول مرغوب فيه نتيجة لاستخدام اللحم البشري كمكافأة لمجموعات مختارة في فترات عصيبة. لو أن إصبع يد أو قدم تأتي عرضيًا كان كلًّ ما يمكن للمرء توقعه، لكان من المحتمل تخرّب النظام. ولكن لو أن اللحم كان يقدم في رزم مكثفة إلى النبلاء والجنود وخدمهم، وإذا كان الإمداد متزامنًا مع ما يوازيه من العجز في الدورة الزراعية، فإن مكافأة موكتيزوما والطبقة الحاكمة قد تكون

كافية لدرء انهيار سياسي. إذا كان هذا التحليل صحيحًا، فعلينا أن نأخذ في الاعتبار المحتوى العكسي، أي إن لتوافر أنواع من الحيوانات الداجنة دور مهم في تحريم أكل لحوم البشر، وبالتالي تطور أديان الحب والرحمة في دول وإمبراطوريات العالم القديم. وربما يتوضح في النهاية، أن المسيحية كانت نعمة الحمل في المعلف أكثر منها نعمة الطفل الذي ولد فيه.

المراجع والملاحظات

يستحق مايكل هارنر وحده الاعتراف بالفضل (أو اللوم) لاكتشاف (أو إعادة اكتشاف) أكلة الحوم البشر الأزتيك وللتفسير الذي أقدمه عن نزعة أكل لحوم البشر عند الأزتيك في هذا الفصل. يُنظر: Michael Harner: «The Material Basis for Aztec Sacrifice,» Paper read at the Annual Meeting of the American Anthropological Association, San Francisco, 1975; «The Ecological Basis for Aztec Sacrifice,» *American Ethnologist* (in press); *Article in Natural History Magazine* (in press).

مع ذلك مررتُ بالمصادر الأولية، وخاصةً: Bernal Díaz, *The Discovery and Conquest of Mexico 1517-1521* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1956), pp. 217-220; Bernardino de Sahagun (1950, pp. 4, 589); Diego Duran, *The Aztecs: The Hstory of the Indies of New Spain* (New York: Orion, 1964), p. 121. Andrés de Tapiá, «Relación Hecha por el Senor Andrés de Tapiá sobre la Conquista de Mexico,» in: J. G. Icozbalceta (ed.), *Colecci6n de Documentos para la Historia de Mexico* (Nendeln, Liechtenstein: Kraus reprint, 1971).

لآكلي القلوب في..... ينظر: Raymond Scheele, «Warfare of the Iroquois and Their Northern Neighbors,» PhD dissertation, Columbia University, 1950, p. 101.

لآكلي لحوم البشر ما قبل كولومبوس يُنظر: Lynn Flinn, C. Turner & A. Brew, «Additional Evidence for Cannibalism in the Southwest: The Case of LA 4528,» *American Antiquity*, vol. 41 (1976), pp. 308-318.

لملخص تقرير ستادن يُنظر: Alfred Metraux, «Tribes of the Middle and Upper Amazon River,» in: J. H. Steward (ed.), *Handbook of South American Indians* (Washington, DC: Bureau of American Ethnology Bulletin, 1945), vol. 143, no. 3.

كانت الإرسالية اليسوعية هي Le Mercier في: Reuben Thwaites, *The Jesuit Relations and Allied Documents* (New York: Pageant Book Co, 1959; [1637]), vol. 13, pp. 59-79.

يُنظر: Eli Sagan, *Human Aggression, Cannibalism, and Cultural Form* (New York: Harper & Row, 1974).

لمعرفة مدى القوة في اللحم البشري يُنظر: Mark Dornstreich & G. Morren, «Does New Guinea Cannibalism Have Nutritional Value?,» *Human Ecology*, vol. 2 (1974), pp. 1-12.

يُنظر: Sherburne Cook, «Human Sacrifice and Warfare as Factors in the Demography of Pre-Colonial Mexico,» *Human Biology*, vol. 18 (1946), pp. 81-102; Díaz, *The Discovery and Conquest*, p. 119; De Tapia, «Relación Hecha,» p. 583; Jacques Soustelle, *Daily Life of the Aztecs on the Eve of the Spanish Conquest* (Stanford: Stanford University Press, 1962), p. 101; Cook, «Human Sacrifice,» p. 283; Bernardino de Sahagun (1950), pp. 24, 29; Diego Durán, *The Aztecs: The History of the Indies of New Spain* (New York: Orion, 1964), p. 122.

10

حَمَلُ الرحمة

أرجو ألا أكون قد ولّدتُ انطباعًا بأن التضحية بأسرى الحرب وأكلهم كانا سمة خاصة بالهندوأميركيين. فقبل أمدٍ قريب، ما بين الخمسين والمئة عام، كانت التضحية بأسرى الحرب وتوزيع لحمهم ممارسة شائعة على نطاق ضيق في مئاتٍ من مجتمعات ما قبل الدولة المنتشرة عبر أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وفي جنوب شرق آسيا وماليزيا وإندونيسيا وأوقيانوسيا. ثمة ما يدفعني إلى الاعتقاد، في أي حال، أن أكل لحم البشر لم يكن له يومًا شأن في الولائم التي يتم فيها التوزيع وسطَ الثقافات التي تسبق مباشرة صعود الدول في بلاد ما بين النهرين ومصر والهند والصين وأوروبا.

كان البشر يُقدمون قرابين طقوسية في هذه المناطق كلها، لكنهم نادرًا ما كانوا يؤكلون. وتؤكد مصادر رومانية يُعتدّ بها - يوليوس قيصر، تاسيتوس، وبلوتارخوس - أن التضحية بأسرى الحرب كانت أمرًا مألوفًا في أوساط ما يسمى بالأمم «البربرية» على أطراف العالم الروماني - الإغريقي. وقد اعتبر إغريقُ ورومانُ العصور الكلاسيكية المتأخرة أي نوع من التضحية بالبشر عملًا لاأخلاقيًا، وكان يكدرهم أن ضرورة حرمان الجنود الشرفاء من حيواتهم خصوصًا لأجل فرق دينية من شعوب «غير متحضرة» مثل البريتون والغال والسلت والتيتانيين. وفي أي حال، لم يكن الإغريق أنفسهم، في زمن هوميروس، ينفرون من قتل أعداد صغيرة من الأسرى لنيل الحظوة عند الآلهة. ففي حرب طروادة، على سبيل

المثال، وضع البطل أخيل اثني عشر طرواديًا أُمسك بهم على محرقة الأموات الخاصة برفيق سلاحه، باتروكولوس. وبعد ذلك، في فترة المعركة البحرية العظيمة سالاميس في عام 480 ق. م بين الإغريق والفرس، أمر تيمستوكلس، قائد القوات المسلحة الإغريقية، بالتضحية بثلاثة أسير فارسي لإثبات النصر. كما مارس الرومان التضحية بالبشر في فترة ما. ففي نحو عام 226 ق. م دُفِنَ فردان من الغال واثنان من الإغريق أحياءً للحيلولة دون تحقق نبوءة تقول إن الإغريق والغاليين سيقومون قريبًا باحتلال مدينة روما. وقد حصلت حوادث مشابهة في عامي 216 و104 ق. م.

كان الجنود الرومان المتمرسون واهنين بعد مواجهاتهم الأولى مع السلت، الذين كثيرًا ما مضوا إلى المعركة، وهم يتلفظون بتراتيل سحرية، ويهجمون عراة تمامًا في الثلج على الخطوط الرومانية. ومع وجود فرقة دينية سلتية لـ «الرؤوس المقطوعة» في العصر الحديدي ما قبل الروماني تبرهن أوروبا بوضوح أن السود والهنود لم يكونوا الأميركيين الوحيدين المعاصرين الذين يتحدرون من جزّازي رؤوس الأعداء. كان المحاربون السلتيون يضعون رؤوس أعدائهم الحديثة القطع على مركباتهم ويعيدونها إلى بيوتهم كي يعلقوها على رافدات المنازل. وفي جنوب فرنسا كان السلت يعرضون الجماجم في فتحات تُحفر في كتَل صخرية متراصة. كانت الجماجم تُزين الحصون السلتية الهضبية ومداخل القرى والمدن. وفيما إذا كانت هذه الجماجم من مخلفات الضحايا القربانية أم لا فهذا أمر يبقى مجهولًا. ما هو معروف أن التضحية بالبشر كانت جزءًا مهمًا من الطقس السلتي، وأنها كانت تنفذ تحت إشراف الطبقة الكهنوتية التي تدعى الدرويديين. كان السلت يفضلون إحراق البشر، ولهذا الغرض كانوا يلفون سلالًا مصنوعة من الخيزران بالحجم الطبيعي حول الأسير ويلقون به في النار. في حوادث أخرى كانت تنتزع أحشاء الضحية أو كانت الضحية تطعن في الظهر حتى يتمكن الدرويديون من التكهن بالمستقبل من خلال حالة الأحشاء المدلوقة أو من وضعية الأطراف عندما يتوقف التلوي الناجم عن الألم.

يروي هيرودوتس أن أمةً بربرية أخرى ذائعة الصيت من جزّازي الرؤوس، هي السكوثيين (Scythians)، عاشت في الدانوب الأدنى وعلى شواطئ البحر

الأسود، كانت تضحي بشكل منتظم بأسير من كل مئة أسير يأخذونه من ساحة القتال. وفي بلاد ما بين النهرين قديمًا، بحسب إيغناس غيلب (Ignace Gelb) من جامعة شيكاغو، كان يضحى بالأسرى في المعابد. ويشير نقش من لاغاش (Lagash) دُوِّن حوالى عام 2500 ق. م إلى آلاف جثث الأعداء المكدسة في أكوام ضخمة. ويقول غيلب أيضًا إن «أسرى الحرب كثيرًا ما كان يضحى بهم» في الصين القديمة.

كما تظهر القصة في الكتاب المقدس عن إبراهيم وابنه إسحق، من الواضح أن إمكانية التضحية بالبشر كانت كثيرًا ما تجول في ذهن الإسرائيليين القدامى. ويخيل لإبراهيم أنه يسمع الربَّ يطلب منه أن يقتل ابنه، الذي أنقذه في اللحظة الأخيرة ملاك طيب. عندما أعاد حيئيل البيتئيلي بناء أريحا، «بِأَبِيرَامَ بِكْرِهِ وَضَعَ أَسَاسَهَا، وَبِسَجُوبَ صَغِيرِهِ نَصَبَ أَبْوَابَهَا، حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ»(1).

تكشف النصوص البرهمانية القديمة أيضًا اهتمامًا متواصلًا بالتضحية بالبشر. فتحمل إلهة الموت، كالي، شبهًا بيِّنًا بآلهة الأزتك المتعطشة للدماء. وتوصف في كاليكا بورانا – الكتاب المقدس لكالي – بهيئة قبيحة مكللة بعصابة من الجماجم البشرية، وملطخة بالدم البشري، وتحمل جمجمة في يد وسيفًا في الأخرى. وثمة تعليمات مفصلة تعطى عن الوضعية التي يجب أن تقتل فيها الضحايا البشرية:

> بعد وضع الضحية أمام الإلهة، ينبغي على المتعبد أن يوقرها من خلال تقديم الزهور، وصمغ الصندل، واللحاء، مكررًا بانتظام المانترا(2) المناسبة للقربان. بعدها، يواجه الشمال ويضع الضحية لتواجه الشرق، عليه أن ينظر إلى الخلف ويكرر هذه المانترا: «أوه أيها الإنسان، حظي الطيب أظهرك لي ضحية، فسلامي لك... ينبغي أن أذبحك اليوم، والذبح كقربان ما هو بقتل». وهكذا يصلي على تلك الضحية البشرية، ينبغي أن ترمى على رأسه زهرة مع المانترا: «اوم، ايم،

---

(1) سفر الملوك الأول 16: 34. (المترجم)

(2) المانترا: صيغة مقدسة تتلى في الصلاة البرهمية. (المترجم)

هرويه، سرويه». بعدها، وبينما يفكر المرء بأمنياته، ويشير إلى الإلهة، يسكب الماء على الضحية. والآن يُقدَّس السيف بالمانترا: «أوه أيها السيف، أنت لسان شانديكا...»[3]. السيف، وقد تقدّس، يرفع مع تكرار المانترا: «أَمْ هُمْ فات»، ثم تُذبح به الضحية المصطفاة.

ربما كانت أكثر النماذج الثابتة للتضحية بالبشر الموجودة بين دول العالم القديم وإمبراطورياته هي ذبح الزوجات والحاشية في جنازات الملوك والأباطرة. كان السكوثيون، على سبيل المثال، يقتلون جميع الطباخين الملكيين وسائسي الخيل وكبار الخدم. كانت أصائلُ خيول الملك تقتل أيضًا، وكذلك شبان سيمتطونها في الحياة الأخرى. وجدت آثار من القرابين من الخدم في قبور مصرية في أبيدوس وفي قبور ملكية سومرية في أور. للتضحية بالخدم الملكيين وظيفة مزدوجة. فالملك يحتاج أن يصطحب معه حاشيته بعد الموت كي يتمتع بنمط العيش الذي نشأ معتادًا عليه خلال حياته. بمعنى أكثر دنيوية، ينحو القتل الملزم لزوجات الحاكم، والخدم والحراس باتجاه تأكيد أن الأقربين يهتمون لحياته بقدر ما يهتمون لحياتهم، ومن هنا لن يتآمروا ضد حكمه أو يتهاونوا تجاه أدنى تهديد لسلامته. ولعلّ الصينيين خلال النصف الأخير من الألفية الثانية قبل الميلاد نفّذوا أوسع تضحية بالخدم. آلاف الناس كانوا يقتلون في كل جنازة ملكية. هذه الممارسة، إلى جانب التضحية بأسرى الحرب، منعت في عهود سلالة شوو (1023–257 ق. م). وخلال حكم سلالة شين كانت تستبدل بالبشر والحيوانات التماثيلُ الفخارية. عند موت شين شيه هونغ تي الحاكم الأول للصين الموحدة في عام 210 ق. م، دُفن 6000 نصب مصنوع من السيراميك بالحجم الطبيعي لجنود بأسلحتهم وجياد وفرسان في قاعة سرية تقدر مساحتها بمساحة ملعب كرة قدم تجاور قبر الإمبراطور.

ما يتضح من خلال هذا المسح السريع للتضحية الشعائرية بالبشر في المناطق التي تربطها قرابة دم في العالم القديم خلال مرحلة تشكيل الدولة هو

(3) شانديكا: هي الربة الأعلى في ديفي ماهاتميا (النص الديني الذي يحكي قصة نصر هذه الربة على الشيطان). (المترجم)

عدم وجود أي صلة وثيقة بين التضحية بالبشر وأكل اللحم البشري. ولم يُعثر في أي مكان على أثر لنظام كان توزيع لحم البشر يشكل شغلًا رئيسًا لدولته أو فروعها العسكرية والإكليريكية. يقول بوسانياس[4] (Pausanias) من ليديا إن شعب الغال قام بأمر من كومبيوتس (Combutis) وأوريستوريوس (Orestorios) بقتل كل سكان كالياس (Callieas) الذكور، وشربِ دمائهم وأكل لحومهم. ولاحقًا كانت تطلق اتهامات مشابهة ضد التتار والمغول، ولكن هذه القصص تبدو بمجملها شبيهة بالحكايات عن الوحشية في الحروب أكثر من كونها وصفًا إثنوغرافيًا لفرق دينية آكلة لحوم بشر مثل الأزتك. ترتبط التقارير حول أكل لحوم البشر الواردة من مصر والهند والصين إما بتحضير أطباق غريبة للذواقة المتخمين من الطبقة الرفيعة وإما بالمجاعات، عندما كان البشر الفقراء يتغذون على بعضهم كي يبقوا أحياء. في أوروبا ما بعد الرومانية كان أكل لحوم البشر يعتبر جريمة فادحة حيث اعتُقد أن السحرة والمستذئبين ومصاصي الدماء واليهود هم من يرتكبونها فحسب.

من أوروبا إلى الصين كان يؤتى بالحيوانات لا البشر إلى المذابح، وتقديمها قرابين شعائرية، وتقطيعها وتوزيعها، ثم أكلها في ولائم جماعية. تحكي القصة البطولية الاسكندنافية عن هاكون الطيب (Hakon the Good)، على سبيل المثال، وصفًا لا لبس فيه للدور الذي تؤديه التضحية بالحيوان في التوزيع الذي كان يقوم به الملوك والأمراء السلتيين والتيتانيين.

> كان التقليد القديم يفرض أنه كلما كان هناك تضحية أتى كل من يدين بالولاء إلى البقعة التي يقع فيها المعبد، وجلبوا معهم كل ما يحتاجون إليه طوال احتفال تقديم الأضاحي. أحضر كل الرجال معهم شرابًا لهذا الاحتفال. ذُبحت كل أنواع الماشية، وكذلك الخيول... وطُهي اللحم حتى النضج لتقديمه إلى الحاضرين. كانت النار في وسط أرض المعبد، وفوقها قدور معلقة، كانت الأقداح المليئة تقدم فوق النار، وبارك من قام بالمأدبة، وكان رئيسًا، الأقداح المترعة، ولحم القرابين.

---

(4) جغرافي يوناني. (المترجم)

كان السخاء والتشاركية من الصفات الغالبة لهذه الطقوس، كما هو ملخص في أغنية شعبية من القرن التاسع عشر عن سيغورد (سيغفرايد في ألمانيا)، الذي تصوره القصص البطولية «كرجل كريم»:

لن يحتاجوا طبقًا أو كأسًا
هم ضيوفُ أكثرِهم سخاءً –
سيغورد المعطاء،
العظيم حسبًا ونسبًا...
يحب الآلهة،– يده السخية
تنثر العطايا على الأرض

وصَلَنا من تاسيتوس أن «التقليد يفرض على كل رجل قبيلة أن يقدم هدايا الزعامة إما من الماشية أو من جزء من محاصيله»، وأن الماشية «هي في الحقيقة الأكثر تثمينًا، التي يمتلكها الأثرياء وحدهم في واقع الأمر». وكما يوضح ستيوارت بيغوت (Stuart Piggott)، تبدأ الحكاية الإيرلندية القديمة، *Cattle-Raid of Cooley* **(إغارة القطيع في كولي)** بمشهد يتباهى فيه آليل (Alill)، زعيم كروشان، وزوجته ميدب (Medb)، بثروتهما، بادئَين بالمراجل الحديدية ليصلا إلى الزينات الذهبية والملابس ومجموعات الأغنام والخيول والخنازير حتى يصلا في النهاية إلى القمة؛ إلى قطيعِهما. بين الإيرلنديين القدامى، وكما بين الألمان والإغريق في زمن هوميروس واللاتينيين القدامى، كان قطيع الماشية المعيار الأكثر الأهمية لقياس الثروة ولذلك فإنه المادة الأكثر أهمية في ولائم التوزيع والتي يستند عليها تنظيم هذه الزعامات والدول البدائية.

كان الإغريق والرومان الكلاسيكيون مضحين بارزين أيضًا بالحيوانات في احتفالات دينية ومعابد عديدة مخصصة لحيوانات كانت مرتبطة بآلهتها. فالماعز، على سبيل المثال، كان يعتقد بأنها هدية مناسبة إلى باخوس، إله الكرمة، ربما لأنها تشكل خطرًا على كروم العنب. كانت بعض المدن الإغريقية تعامل الثيران بالطريقة التي كان يعامل بها الأزتك ممثلي آلهتهم؛ كانت تُزين بالأكاليل وتُسمن خلال السنة التي تسبق قتلها.

وكما يعلم كل قارئ للعهد القديم، كانت التضحية بالحيوان الشغلَ الشاغل للإسرائيليين القدامى. يضع سفر اللاويين قواعد مفصلة حول مكان وزمان وكيفية تقديم الحيوانات كقرابين. يشير سفر العدد أنه، خلال تدشين خيمة الاجتماع الأولى، تمت التضحية بـ 36 ثورًا، و144 من الأغنام والحملان، و72 من الماعز والجديان في 12 يومًا. وعندما انتقل الإسرائيليون من حالة الزعامة الرعوية إلى الدولة، توسع نطاق التوزيع. ففي تدشين هيكل سليمان في القدس، ذبح 22,000 ثور و120,000 رأس غنم. وكانت الأكثر أهمية بين الأضحيات الإسرائيلية التضحية بالحمل في عيد الفصح. في فترة الاسترقاق في مصر، ضحى الإسرائيليون بحمل، ووَسَمُوا بدمه عتبات نوافذ وأبواب بيوتهم، ثم شووه وأكلوه مع أعشاب مرة وخبز فطير. تلك الليلة آذى الرب كل الأطفال حديثي الولادة في البيوت غير الموسومة، مقنعًا فرعون بأن الوقت لترك الإسرائيليين يغادرون البلاد قد حان.

احتكر اللاويون، الذين شكلوا طبقة كهنوتية نظيرة لطبقة الدرويديين، امتياز ذبح الحيوانات من أجل الأكل. فكان يجب أن تمر اللحوم من تحت أيديهم؛ بالمعنى الحرفيّ، بما أنهم يشرفون أو فعليًا ينفذون ذبح الحيوانات وتوزيع اللحم الحيواني، ليُعيدوا الحصة الأكبر للمالك وضيوفه وليحتفظوا بمقادير معينة لأنفسهم وليهوه.

بيّن وليام روبرتسون سميث (William Robertson Smith) منذ وقت طويل في كتابه المهم *Religion of the Semites* **(دين الساميين)** أن جميع الذبائح الحيوانية في إسرائيل القديمة كانت لغرض التضحية: «لم يكن بإمكان الناس أبدًا أكل لحم البقر أو الغنم إلا ضمن ممارسة دينية». نظر الأنثروبولوجيون الذين درسوا الشعوب الرعوية الحديثة في شرق أفريقيا إلى الحالة ذاتها من منظور مختلف بعضَ الشيء. فلا يعيش الرعويون الشرق أفريقيون عمومًا على لحوم القطعان، بل على حليبها ودمها. وكما في أوساط الباكوت[5] الذين تناولهم هارولد شنايدر بالدراسة، كان يمكن ذبح الحيوانات التي تنتظم ضمن قطعان فقط «في مناسبات

(5) أحد الشعوب الأفريقية. (المترجم)

شعائرية وطقسية». وينظَّم عدد الحيوانات المذبوحة بحسب كل مناسبة وعدد المناسبات، وفي أي حال، بحسب مدى توافر الحيوانات. كان كلُّ ما يُعتبَر بالغَ القيمة مثل الثور لا يتم إشراكه في الاحتفال. ثمة شيء يجمع الأميركيين الذين يقومون بشواء شرائح اللحم لضيوف الشرف مع الباكوت وشعوب العالم القديم المحبة للحم البقر. (بالمصادفة، كلمة «barbecue» (باربيكيو، الشواء) لها تاريخ لافت. تأتي هذه الكلمة من الكلمة الكاريبية «barbicot». الكاريبيون - ومنهم أتت كلمة «cannibal» (آكل لحم البشر) - استعملوا الـ «barbicot»، وهي مشواة مصنوعة من أغصان خضراء، لتحضير ولائمهم التي يأكلون فيها لحم البشر).

بالعودة إلى الإسرائيليين، ليس هناك مجال للشك في أنه كان يضحى بالحيوانات ذات يوم في الأصل لتؤكل في ولائم توزيع يرعاها زعماء ورؤساء «وهّابون». «الكرم المفرط» كان أمرًا مهمًا عند الإسرائيليين القدامى كما كان عند التيتانيين:

> قديمًا زمن صموئيل نجد ولائم دينية لقرى وعشائر... قانون الوليمة هو الكرم المفرط؛ ولا يمكن أن تكون التضحية بالقربان كاملة من دون ضيوف؛ والحصص كانت توزع مجانًا للأثرياء والفقراء ضمن دائرة معارف الرجل.

في زمن المسيح، اكتسب احتكار الذبح لدى اللاويين قيمة نقدية. كان المؤمن يحضر حيواناته إلى كهنة المعبد، الذين يذبحونها مقابل الكثير من المال للرأس الواحد. كان حجاج الفصح يسافرون مسافات شاسعة إلى الهيكل في أورشليم لذبح حملانهم. وكان الصيارفة الأشهر في الهيكل والذين قلب يسوع موائدهم يؤكدون الدفع بعملة المملكة. تخلى الحاخامات اليهود عن ممارسة التضحية بالحيوان بعد سقوط أورشليم في 72م - ولكن ليس بشكل كلّيّ، لأن اليهود الأرثوذكس يصرون حتى هذه الأيام على ذبح حيواناتهم بحزّ الحلقوم تحت إشراف علماء دينيين.

ولأن صلب يسوع حدث بالتزامن مع الاحتفال بالفصح، كان من السهل إلباس موته صورة ورمزية التضحية بالإنسان والحيوان على حد سواء. فأطلق يوحنا المعمدان على المسيح القادم اسمَ «حمل الله». وفي تلك الأثناء، أبقى

المسيحيون على ضروب من وظائف التوزيع الأصلية للتضحية بالحيوان في طقوسهم التي تدعى «العشاء الرباني». قسم يسوع خبز الفصح وسكب خمر الفصح، ووزع الخبز والخمر على تلامذته. «هذا هو جسدي»، قال عن الخبز. «وهذا هو دمي»، قال عن الخمر. وفي عشاء القربان المقدس السري لدى الروم الكاثوليك تواصلت أعمال التوزيع هذه كطقوس. يأكل الكاهن الخبز في شكل رقاقة خبز فطير ويشرب الخمر بينما يأكل أعضاء رعايا الكنيسة الخبز فقط. على نحو يحتوي ما يكفي من التشابه، يسمى هذا الخبز «القربان» (host)؛ كلمة اشتقت من «hostis» اللاتينية، وتعني «الأضحية» أو «القربان».

أراق البروتستانت والكاثوليك كثيرًا من الحبر والدم على مسألة ما إذا كان الخبز والخمر «يتحولان» فعلًا إلى جسد المسيح ودمه. ولكن علماء اللاهوت والمؤرخين على العموم فشلوا حتى الآن في أن يلمسوا الأهمية التطورية الحقيقية لـ «القداس» المسيحي. وبإسباغ المعنى الروحي على أكل حمل الفصح وتقليص مادته إلى خبز عديم الفائدة الغذائية، حررت المسيحية نفسها منذ زمن من عبء تحمل مسؤولية التأكد من أن أولئك الذين يحضرون العيد لا يعودون ومعدتهم خاوية. وذلك ما استغرق فترة من الزمن كي يحدث. خلال القرنين الأولين للمسيحية كان أعضاء الكنيسة قد جمعوا مواردهم وعقدوا فعليًا وجبة جماعية تعرف بـ «agape»، أو وجبة المحبة. بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، وجدت الكنيسة أنها كانت تقام بشكل مفرط وفي عام 363م منع عقد وجبات المحبة في المبنى والأراضي الملحقة بالكنيسة في مجمع لاوديسا. النقطة التي يجدر الالتفات إليها حقًا هي أن القيمة الغذائية للعشاء الرباني هي فعليًا لا شيء، فيما إذا كان هناك «تحول» أم لا. رأى أنثروبولوجيو القرن التاسع عشر في خط التطور الذي يتطور من التضحية بالبشر إلى التضحية بالحيوان إلى الخبز والخمر للعشاء الإلهي دعمًا لمذهب التطور الأخلاقي والتنوير. لا يمكنني أن أشاركهم تفاؤلهم. فقبل أن نبارك للمسيحية تساميها عن التضحية بالحيوان، ينبغي علينا أن نلاحظ أيضًا أن إمدادات البروتين المادية كان قد تجاوزها توسع سكاني متسارع. ما دلّ عليه انتهاء التضحية بالحيوان حقًا انتهاء ولائم التوزيع الإكليريكية.

كانت المسيحية واحدة فقط من ديانات عدة تؤْثر السخاء بعد الموت عندما توقف السخاء في الحياة عن كونه عمليًا أو ضروريًا. لا أعتقد أنه مما يحط من قدر أعمال الرحمة والعطف التي تقوم باسم أديان كهذه أن أوضح أنه كان أمرًا ملائمًا لحكام الهند وروما والإسلام أن يتواضعوا أمام الآلهة، التي تُوْلي السماءَ أهمية تفوق الأرض، والحياة السابقة أو اللاحقة أهمية تتجاوز الحياة الحالية. وبينما كانت النظم الإمبراطورية للعالم القديم آخذة بالاتساع أكثر فأكثر، كانت تستهلك وتستنفد الموارد على المستوى القارّي. عندما امتلأت الكرة الأرضية بعشرات الملايين من الكادحين المرهقين، لم يعد «الوهّابون» قادرين على التعامل مع «السخاء المفرط» لزعماء الماضي البربريين. فقد أصبحوا في ظل المسيحية والبوذية والإسلام «مؤمنين» وبنوا الكاتدرائيات والمساجد والمعابد حيث ما من شيء يقدم للأكل.

لكن لنعد إلى الزمن الذي كان لا يزال فيه ما يكفي من الحيوانات، وبالتالي يمكن للحم أحيانًا أن يكون جزءًا من النظام الغذائي لكل فرد. لقد ضحى الفرس والبراهمة الفيديون والصينيون واليابانيون جميعهم في وقت ما شعائريًا بحيوانات داجنة. في الحقيقة، من الصعب إيجاد مجتمع واحد في نطاق يعبر أوراسيا وشمال أفريقيا لم تكن فيه التضحية بالحيوانات الداجنة جزءًا من العبادات المدعومة من الدولة. كان يُعتمد على مُجمل احتياطيّ الحيوانات المجترة والعاشبة لغرض أضحيات التوزيع هذه، على الرغم من أن بعض المناطق تمخضت عن خيارات فرضتها عليها اعتبارات بيئية معينة. ففي شمال أفريقيا والجزيرة العربية، على سبيل المثال، اشتهروا بالتضحية بالجمال؛ أما الخيول فكان يضحى بها بين الرعويين في أواسط آسيا؛ وكانت الثيران تولى أهمية خاصة في منطقة حوض المتوسط. في تلك الأزمنة، عبر النطاق الواسع نفسه الممتد من إسبانيا إلى اليابان، كان أكل لحوم البشر يمارس عمومًا على نطاق ضيق جدًا، إن كان يمارس في الأصل. لقد حرّمت الأديان الرسمية في أوراسيا أكل اللحم البشري ومع أن هذا التحريم لم يكن كافيًا لمنع انتشار أكل لحم البشر بين فترة وأخرى خلال أزمنة الجوع التي كان سبب ظهورها تناوبُ الحصارات أو عجز المحاصيل، لم يكن لزلاتٍ كهذه على مجرى السياسة الإكليريكية رواج، بل لقيتْ من المعوقات أكثر مما نالت الدعم من قبل الطبقات الحاكمة.

لقد علق مؤلفون قبلي على كثير مما تناولتُه حتى الآن. وبالتأكيد لستُ أول من يكتشف العلاقة بين ندرة الحيوانات الداجنة في أميركا الوسطى والكثافة العددية الفريدة للطائفة التي تضحي بالبشر بين الأزتك. ومع ذلك، قبل أن يربط مايكل هارنر بين كمِّ التضحية بالبشر وسط الأزتك واستنزاف مصادر البروتين لم يكن بالإمكان صوغ نظرية علمية حول المسار المتعرج للأديان الرسمية في العالمين القديم والجديد. فسّر آخرون في ما مضى السببَ في أنه كان هناك ندرة في الحيوانات «المناسبة» للتضحية الذي حرَفَ أميركا الوسطى عن مجراها الشنيع. وهناك زعم أن العالم القديم كان لديه من الحيوانات ما «يلائم» سلوكُه طقوسَ التضحية. من هنا لم يكن ثمة حاجة إلى استخدام أسرى الحرب لأغراض كهذه، لكن حلّتْ التضحية بالحيوان محلّ التضحية بالبشر. فلنسمِّ مناصرًا معاصرًا لهذه الرؤية، يشير راي تاناهيل (Reay Tannahill)، كمنحاز لهذا الرأي، إلى أن الحصان الأميركي الأصلي قُضي عليه، وأن الأيل والثور الأميركيين لم يُعثر عليهما جنوبًا أبعد من المكسيك، إضافة إلى طريدة أخرى كانت بالغة الندرة. ولكن لمَ لمْ يُستخدم الكلب والديك الرومي – «الحيوانات الداجنة الوحيدة» – بدلًا من البشر، جوابه هو: «كانا من الوضاعة بحيث إنهما لم يكونا جديرين بالآلهة».

أشعر بأن ثمة خللًا يعيب هذا النوع من التفسير كما لو أنه كان تفسير الأزتك نفسه الذي يقدمونه لأكلهم أسرى حروبهم. إن ما يعتقده البشر أو يتصورونه وضيعًا بالنسبة إلى الآلهة لا يمكن أن يؤخذ تفسيرًا لمعتقداتهم وممارساتهم الدينية. وأن تفعل ذلك يعني أن تبني تفسيرَ مجمل الحياة الاجتماعية في النهاية على أهواء الناس أو تصوراتهم – استراتيجية محكومة بإبطال كل استفسار نبيه من حيث إنها تهبط دائمًا إلى دِركٍ لازمة وحيدة عديمة الفائدة: يعتقد الناس أو يتصورون ما يعتقدونه أو يتصورونه. ما الذي يوجب الاعتقاد بأن الكلاب والديوك الرومية غير جديرة بعظمة الشهية الإلهية؟ يجد أفراد بعض الثقافات من السهل تصور أن الآلهة تتغذى على «طعام الآلهة» (ambrosia) أو لا تتغذى على شيء على الإطلاق. بالطبع، إن كان بمقدور بشرٍ أن يتصوروا كيف بدت ملامح وجه تلالوك فإنهم قادرون على تصور أن آلهتهم تحب بشهية أكباد الديوك الرومية وقلوب الكلاب. كان شعب الأزتك، وليس آلهة الأزتك، من شعر أنه ليس جديرًا بهم فيما لو انتزع

القلوب الحية للديوك الرومية والكلاب. والسبب في أنهم شعروا بذلك لا علاقة له بالمنزلة الملازمة للكلاب والديوك الرومية والبط الداجن. والأصحّ، أن الأمر مرتبط بتكلفة الحصول على كميات لحوم كبيرة من هذه الكائنات. لم تكن وضاعة الكلاب هي المشكلة في عدم كونها مصدرًا للحوم، بل لأنها تنفع أكثر لو كانت هي نفسها تتغذى على اللحوم. والمشكلة في الديك الرومي وطيور أخرى هي أنها تنفع أكثر عندما تتغذى على الحبوب. في كلتا الحالتين بدا مما لا شك في ارتفاع فاعليته أن يؤكل اللحم أو الحبوب النباتية مباشرة بدل تمريرها عبر رابط آخر في السلسلة الغذائية. من جهة أخرى، فالفائدة الكبيرة لكائنات العالم القديم الداجنة أنها آكلة أعشاب ومجترات تنفع أكثر عندما تتغذى على العشب وبقايا الزرع والأوراق والنباتات الأخرى التي لا يستطيع الإنسان هضمها. بسبب الانقراضات في العصر البِلستوسيني، افتقر الأزتك لكائنات كهذه. وكان هذا الافتقار، مع التكاليف الإضافية المتضمنة في استخدام الطيور والحيوانات اللاحمة كمصدر للبروتين الحيواني، ما أمال كفة الميزان لمصلحة أكل لحم البشر. بالطبع، اللحم الذي يتم الحصول عليه من أسرى الحرب مكلف أيضًا؛ الإمساك برجال مسلحين أمر باهظ الثمن. ولكن إذا افتقر المجتمع إلى مصادر أخرى للبروتين الحيواني، فإن منافع أكل لحم البشر يمكن أن تفوق هذه التكاليف. من جهة أخرى، لو كان المجتمع في الأصل يمتلك الخيول والأغنام والماعز والجمال والثيران والخنازير لأكلها، لأن تكاليف أكل لحم البشر ستفوق منافعها.

ما لا شك فيه ستبدو قصتي أكثر إلهامًا لو أنني استطعت أن أضع جانبًا مقاربة التكاليف/ المنافع هذه المتأتية من أكل لحم البشر وأعود إلى النظرية القديمة في التطور الأخلاقي. سيفضل معظمنا الإيمان بأن الأزتك بقوا أكلة لحوم بشر ببساطة لأن أخلاقهم كانت لا تزال غارقة في الغرائز البدائية بينما حرّمت دول العالم القديم اللحم البشري لأن أخلاقها ارتفعت في مسيرة الحضارة المتقدمة والمتصاعدة. لكنني أخشى أن هذا الخَيار نجم عن سوء فهم ضيق الأفق، إن لم يكن زائفًا. فلم يكن لحظر أكل لحم البشر ولا لرفض التضحية بالبشر في العالم القديم تأثير أقلّ في معدل ما تقتله دول العالم القديم وإمبراطورياته من مواطنيها. وكما يعلم الجميع، فقد توسع نطاق الحرب باطّراد منذ أزمنة ما قبل التاريخ وصولًا

إلى الوقت الحاضر، والأرقام المدونة للقتلى بسبب الصراعات المسلحة نتجت بالتأكيد على يد هذه الدول التي كانت فيها المسيحية الديانة الرئيسة. فليست أكوام الجثث المتروكة للتعفن في ساحات الحرب أقل عددًا من الجثث المقطعة لأجل وليمة. اليوم، ونحن نتأرجح على شفير حرب عالمية ثالثة، لسنا مؤهلين لأن ننظر باحتقار إلى الأزتك. في عصرنا النووي يستمر العالم فقط لأن كل طرف موقنٌ بأن المعايير الأخلاقية للآخر هابطة ما يكفي لأن يجيز إبادة مئات ملايين البشر ردًا على أول ضربة. وسيعود الفضل للنشاط الإشعاعي بمنع الناجين من دفن الموتى، ناهيك بأكلهم.

أرى طريقتين كي أجعل من التكلفة/ المنافع لأكل لحم البشر أمرًا منطقيًا في المراحل المبكرة لتشكيل الدولة. قبل كل شيء، هناك مسألة استخدام جنود العدو كمنتجين للطعام بدلًا من كونهم أنفسهم طعامًا. يوضح إيغناس غيلب في نقاشه حول نشوء الدولة في بلاد ما بين النهرين أن الرجال كانوا في البداية يُقتلون إما في ساحة القتال وإما في طقوس التضحية، بينما يتم دمج النساء والأطفال المأسورين فقط في القوى العاملة. هذا يدل على أنه كان هناك «سهولة نسبية في ممارسة السلطة على نساء وأطفال أجانب» وأن «أجهزة الدولة لم تكن حينذاك قوية بما يكفي لفرض السيطرة على جماهير من الأسرى الذكور الشديدي البأس». لكن ما أن تنامتْ قوة أجهزة الدولة، حتى وُضعت على الأسرى الذكور «علامة أو وُسموا، أو أُوثقوا بحبال أو أُوثقت أعناقهم إلى دعامات»، وفي ما بعد «يحررون وتسوى أوضاعهم أو يستخدمون لأغراض خاصة بالتاج الملكي، كحراس شخصيين للملك أو مرتزقة أو قوة متنقلة».

> يمثل تغيير وضع أسرى الحرب العامل الرئيس في خلق ثاني أهم مصدر (بعد الطبقات الأصلية المفقرة) للقوة المنتجة في بلاد ما بين النهرين.

يؤكد غيلب حقيقة أن أسرى الحرب في بلاد ما بين النهرين والهند والصين لم يُستخدموا عبيدًا، بل كانوا يُبعدون من بلادهم ويقيمون كمزارعين أحرار بدرجة ما في كامل المملكة. كانت الفائدة جليّةً ضمن منطق التكلفة/ الفائدة لدى الأنظمة البدائية لدول العالم القديم أن تُستخدم حيواناتهم الداجنة مصدرًا للحليب

واللحوم ويُستخدم أسراهم عمالًا زراعيين ومذخِّري مَدافع. وتنضوي إلى هذا التكيّف حقيقة أن وجود الحيوانات الداجنة مكَّنَ من توسيع الأساس الإنتاجي والإنجابي لدول العالم القديم وإمبراطورياته القديمة وزيادته أكثر من المرحلة التي كان بإمكان الأزتك أن يصلوها من دون أن يعانوا نقصًا حادًا في مستويات معيشتهم (على الرغم من أن عواقب ارتكاب التكثيف كان يمكن تداركها أيضًا).

البعد الثاني الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار في تقييم تكلفة/ منافع أكل لحم البشر هو سياسي أكثر منه اقتصادي، على الرغم من أنه يحيل بالضرورة إلى مسألة المستويات الثابتة للمعيشة في وجه النمو السكاني والكثافة والاستنزاف البيئي. وكما بينت، نشأت الدول من المجتمعات القروية والجماعات عبر توسيع القيادة المسؤولة عن التوزيع الاقتصادي وإدارة الحروب الخارجية وتحكيمها. وقد كرّس الملوك القدامى، مثل سيغورد السخي، صورة «الوهّاب» التي كثيرًا ما استخدمها «الرجال العظماء» في كل مكان لإثبات تفوقهم: «يده السخية نثرت الذهب نثرًا». فقد اقتضى السخاء المستمر في وجه النمو المتسارع للسكان والاستنزاف البيئي المتكرر، في أي حال، التوسع المستمر نحو أراضٍ جديدة والامتصاص المستدام لجموع إضافية من المنتجين الزراعيين. لا يمثل أكل أسرى الحرب بذاته هدرًا كبيرًا للطاقة البشرية في ظلّ ظروف بيئية تُميِّزُ دول العالم القديم، ولكنه كان أسوأ استراتيجية متاحة لأي دولة لديها مطامح إمبراطورية. فلا يمكن تيسير سبل بناء الإمبراطورية بمجرد التعهد بأن أولئك الذين يخضعون لـ «الوهاب» سيؤكلون. بل على العكس، المبدأ الأساسي الذي يسير مجملُ التوسع الإمبراطوري الناجح بهديه هو أن أولئك الذين يخضعون لـ «الوهاب» لن يؤكلوا – حرفيًا أو رمزيًا – بل في واقع الأمر سيُحافظ على حياتهم وتحسين نظامهم الغذائي. إن أكل لحوم البشر والإمبراطورية مسألتان لا تجتمعان. عبر التاريخ خُدع البشر مرارًا في الإيمان بأن تفاوتَ توزيع الثروة الكبيرَ ضروري لرفاههم. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن أي «وهّاب» قادرًا على إقناع الناس به هو أن هناك شيئًا من التعادل في العلاقة ما بين أن تأكل وأن تُؤكَل. أن تختار مملكة آكلي لحوم بشر، بمعنى آخر، يعني أن تختار حربًا دائمة مع الجوار ومملكة يعصف بها العصيان ويعامل فيها البشر على أنهم لا يصلحون لشيء سوى لطهو اللحم. إن خيارًا كهذا يبدو منطقيًا فقط لدولة – كدولة

الأزتك - استنزفت بيئتها في الأصل، حيث إن المرحلة الإمبراطورية لسياستها لم يكن بالإمكان بلوغها.

ينبغي أن أوضح أيضًا أنه كان هناك معادل داخلي لسياسة الرحمة تجاه أسرى الحرب. فقد عزز نمو الإمبراطورية صورة الحكام كشخصيات إلهية تحمي البسطاءَ من الاستغلال المفرط على أيدي أفراد آخرين من الطبقة الحاكمة. اضطرت الحكومات الإمبراطورية إلى سلوك صراط دقيق بين فرض الضريبة المبالغ في كثرتها وقلتها. فلو كانت قوة الموظفين المحليين الذين يأخذون الضريبة من الفلاحين غير مقيدة من الإمبراطور، لأصبح الشعب مخلًا بالنظام، ولارتفعت تكاليف إحلال القانون، ولتعرض بالتالي بقاء الإمبراطورية للخطر. كانت النتيجة الطبيعية لصورة «الوهاب الأكبر» المنفرشة على لافتات ذات أبعاد قارية هي صورة الموزع الأعظم للعدل والرحمة والحامي الإلهي للشعب الخنوع. هنا يكمن أصل أديان الحب والرحمة العالمية في العالم القديم. في أقدم تشريع معروف، في عام 1700 قبل ميلاد المسيح، جعل حمورابي حماية الضعيف في مواجهة القوي مبدأ أساسيًا للحكم الإمبراطوري البابلي. صور حمورابي نفسه كأعظم «الوهابين»: «الراعي»، «واهب الثراء الوفير»، «جالب الثروة الفائضة»، «جالب المياه الوفيرة لشعبه»، «واهب النماء والغزارة... الذي يوسع الأراضي المحروثة»... «يكدس المخازن المتخَمة بالحبوب»... «الواهب السخي للولائم المقدسة»... «واهب مياه الغزيرة»... «الذي يضع بثبات أسس المساكن ويزودها بأثاث صالح وكافٍ». بعدها أعلن نفسه شخصية إلهية: «إله الشمس لبابل الذي يجعل الضوء يشرق فوق البلاد». وأخيرًا الحامي الأعظم: «مهلك الآثمين والأشرار وبذلك لا يمكن للقوي أن يضطهد الضعيف».

يكمن احتساب المتغيرات الإمبراطورية ذاتها في لبّ الدين السياسي المعروف بالكونفوشيوسية. كان الملوك الصينيون القدامى يوظفون «أدمغة موثوقة» في البلاط كي يلتمسوا نصيحة الخبراء حول كيفية البقاء في قوة وثراء من دون الإفراط في ظلم الشعب. والأكثر شهرة من بين هؤلاء الناصحين كان كونفوشيوس ومنسيوس، كلاهما لم يكلّ أو يمل من إبلاغ حكامهما الملوك أن

فرض نظام لفترة حكم طويلة ومزدهرة يقتضي التوثّق من أن عامة الناس يأكلون بشكل جيد ولا تفرض عليهم ضريبة باهظة. وكان منسيوس أكثر جسارة من كونفوشيوس حتى إنه وصل حدَّ القول إن الـمُلْك ليس ذا شأن في ذاته. وحده الإمبراطور الصالح مع شعبه يمكنه توقع الاستمرار:

> إن الناس هم أهم عناصر الأمة والدولة، وتأتي بعدهم خيرات الأرض وغلالها؛ أما المُلك فهو أقل هذه العناصر شأنًا. فحصولك على تأييد الشعب يعني حصولك على المُلك. إذا نصَّبَتْ جلالتك بالفعل حكومة صالحة للشعب، تتسامح في فرض العقوبات والغرامات، وتجعل الضرائب والجبايات أقل وطأة، شريطة أن تُحرث الحقول جيدًا، ويزال عشبها الضار بعناية... ستحصل عندها على شعب تشغله بعصي من صنع يديه لمعارضة الأسلحة القوية والدروع القاسية لجنود تشين وتشو... حكام هذه الدول سرقوا شعوب زمنهم ولم يتمكنوا من حرث بَذر حقولهم... هؤلاء الحكام كما كانت حالهم، قادوا شعوبهم نحو التهلكة أو أغرقوهم. في حالة كهذه من تُراه سيعارض سلطانكم؟ وكما يقال، «ليس للخير أعداء»، أرجو جلالتك ألا تشك بما أقول.

لم يكن هناك ثغرة كبيرة بين هذه المذاهب البراغماتية ونشوء دين متكامل من الحب والإحسان وتقديس حياة الإنسان. في فلسفة منسيوس أصلًا، يُعتبر «عمل الخير هو السمة المميزة للإنسان».

في اعتقادي، يفسر هذا التوازن للتكلفة/ الجدوى لأكل لحم البشر المدعوم حكوميًا، سبب بقاء التضحية بالبشر وأكل لحم البشر من الخصائص ضئيلة الأهمية في الأديان الرسمية للعالم القديم. أضف إلى ذلك، كما اقترح مايكل هارنر، يمكن أيضًا أن يوفر جوابًا أول مرة على مسألة أن التطور السياسي على امتداد ساحل المحيط الهادئ وهضاب أميركا الجنوبية بلغ ذروته مع ظهور إمبراطورية الإنكا التي حاكتْ نماذج بلاد ما بين النهرين والصين أكثر من الأنموذج الأزتكي. شملت إمبراطورية الإنكا في مطلعها منطقة امتدت 1500 ميل من شمال تشيلي إلى جنوب كولومبيا وتضمنت تعدادَ سكان ربما بلغ 6 مليون نسمة. كان لهذا النطاق الواسع، على عكس أميركا الجنوبية في ظل الأزتك، بنية سياسية شاملة للقرى والمقاطعات والأقاليم. وكان الموظفون الأعلى المعينون من الإنكا

مسؤولين عن القانون والنظام وعن المحافظة على مستويات مرتفعة من الإنتاج. كانت الأراضي القروية مقسمة إلى ثلاثة أقسام، الأكبر رقعة منها للحياة الخاصة بالمزارعين؛ أما المحاصيل من القسمين الثاني والثالث فكانت توكَل إلى الموظفين السياسيين والإكليريكيين، الذين كانوا مسؤولين عن المخازن المحلية. وقد عملت هذه المخازن وفق قاعدة الاستقرار الدائم. وكانت تستخدم للتعويض عن الارتفاع والهبوط السنوي كما عن الأزمات الإقليمية. خلال وقت الجفاف كانت محتوياتها ترسل بسرعة عبر شبكة من الطرقات الحكومية والجسور المعلقة إلى المقاطعات المعوزة. اتبعت الفلسفة السياسية للإنكا، كفلسفة حمورابي وكونفوشيوس، النزعة طويلة الأمد لمبدأ، «الرجال الكبار» المعطائين. كانت الدول المعادية تتهافت للانضواء إلى حكم الإنكا كي تحظى بمستوى معيشة أرقى. وكانت تُسوّى أوضاع الجنود المهزومين، كما في بلاد ما بين النهرين قديمًا، في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية ويدمجون تمامًا في القوة العاملة الزراعية، بينما كان القادة المعادون يؤخذون إلى العاصمة كوزكو (في البيرو) ليلقنوا العقيدة السياسية الإنكية. ولم يستعرض الجيش الإنكي مسيرًا عسكريًا فوق أعدائه على تحت شعار «سوف نأكلكم». وكما في الصين القديمة وبلاد ما بين النهرين، كان الكهنة في الإنكا بين فترة وأخرى يقومون بالتضحية بالبشر – لتمجيد الخالق فيراكوشا وإله الشمس إنتي – ولكن هذه التضحيات لم تكن جزءًا مكملًا من نظام الحرب. كان يتم اختيار واحد أو اثنين فحسب من جنود الإقليم المهزوم. وغالبًا ما كان يلوح أن الضحايا الرئيسين هم فتيان وفتيات يضفون دفقة تحريض على الاحتفال إلى جانب الطعام والشراب ومتع خاصة. الأكثر أهمية من ذلك هو أنه لم يكن هناك دليل على أن الضحايا كانوا يقطّعون أو يؤكلون.

كان كهنة الإنكا يقومون بعملية توزيع اللحم، وكانت التضحية حدثًا يوميًا. ولكن الكهنة الأعلى في كوزكو بذلوا مهاراتهم التشريحية على حيوانات اللاما، بينما كان الخنزير الغيني يميّز كثيرًا في أضرحة أقل شأنًا. كلا هذين الحيوانين، كما أوضحت سابقًا، كانا مفقودين من مخزون إنتاج الغذاء للأزتك. ومن الاثنين، اعتُبر اللاما الحيوان الأكثر أهمية في سياق البحث الحالي لأنه واحد من عائلة الجمل، والذي يتكون مرعاه الطبيعي من الأعشاب الطويلة التي لا يمكن للإنسان

أكلها. تتبعت الحفريات الأخيرة التي قام بها جين وإدغاردو بيرس – فيريرا (J. and E. Pires-Ferreira) وبيتر كوليك (Peter Kaulicke) من جامعة سان ماركوس في البيرو أصل تدجين اللاما لدى الصيادين الذين اجتاحوا نجدَ جونين في نهاية العصر الجليدي الأخير. لم يتم التدجين حتى زمن تقريبي بين عامي 2500 و1750 ق. م – متأخرًا بمعايير العالم القديم، ولكن مبكرًا ما يكفي لأداء دور في بداية عملية تشكيل الدولة في أميركا الجنوبية.

لم تكن حيوانات اللاما والخنازير الغينية عند الإنكا في الأصل أقل وضاعة من كلاب وديوك الأزتك الرومية؛ كانت ببساطة مصادر أفضل للحم. مكّنتْ حيواناتُ اللاما الإنكا من التوقف عن التضحية بالبشر لأنها أتاحتْ لهم بديلًا من أكل لحم البشر. تبدو النتيجة جلية: لحم المجترات حرّضَ شهية الآلهة وجعل «الوهابين» أهلَ رحمة.

المراجع والملاحظات

لمراجعات عن أكل لحوم البشر في العالم القديم يُنظر: Reay Tannahill, *Flesh and Blood: A History of the Cannibal Complex* (New York: Stein & Day, 1975); Eli Sagan, *Human Aggression, Cannibalism, and Cultural Form* (New York: Harper & Row, 1974).

اعتمدتُ على ملخصات عن الأضاحي البشرية في عمل: James Hastings (ed.), *Encyclopedia of Religion and Ethics* (New York: Charles Scribner & Sons, 1921),

يُنظر أيضًا: Sylvain Lévi, *La Doctrine du sacrifice dans les Brahmanas* (Paris: Presses Universitaires de France, 1966); Yvonne Rosengarten, *Le Regime des offrandes dans la societe sumerienne d'apres les textes presargoniques de Lagas* (Paris: E. de Boccard, 1966); Royden Yerkes, *Sacrifice in Greek and Roman Religions and Early Judaism* (New York: Scribners, 1952).

وللاطلاع على 'عبادة الرأس المقطوع' يُنظر: Stuart Piggott, *Ancient Europe* (Edinburgh: The University Press, 1965), p. 230.

للاطلاع على الدرويديين/ الكهنة السلتيين القدماء/ Druids يُنظر: Stuart Piggott, *The Druids* (New York: Praeger, 1975).

ويُنظر: Ignace Gelb, «Prisoners of War in Early Mesopotamia,» *Journal of Near Eastern Studies*, vol. 32 (1973), pp. 70-98.

أُخذت الاقتباسات عن: Hastings (ed.), *Encyclopedia.*

يُنظر: William Smith, *The Religion of the Semites* (New York: Meridian Books, 1956); Harold Schneider, «The Subsistence Cattle Among the Pakot and in East Africa,» *American Anthropologist*, vol. 59 (1957), pp. 287-300; Rada Dyson-Hudson & N. Dyson-Hudson, «Subsistence Herding in Uganda,» *Scientific American*, vol. 220, no. 2 (1969), pp. 76-89.

الاقتباس مأخوذ عن: Smith, *The Religion,*

يمكن الرجوع إلى بحثي عن الوقائع المحيطة بالعشاء الأخير لدى: Marvin Harris, *Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture* (New York: Random House, 1974).

يُنظر: Tannahill, *Flesh and Blood*, p. 84,

للاطلاع على 'الحيوانات الوضيعة'. اقتُبست أقوال حمورابي عن: G. R. Driver & J. C. Miles (eds.), *The Babylonian Laws*, vol. 2 (Oxford: Clarendon Press, 1955), pp. 7-13.

يُنظر: Mencius, *The Works of Mencius*, trans. by James Legge (New York: Dover, 1970), pp. 483, 135-136.

عن الأنكا يُنظر: John Rowe, «Inca Culture at the Time of the Spanish Conquest,» in: Julian Steward (ed.), *Handbook of South American Indians* (Washington, DC: Bureau of American Ethnology Bulletin, 1947), no. 143., pp. 183-330; J. Alden Mason, *The Ancient Civilizations of Peru* (Harmondsworth (England): Penguin, 1957);

يُنظر: J. Pires-Ferreira, E. Pires-Ferreira & P. Kaulicke, «Preceramic Animal Utilization in the Central Peruvian Andes,» *Science*, vol. 194 (1976), pp. 483-490.



11

اللحم المحرم

بينت سابقًا أن تدجين الحيوانات نشأ كمحاولة للحفاظ على البيئة تسبب بها هلاك حيوانات العصر البِلِستوسيني. لكن ما بدأ محاولة لضمان الحصص من اللحم لسكان القرى انتهى إلى المفارقة المعتادة التي نتوقعها كلما أخذَ نمط الإنتاج في التصاعد بغرض التخفيف من الضغوط الإنجابية. يمكن تربية الغنم والماعز والخنازير ومجمل الماشية وكائنات داجنة أخرى من أجل لحمها في المقام الأول لأن القرى خلال العصور النيوليتية المبكرة كانت محاطة بمحميات شاسعة من الغابات والأراضي الرعوية، والتي لم تكن صالحة لزراعة القمح والشعير والمحاصيل الأخرى التي استُخدمتْ للاستهلاك البشري المباشر. ومع ازدياد الكثافة السكانية نتيجة الاقتصادات السياسية التوسعية للدول والإمبراطوريات القديمة تضاءلت رقعة الغابات والأراضي العشبية غير المحروثة المخصصة للفرد الواحد من أجل تربية الحيوانات. كلما أخذ عدد السكان المزارعين الذين يمتلكون حيوانات داجنة بالتزايد السريع، وجب اللجوء إلى خيارين، إما الإكثار من زراعة الأغذية النباتية وإما زيادة تربية الحيوانات. أولتِ الدول والإمبراطوريات القديمة دائمًا زراعة الأغذية النباتية المرتبة الأولى بما أن معدل عائدِ السعرات الحرارية الناتجة من كل سعرة من الجهد البشري المبذول في إنتاج النبات تفوق عشر مرات معدلَ السعرات الحرارية التي تعود عليه من الإنتاج الحيواني. بمعنى آخر، بموجب الناتج الطاقي، من الأجدى للبشر أنفسهم أن يأكلوا الطعام النباتي

من أن يطيلوا السلسلة الغذائية من خلال إدراج الحيوانات بين البشر والنباتات. فالحبوب تحول حوالى 0.4 في المئة من كل وحدة من الطاقة الشمسية إلى مادة صالحة للاستهلاك البشري. وتعود تغذية المواشي على الحبوب بلحم يحتوي فقط على 5 في المئة من هذه النسبة، أي ما يعادل 0.02 في المئة من الوحدة الأصلية من أشعة الشمس. هكذا مثّل قرار زيادة المساحة المخصصة للمحاصيل الزراعية على حساب المساحة المخصصة لرعي الحيوانات استراتيجية هدفتْ إلى زيادة البشر وتغذيتهم أكثر من زيادة الحيوانات وتغذيتها.

لكن الكائنات الداجنة ذات قيمة لمنتجات وخدمات أخرى. فتربيتها وذبحها من أجل لحمها فحسب يعني تدمير قيمتها كآلات جرٍّ، ومنتجة للأنسجة وللسماد. وحيث إن بعض الحيوانات الداجنة يمكن أيضًا أن تقدم إمدادًا مستمرًا بالبروتين الحيواني مثل الحليب ومنتجات الألبان، يستطيع المرء أن يفهم بسهولة لمَ انخفضت وتيرة استخدام الحيوانات الداجنة باطراد كمصدر للحوم: إن قيمتها أكبر وهي حية من قيمتها ميتة. لذلك، شيئًا فشيئًا نُحّيَت اللحوم من النظام الغذائي اليومي لعامة الشعوب في الدول والإمبراطوريات القديمة، الذين وجدوا أنفسهم بعد آلاف السنوات من «التقدم» قد بلغوا معدل استهلاك ضئيل للبروتين الحيواني يساوي تقريبًا نظيره عند مواطني تينوشتيتلان العاديين. على امتداد مساحة واسعة من العالم القديم تعادل المناطق السابقة ذات الإنتاج الأكبر للحبوب واللحوم، أصبح اللحم الحيواني خلال حقبة وجيزة مجرد رفاهية اقتصر استهلاكه على المناسبات التي تتضمن أضحية شعائرية أو توزيعًا إكليريكيًا. في نهاية المطاف، أصبح استهلاك لحوم معظم الكائنات الحية مرتفعة الأثمان محرمًا بشكل نهائي، بينما أصبح اللحم في المناطق التي تعاني استنزافًا حادًّا بذاته نجسًا من الناحية الشعائرية. وقبل وقت طويل برزت أول مرة في التاريخ مذاهب إكليريكية تهدف إلى ترسيخ معتقد أن أكل النبات بدلًا من اللحوم كان أكثر اقتداءً بالآلهة.

مثّل انخفاض استهلاك اللحم الحيواني لكل فرد انخفاضًا في المعايير الغذائية. فعلى الرغم من أن هذا لا يبدو واضحًا للنباتيين المتحمسين في هذا العصر، الذين يعتبرون أن أكل اللحم عادة مضرة، فلأوضح هذه النقطة قبل أن

أتوجه إلى السؤال: لِمَ أصبح لحم حيوانات معينة أكثر تحريمًا من سواها في الشرق الأوسط القديم. فالنباتيون محقون تمامًا عندما يدّعون أنه يمكننا كبشر تأمين جميع حاجاتنا الغذائية من خلال استهلاك الأطعمة النباتية وحدها. فالحموض الأمينية العشرين كلها، والوحدات المساهمة في تركيب البروتين، موجودة في النبات. ولكن لا يوجد نبات واحد يحتوي على جميع الحموض الأمينية العشرين. يمكن الحصول على المتممات الكاملة للحموض الأمينية من الأطعمة النباتية فقط من طريق أكل كميات كبيرة من الأطعمة الغنية بالآزوت، مثل الفاصولياء والجوز، إضافة إلى كميات كبيرة من الحبوب النشوية أو المحاصيل الدرنية يوميًا (الفاصولياء والجوز أنفسها أطعمة غالية الثمن). لذلك فإن أكل اللحم هو طريقة أكثر نفعًا بكثير للحصول على الحموض الأمينية الضرورية لصحة الجسم وقوته. وتؤمن اللحوم مواد غذائية أساسية في حزم عالية التركيز. وكمصدر للبروتين، تُعتبر فيزيولوجيًا أكثر نفعًا من الأطعمة النباتية؛ هذه الحقيقة انعكست في التفضيل الشامل الفعليّ الظاهر لدى شعوب قرى ما قبل الدولة للحم على الأطعمة النباتية كعنصر رئيس في ولائم التوزيع.

يرجح أن الخنزير كان أول الحيوانات الداجنة التي أصبحت باهظة الثمن من مصادر اللحوم. نعلم من العهد القديم أن الإسرائيليين أُمِروا بالامتناع عن أكل لحم الخنزير منذ فجر تاريخهم. وبما أن لحم الماشية والغنم والماعز كان له دور مهم في توزيع «الوهّاب» الإسرائيلي القديم، فإن تحريم استهلاك مصدر ممتاز للحم الحيواني كهذا يبدو عصيًا على الفهم. تظهر آثار خنازير داجنة في قرى العصر النيوليتي في فلسطين وسورية والعراق والأناضول، وهي قديمة قدم آثار الغنم والماعز تقريبًا. علاوة على ذلك، وبعكس كائنات داجنة أخرى، كان الخنزير يدجن من أجل لحمه قبل كل شيء. فالخنازير لا تحلب، أو تُركب، ولا تنتظم ضمن قطعان كالحيوانات الأخرى، ولا تجرُّ محراثًا، أو تحمل حمولة، ولا تصطاد الفئران. ومع ذلك فإن الخنزير كمصدر للحم لا يضارع؛ فهو واحد من الحيوانات الأكثر فاعلية في تحويل الكربوهيدرات إلى بروتينات ودهون في المملكة الحيوانية كلها. فلكل 100 رطل من الطعام المستهلك، ينتج الخنزير حوالى 20 رطلًا من اللحم، بينما تنتج الماشية من الكمية نفسها حوالى 7 أرطال

فقط. ومن ناحية الحريرات التي يتم تحصيلها من السعرة الغذائية، فإن الخنازير أكثر نفعًا ثلاث مرات من الماشية ومرتين من الدجاج (رطل مقابل رطل، لحم الخنزير يحتوي سعرات أكثر من لحم البقر).

قبل أن أحاول تفسير السبب في أن لحم الخنزير كان أول ما أصبح هدفًا للتحريم السماوي، سأقول شيئًا حول المبادئ العامة التي تحكم تشريع التحريم على اللحم الحيواني. كما يفترض إريك روس (Eric Ross)، الذي درس معضلة المحرمات الحيوانية بين الهنود في حوض الأمازون، تمثلت النقطة الأساسية الأهم التي يجب أن تظل حاضرة في الذهن في أن الدور البيئي لكائنات معينة ليس ثابتًا دائمًا، بل هو جزء من عملية دائمة التغيير. تميل الثقافات إلى فرض قوانين سماوية على استهلاك اللحم الحيواني عندما تتراجع نسبة الفوائد العامة مقارَنةً بالتكاليف المرتبطة باستخدام كائنات معينة. إن الكائنات الرخيصة والوافرة والتي يمكن أن يؤكل لحمها من دون التسبب بخطر على باقي النظام الذي تتغذى منه نادرًا ما تصبح هدفًا للتحريم السماوي. فالحيوانات التي لها فوائد عالية وتكاليف منخفضة في الوقت نفسه، ثم تصبح أكثر تكلفة في ما بعد، هي أهداف رئيسة للقوانين السماوية. يطفو الحظر الشديد على السطح عندما لا تصبح الكائنات ذات القيمة الغذائية أغلى ثمنًا فحسب، بل يشكل استخدامها المستمر أيضًا خطرًا على نمط المعيشة الراهن. والخنزير واحد من هذه الكائنات.

تستلزم تربية الخنازير تكاليفَ تنطوي على تهديد لنظام العيش بأسره في أراضي الشرق الأوسط الحارة، وشبه الجافة. ويرتفع هذا التهديد بحدة نتيجة الكثافة والاستنزاف والنمو السكاني المرتبط بتطور الدول البدائية والتابعة في المنطقة بعد عام 4000 ق. م. والخنزير أساسًا هو كائن يعيش في الغابات، على ضفاف الأنهار، وأطراف المستنقعات. ولديه سوء تكيف فيزيولوجي مع درجات الحرارة المرتفعة وضوء الشمس المباشر لأنه لا يستطيع أن ينظم درجة حرارة جسمه من دون مصادر خارجية للرطوبة؛ فهو لا يتعرق. في مأواه الطبيعي وسط الغابة يأكل الخنزير الدرنيات الجذور والفاكهة والجوز الذي يقع على الأرض. إذا تغذى على النباتات ذات المحتوى العالي من السيللوز، يخسر كليًا ميزته عن

الحيوانات المجترة كمحوّل للنباتات إلى لحوم ودهون. على عكس الماشية والغنم والماعز والقرود والخيول، لا تستطيع الخنازير أن تستقلب القشور وسُوق النبات والأوراق الخيطية؛ إنها ليست أفضل حالًا من الإنسان إذا تغذى على الأعشاب.

عندما تم تدجين الخنزير بادئ الأمر، كانت هناك غابات واسعة تغطي الهضاب المحيطة بجبال طوروس وزاغروس والمناطق المرتفعة الأخرى من الشرق الأوسط. ولكن بدايةً، في عام 7000 ق. م، حوّل انتشار البلدان الرعوية والزراعية المختلطة وكثافتها ملايين الفدادين من غابات الشرق الأوسط إلى أراضٍ عشبية. وفي الوقت نفسه، تحولت ملايين الفدادين من أراضٍ عشبية إلى صحارى.

عزز ازدياد الرعي والزراعة انتشار النباتات المتكيفة مع الجفاف على حساب النباتات الاستوائية وشبه الاستوائية المورقة السابقة. تقدر المصادر أن غابات الأناضول انحسرت من 70 في المئة إلى 13 في المئة من المساحة السطحية الكاملة منذ عام 5000 ق. م والماضي القريب. وبقي ربع الغابات الشاطئية السابقة فقط لبحر قزوين، ونصف الغابات الجبلية الرطبة، ونحو خُمْس أو سدس غابات الصنوبر والسنديان في زاغروس، وواحد بالعشرين من غابات أشجار العرعر في سلسلة جبال البرز وخراسان. وكانت المناطق التي عانت أكثر هي التي استولى عليها الرعاة أو الرعاة الذين سبقوهم. وغالبًا ما كان تاريخ الشرق الأوسط محكومًا بسرعة زوال الحدود بين المزارع والبوادي، وكما هو ملخص بشعر عمر الخيام:

على امتداد حقلٍ ما من نجيلٍ انتثر
ليكون حدَّ الصحراء الفاصل من الزرع.

واليوم، كما أشار ر. د. وايت (R. D. Whyte)، «تقوم الجبال الجرداء وتلال الخط الساحلي للشرق الأوسط، وهضبة الأناضول، وإيران كشاهد واضح المعالم على ألوف السنين من الانتفاع العشوائي».

جاء الإسرائيليون القدامى إلى فلسطين ما بين العصر الحديدي القديم والأوسط، حوالى عام 1200 ق. م، واستملكوا مناطق جبلية لم تُفلح من قبل. كانت الغابات في تلال الضفة الغربية[1] تقطع بسرعة وتتحول إلى مصاطب مروية. كانت المناطق الملائمة لتربية الخنازير على العلف الطبيعي محدودة على نحو خطير. ورويدًا رويدًا، اضطرت الخنازير إلى التغذي على الحبوب كمكملات غذائية، واستخلاصها مباشرة كما الإنسان؛ علاوة على ذلك، ازدادت تكلفتها لأنها كانت تحتاج إلى رطوبة وظل صناعيين. ومع ذلك لم تزل الخنازير مصدرًا مغريًا للبروتين والدهون.

ربما كان الرعاة والمزارعون المستقرون الذي يعيشون في مناطق معرضة للتصحر على استعداد لتربية الخنزير لمنافع قصيرة الأمد، ولكن تربية الخنازير على نطاق واسع ربما كانت مكلفة للغاية وتفتقر إلى التكيف. كان للتحريم الإكليريكي المدون في سفر اللاويين القول الفصل: بجعل حتى التربية المحدودة عديمة الضرر للخنزير نجاسة، ما أسهم في الحد من الإغراء الضار لتربية الكثير من الخنازير. أجد من الضروري إيضاح أن بعض زملائي اعترضوا على هذا التفسير على أساس أنه لو كانت تربية الخنازير بالغة الضرر بالفعل لما كان هناك من داع لوضع قوانين خاصة ضدها. «إن فرض تحريم على حيوان ما هدام بيئيًا هو مبالغة ثقافية. ما سبب استخدام الخنازير إذا لم تكن مفيدة في محيط محدود؟» ولكن دور الخنزير ضمن نظام إنتاج ناشئ ما يؤخذ في الاعتبار هنا. منع تربية الخنازير يعني تشجيع زراعة الحبوب، المحاصيل الشجرية، ومصادر أقل تكلفة للبروتين الحيواني. أضف إلى ذلك: كما أن الأفراد متباينون وملتبسون في أفكارهم ومشاعرهم الخاصة، كذلك الكتل السكانية بمجملها غالبًا متباينة وملتبسة في جوانب تتعلق بعمليات التكثيف التي يشاركون فيها. فكّروا بمنافع ومسالب التنقيب عن النفط في البحر والنقاش المحتدم حول تحريم الإجهاض. لم يكن استصدار تشريع ديني ضد الخنزير «مبالغة ثقافية» أكثر مما هو استصدار قانون ديني ضد الزنا وسرقة المصارف «مبالغة ثقافية». عندما حرّم يهوه القتل وسفاح

(1) يسميها الإسرائيليون يهودا والسامرة. (المترجم)

القربى، لم يقل، «فليكن هناك قليل من القتل» أو «فليكن هناك قليل فقط من سفاح القربى». لذلك، لـِمَ يفترض أنه قال «يجب الاكتفاء بأكل كميات قليلة من لحم الخنزير»؟

يشعر بعض الناس أن التحليل البيئي لتكلفة/ جدوى تربية الخنازير أمر غير ضروري لأن الخنزير ببساطة هو استثنائيًا كائن غير مثير للشهية لأنه يأكل غائط الإنسان ويحب أن يتمرغ في بوله وبرازه. وما تفشل هذه المقاربة في التعامل معه تتمثل في مسألة: لو نظر الجميع بشكل طبيعي إلى الأمر بالطريقة نفسها، لما دُجِّنَ الخنزير في الأصل، ولا استمر أكله بشهية في أنحاء كثيرة من العالم. في الواقع، تتمرغ الخنازير في برازها وبولها فقط عندما تُحرم من مصادر بديلة للرطوبة الخارجية الضرورية لتبريد جسمها عديم الشعر والتعرق. وأيضًا، ليس الخنزير الحيوان الوحيد الذي، لو أتيحت له الفرصة، يلتهم غائط الإنسان (الماشية والدجاج، على سبيل المثال، تبدي تمنعًا طفيفًا في هذا الشأن).

أما الرأي القائل بأن الخنزير حُرِّم لأن لحمه كان ينقل الطفيليات التي تسبب داء الشعرية فينبغي أن ينحّى جانبًا. فقد أظهرت دراسات وبائية حديثة أن الخنازير التي تربى في مناخات حارة نادرًا ما تنقل داء الشعرية. ومن جهة أخرى، الماشية «النظيفة» والغنم والماعز هي ناقل طبيعي للجمرة الخبيثة والحمى المالطية وأمراض بشرية أخرى خطيرة بمقدار خطر ما ينقله الخنزير، إن لم يكن أكثر.

اعتراض آخر نشأ ضد التفسير البيئي لتحريم الخنزير عند الإسرائيليين هو أن هذا التفسير يفشل في الأخذ في الاعتبار أن لحوم حيوانات أخرى كثيرة حُرِّمت في العهد القديم. في حين أن تحريم الخنزير في الحقيقة ليس إلا واحدًا من جوانب نظام شامل للقوانين الغذائية، يمكن أيضًا تفسير تضمين كائنات أخرى محرمة وفق المبادئ العامة للتكلفة/ المنفعة الملخصة سابقًا في هذا الفصل. فأغلبية الكائنات المحرمة كانت حيوانات برية يمكن الحصول عليها بالصيد فقط. وبالنسبة إلى شعب كانت معيشته تعتمد في الأصل على القطعان والدواب وزراعة الحبوب، فإن صيد الحيوانات – خصوصًا أن تلك الحيوانات أصبحت نادرة أو لا تعيش في الموئل المحلي – كان مقايضة زهيدة للتكلفة/ الجدوى.

لنبدأ بـ«... وَكُلُّ مَا يَمْشِي عَلَى كُفُوفِهِ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَاشِيَةِ عَلَى أَرْبَعٍ، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ..» (اللاويين. 11: 27). على الرغم من أنها غير محددة النوع، فإن الحيوانات «ذات الحوافر» يجب أن تتضمن في الأصل الحيوانات اللاحمة مثل القطط البرية والأسود والذئاب والثعالب. إن صيد مثل هذه الحيوانات كمصدر للبروتين يمثل صورة مصغرة لإنتاج اللحم عالي التكلفة/ منخفض الفائدة. إن حيوانات كهذه نادرة ونحيلة، ومن العسير إيجادها، كما يصعب اصطيادها.

ربما يتضمن تحريم الحيوانات ذات الحوافر أيضًا القطط والكلاب الداجنة. كانت القطط تدجن في مصر لتؤدي وظيفة محصورة جدًا في السيطرة على القوارض. وكان أكلها، إلا عند الضرورة، يجعل الحياة أفضل فقط للفئران والجرذان. (وفي ما يتعلق بأكل الفئران والجرذان، تقوم القطط بذلك بشكل أكثر كفاءة). كانت تستخدم الكلاب في الأصل للرعي والصيد. ومن ناحية إنتاج اللحم، أي شيء (غير العظام) يغذى به الكلب من الأفضل لو يذهب لإطعام بقرة أو عنزة.

ثمة صنف آخر من اللحم المحرم في سفر اللاويين يتضمن الحيوانات المائية التي لا زعانف أو حراشف لها؛ ما يعني أن ذلك يتضمن ثعبان الماء والمحار والحيتان والدلافين والكافيار والأنقليس والسلور. معظم هذه الكائنات، بالطبع، كان من المستبعد مصادفتها بأعداد كبيرة على حدود صحراء سيناء أو الهضاب اليهودية.

«الطيور (الطيور المحرمة كما هي مثبتة في سفر اللاويين):

وهذا ما لا تأكلون منه النسر والأنوف والعقاب. والحدأة والباشق والشاهين على أجناسه. وكل غراب على أجناسه. والنعامة والظليم والساف والباز على أجناسه. والبوم والكركي والبجع. والقوق والرخم والغواص. واللقلق والببغاء على أجناسه والهدهد والخفاش. (اللاويين. 11: 20). كل المذكورة أعلاه إما أن نيلها صعب، وإما نادرة، وإما ضئيلة القيمة الغذائية؛ بالكاد تبلغ قيمتها الغذائية ما تتوقع الحصول عليه من قضمة ريش.

بالعودة إلى صنف «الحشرات»، ورَدَ أن «كل الحشرات ذوات الأجنحة التي تمشي على أربع» محرمة باستثناء الجراد، والجدجد والجندب (في سفر اللاويين الجراد، الدبا، الحرجوان، الجندب)، «التي تقفز على الأرض». الاستثناءات على قدر عالٍ من الأهمية. فالجراد حشرات كبيرة الحجم وافرة اللحم؛ تظهر بأعداد كبيرة وتجمع بسهولة للأكل خلال ما يبدو أنها فترة جوع ناتجة عن الضرر الذي تُلحقه تلك الحشرات بالحقول والمراعي. كما أنها تتميز بنسبة فائدة عالية قياسًا إلى التكلفة.

هناك أيضًا تحريم الحيوانات التي «تجتر العشب»، ولكنها «مشقوقة الظلف»: «الجمل، والوبار، والأرنب البري». وحيوانات «مشقوقة الظلف»، ولكنها لا تجتر العشب، والمثال الوحيد عليها هو الخنزير.

الغرير كائن لا يدجن، ويبدو أنه يطابق الأنموذج العام للحيوانات الضارة المحرمة الأخرى. وعلى الرغم من أن الأرنب البري من الكائنات الضارة أيضًا، فإنني أتردد في إطلاق حكم على وضعه بالنسبة إلى التكلفة/ الفائدة. فبعد فترة امتدت آلاف السنين يصعب أن ننسب دورًا محددًا لهذه الكائنات في النظام البيئي المحلي. لكنني لا أعتقد بأنني يجب أن أبرهن على أن 100 في المئة من الكائنات الضارة المحرمة ينطبق عليها أنموذج التكلفة العالية/ الجدوى المنخفضة. كما لا أعترض على فكرة أن واحدًا أو اثنين من هذه الكائنات المذكورة في سفر اللاويين يمكن أن تحرم لا لأسباب بيئية، بل لتبرير تحيزات عشوائية أو لتلائم مبدأ مبهمًا ما يقضي بتحريم كل ما يشبه المحرَّم السابق أو للتعصب الأعمى أو لتتفق مع مفاهيم كهنة وأنبياء إسرائيل القديمة. أفضل أن تُطبق هذه الملاحظات على صنف الحيوانات التي تدعى «دبيب الأرض» أيضًا: ابن عرس والفأر والوزغة والحردون والتمساح والحرباء. فبعض هذه الكائنات، كالتمساح، ربما يبدو عديم الفائدة كمصدر للطعام لدى الإسرائيليين، مع أن ليس للمرء أن يكون متيقنًا حيال كائنات أخرى على اللائحة من دون دراسة مفصلة حول وضعها البيئي.

على الرغم من أن الجمل هو الحيوان الداجن الوحيد المذكور بشكل محدد بين غير مشقوقة الظلف وتجتر العشب، فقد تضمنت المصادر الحاخامية أيضًا

الخيول والقرود في التصنيف نفسه. الشيء المشترك بالفعل بين هذه الكائنات الثلاثة (وليس منها ما يجتر العشب) أنها حيوانات ضخمة التكاليف والفوائد اقتناها الإسرائيليون لخدماتها في النقل والجر. ولم تُقتَنَ الجمال أو الخيول بأعداد كبيرة. كان الحصان يستخدم بشكل أساسي لأغراض عسكرية وأرستوقراطية، بينما كانت الجمال مخصصة للتنقل ضمن القوافل في عمق الصحراء. ولا يمكن أي منهما أن يؤمن كميات كبيرة من البروتين الحيواني من دون التعارض مع وظيفته الأصلية. كانت القرود الحيوانات الأساسية عند الإسرائيليين التي تصيد بشكل جماعي، ولكن هذه أيضًا لا يمكن أن تذبح من أجل الطعام من دون خسارة اقتصادية كبيرة. بمعنى آخر، كانت الحيوانات الداجنة التي «تجتر العشب» ومشقوقة الظلف أعلى قيمة من أن تؤكل، لا أكثر.

باختصار: لا يوجد شيء في قائمة الكائنات المحرمة في سفر اللاويين يعارض التفسير البيئي لتحريم الخنزير. وحتى لو وجد أي شيء، يبدو الأنموذج بمجمله نهيًا عن مصادر اللحم باهظة الثمن أو غير الملائمة.

يظهر أن من الممكن ردّ الاضطراب في مسألة المحرمات الحيوانية إلى استغراق مبالَغ به في التعصب ضمن التاريخ الخاص لثقافات معينة جرّدت من سياقها المحلي ومن السيرورات التطورية العامة. لنأخذ هذه الحالة في الاعتبار، تحريم الخنزير عند الإسرائيليين قديمًا لا يمكن أبدًا تفسيره على نحو مرضٍ من منظور القيم والمبادئ التي كان يختص بها الإسرائيليون دون سواهم. لكن الحقيقة أن الإسرائيليين كانوا وحدهم دون سواهم من بين شعوب شرق أوسطية كثيرة من وجدوا الخنزير عبئًا آخذًا بالازدياد.

يتكرر تحريم الخنزير عبر المنطقة الواسعة بكاملها عند البدو الرعاة للعالم القديم؛ من شمال أفريقيا عبر الشرق الأوسط ووسط آسيا. ولكن في الصين وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا وماليزيا كان الخنزير ولا يزال مصدرًا معتمدًا للغاية للحصول على البروتين والدهون ضمن النظم الغذائية، كما ويتوفر في أوروبا المعاصرة ونصف الكرة الغربية. إن حقيقة تحريم الخنزير في مناطق رعوية كبيرة من العالم القديم، وفي عدد من الأودية النهرية المتاخمة لهذه المناطق، يوحي بأنه

يجب أن ينظر إلى محرمات الكتاب المقدس على أنها استجابة تكيفية مجدية فوق منطقة واسعة معرضة للتغيرات البيئية المتكررة الناتجة عن التكثيف والاستنزاف المرافق لنهوض الدول والإمبراطوريات القديمة.

حتى إن الإسرائيليين القدامى تشاركوا الاشمئزاز ذاته تجاه الخنزير مع أعدائهم الأبديين، الفراعنة. يقول هـ. إيبشتاين (H. Epstein)، وهو أحد المصادر البارزة في تاريخ تدجين الحيوان في أفريقيا:

> من مكانة بالغة الأهمية في بداية العصر الحجري الحديث انخفضت أهميته (الخنزير) بالتدريج، وهناك وثائق تعود إلى فترة حكم السلالات تكشف عن نشوء تحيز متزايد ضده.

خلال أزمنة حكم السلالات الوسطى (2000 ق. م) اقترنَ الخنزير لدى الفراعنة بسيت، إله الشر. مع أن تربية الخنزير استمرت إلى ما بعد حكم السلالات، لم يفقد الفراعنة تحيزهم ضد لحم الخنزير. كان مربّو الخنازير أعضاء من طبقة معزولة. استعملوا قطعانهم لدوس البذور في سهل أرض النيل كجزء من عملية الزراعة، وهذه الوظيفة المفيدة – مع توافر الأراضي الرطبة الدائمة والمستنقعات في دلتا النيل – ربما ساعدت في تعليل الأكل العرضي للحم الخنزير في مصر حتى مجيء الفتح الإسلامي. مع ذلك، بحسب هيرودوتس، كان مربّو الخنزير يشكلون الطبقة الأكثر وضاعةً في مصر، وعلى عكس الجميع، كان يمنع دخولهم إلى المعابد.

أمر مشابه يبدو أنه حدث في بلاد ما بين النهرين. وجد علماء الآثار نماذج طينية لخنازير داجنة في المستوطنات الأولى لبلاد ما بين النهرين الدنيا في الألفيتين الثالثة والرابعة قبل الميلاد. فحوالى 30 في المئة من عظام الحيوانات المستخرجة بالحفر من تل أسمر (2800–2700 ق. م) تعود إلى الخنازير. كان لحم الخنزير يؤكل في أور في أزمنة ما قبل حكم السلالات. وفي أوائل حكم السلالات السومرية كان هناك مربّو خنازير مختصون وجزارو خنازير. لكن بعد عام 2400 ق. م، أصبح لحم الخنزير صريح التحريم ولم يؤكل بعد ذلك.

يتزامن اختفاء الخنزير من النظام الغذائي لشعوب ما بين النهرين مع استنزاف بيئي حاد وانخفاض في الإنتاجية في سومر الدنيا، مهد الدول الشرق أوسطية القديمة. على مدى 1500 سنة مرت الزراعة السومرية بتكثيف مستمر تضمن بناء قنوات للري مُدَّتْ من مياه الطمي التي جُلبت من نهري دجلة والفرات. ولم تكن نسبة الملوحة في مياه الري مؤذية عندما كانت المياه تُنضَح مباشرة إلى السطح. في أي حال، رفعَ ريّ الحقول المتواصل من منسوب المياه الجوفية. وبعوامل الارتشاح الشعريّ الدقيق كان الملح المتراكم يطفو إلى السطح، جاعلًا ملايين الفدادين غير صالحة لزراعة القمح. وكان الشعير، وهو أكثر مقاومة للملوحة من القمح، يزرع في مناطق أقلّ تضررًا. ولكن سومر أصيبت بالإنهاك الاقتصادي التدريجي، ما أدى إلى انهيار الإمبراطورية السومرية الأخيرة، ثالث سلالة حاكمة لـ أور. وفي عام 1700 ق. م اختفى القمح نهائيًا في الجنوب. منذ ذلك الحين تحول مركز السكان إلى الشمال في حين بدأت بابل بالنهوض في ظل حمورابي. وحتى ذلك العظيم «الواهب للثراء الوافر» لم يكن بمقدوره تحمل المواظبة على إطعام لحم الخنزير لشعبه.

مع مجيء الإسلام، اندمج التحريم الإسرائيلي القديم مباشرة في سلسلة أخرى إضافية من قوانين دينية رادعة تختصّ بالغذاء. استبعد الخنزير لازدراء خاص شمله القرآنُ، واليوم يعارض المسلمون أكل لحم الخنزير كما يعارضه اليهود الأرثوذكس. يصادف احتواء القرآن على برهان صغير مهم لدعم التفسير البيئي للتكلفة/الفائدة للتحريم الحيواني. أبقى النبي محمد على التحريم الإسرائيلي للخنزير، ولكنه حرر أتباعه بشكل صريح من تحريم أكل لحم الجمل. كان الرعاة العرب، الداعمون الأوائل لمحمد، بدوًا رحّلًا على الجمال يعيشون في واحات صحراوية حقيقية وكانوا في الأغلب مجبرين على القيام برحلات طويلة عبر أراضٍ قاحلة حيث كان الجمل الكائن الداجن الوحيد الذي يمكنه الصمود. وفي حين كان الجمل أعلى قيمة من أن يؤكل بشكل دوري، كان أيضًا ذا قيمة عالية تؤهله على ألا يؤكل نهائيًا. تحت ظروف طارئة مرافقة لحملات عسكرية وقوافل تجارية على مسافة بعيدة، غالبًا ما كان لحمه يعني الحدّ الفاصل بين الحياة والموت.

عند هذه النقطة أود أن أوضح أمرًا لا أرغب في رؤيته محرفًا. حين أردُّ أصلَ الأفكار الدينية إلى التكلفة/ الجدوى للعمليات البيئية، لا أقصد إنكار أنه يمكن للأفكار الدينية بذاتها أن تمارس بدورها تأثيرًا في التقاليد والأفكار. كان سفر اللاويين والقرآن معنيين بتطوير سلسلة مترابطة من المبادئ الدينية. ما إن تمت صياغة هذه المبادئ، حتى أصبحت جزءًا من الثقافة اليهودية والإسلامية عبر العصور وبلا شك أثرت في سلوك اليهود والمسلمين الذين عاشوا بعيدًا من مواطنهم في الشرق الأوسط. وبات من المحتمل أن تدوم محرمات الأكل وتفاصيل الطهو كعلامات فاصلة بين الأقليات الإثنية والقومية وكرموز لهوية جماعاتية تمييزًا لها عن أي خيار بيئي قائم يلائم أو يعارض وجودها. ولكنني لا أعتقد أن معتقدات وممارسات كهذه تستمر طويلًا فيما لو نتجت في ظروف ارتفاع حادّ لتكاليف المعيشة. وكما تقول ملاحظات شيربورن كوك حول طقوس الأزتك بما معناه، ليس هناك من دافع ديني بحت قادر على أن يعارض مقاومة بيئية واقتصادية أساسية لردح طويل من الزمن. أشك في أن المحافظين من يهود أو مسلمي اليوم يعانون نقصًا في البروتين نتيجة ازدرائهم لحم الخنزير. (يعاني ملايين المسلمين نقصًا حادًّا في البروتين، ولكن أيًا منهم لم يقترح رابطًا سببيًا بين تحريم لحم الخنزير والتخلف والفقر في مصر أو باكستان). لا أدّعي أن تحليل التكاليف والفوائد البيئية يمكن أن يؤدي إلى تفسير كل معتقد وممارسة في كل ثقافة وجدت يومًا. كثير من المعتقدات البديلة ومناهج السلوك ليس لديها تقاطع واضح للفوائد والمضار بالنظر إلى رفع أو خفض مستويات العيش. أضف إلى ذلك، أعترف بتقبّلي أن هناك دائمًا ما يشبه تبادل التأثير بين الشروط التي تقدِّر التكاليف والفوائد الاقتصادية والبيئية وبين المعتقدات والممارسات الدينية. ولكنني أؤكد مستعينًا بدليل ما قبل التاريخ والتاريخ أن القوة التي فرضتها حتى اليوم كلٌّ على الآخر لم تكن متساوية. تغيرت الأديان عمومًا لتلائم الحاجة إلى خفض التكاليف وزيادة المنافع إلى الحد الأعلى كنضال للحفاظ على مستويات العيش من الهبوط؛ والحالات التي تغيّر فيها نظام الإنتاج لمواكبة متطلبات المنظومات الدينية المتغيرة بغض النظر عن اعتبارات التكلفة/ الجدوى إما أنها لا توجد وإما أنها نادرة للغاية. إن الرابط بين استنزاف البروتين الحيواني من جهة، وممارسة التضحية بالبشر وأكل لحوم البشر، نشوء

ولائم توزيع إكليريكية، وتحريم لحوم حيوانات معينة من جهة أخرى، يثبت الأولوية السببية الواضحة للتكاليف والمكاسب المادية على المعتقدات الروحية؛ ليس بالضرورة في كلّ الأزمنة، ولكن، تقريبًا، بالتأكيد تنطبق على الحالات المعنية.

يبقى رابط آخر في هذه السلسلة في قيد البحث: أعني، كيف حدث أن بشائر الهند النيوليتية باللحم للجميع انتهى بفرض النظام الهندوسي حرمانَ الجميع منه.

المراجع والملاحظات

البيانات المتعلقة بإنتاجية النباتات مقابل الحيوانات مأخوذة من المجلس الوطني للبحوث: National Research Council, *Agricultural Production Efficiency* (Washington, DC: National Academy of Sciences, 1974), p. 111.

لمناقشة الدور الغذائي للبروتين يُنظر: C. M. Taylor & O. F. Pye, *Foundations of Nutrition*, 6th ed. (New York: Macmillan, 1966); FAO/WHO, «Energy and Protein Requirements,» FAO Nutrition Meetings Report Series, no. 52 (Rome: Food and Agricultural Organization of the United Nations, 1973).

لمعرفة كفاءة وفيزيولوجيا الخنزير يمكن الرجوع إلى المجلس الوطني للبحوث: National Research Council, *Agricultural Production*; W. G. Pond & J. H. Manes, *Swine Production in Temperate and Tropical Environments* (San Francisco: Freeman, 1974); Lawrence Mount, *The Climatic Physiology of the Pig* (London: Edward Arnold, 1968).

للأدلة الأثرية على الخنزير المدجَّن، يُنظر إبشتاين: H. Epstein, *The Origin of the Domestic Animals of Africa* (New York: Africana Publishing Corporation, 1971), vol. 2, pp. 349-350; P. Ducos, «Methodology and Results of the Study of the Earliest Domesticated Animals in the Near East (Palestine),» in: Peter Ucko & G. W. Dimbleby (eds.), *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals* (Chicago: Aldine, 1969); Frederic Zeuner, *A History of Domesticated Animals* (New York: Harper & Row, 1963).

يُنظر: Eric Ross, «Food Taboos, Diet and Hunting Strategy: The Adaptation to Animals in Amazon Cultural Ecology,» *Current Anthropology* (in press 1976).

للاطلاع على نظرية التابوهات السائدة على الحيوانات التي يتمّ اصطيادها. يُنظر: Zeuner, *A History*, pp. 134-135; R. D. Whyte, «Evolution of Land Use in Southwestern Asia,» in: L. D. Stamp (ed.), *A History of Land Use in Arid Regions* (UNESCO Arid Zone Research, 1961), vol. 17, pp. 69-76; Reifenberg (1955): A. Reifenberg, «The Struggle between the Desert and the Sown,» Desert Research Proceedings, International Symposium held in Jerusalem, May 1952 (Jerusalem: Research Council of Israel Special Publication, 1953),

للاطلاع على الآثار البيئية للتكثيف في الشرق الأوسط. يُنظر: Alexander Alland, «Adaptation,» *Annual Review of Anthropology*, vol. 4 (1974), p. 67.

لنقد نظرية الخنزير. يُنظر: Epstein, *The Origin of the Domestic*, p. 342.

للخنازير في مصر؛ يُنظر: Ibid., p. 354; Jaquetta Hawkes, *The First Great Civilizations* (New York: Alfred A. Knopf, 1973), p. 101,

للخنزير في بلاد ما بين النهرين. يُنظر: Whyte (1971); Thorkild Jacobsen & R. Adams, «Salt and Silt in Ancient Mesopotamian Agriculture,» *Science*, vol. 128 (1958), pp. 1251-1258.

بشأن مشكلة الطمي والملوحة. يُنظر: Cuyler Young, «Population Densities and Early Mesopotamian Origins,» in: Peter Ucko, G. W. Dimbleby & R. Tringham (eds.), *Man, Settlement and Urbanism* (London: Duckworth, 1972),

للاطلاع على التكثيف في بلاد ما بين النهرين القديمة.

12

أصل البقرة المقدسة

في الهند اليوم، يتناول المنبوذون[1] دون سواهم اللحم الأحمر بكل حرية. تحصر الطبقة الهندوسية العليا والمحافظة أنظمتها الغذائية في الأطعمة النباتية ومنتجات الألبان. أكل اللحم هو دائمًا أمر غير محبذ، ولكن الأكثر سوءًا هو أكل لحم الأبقار. تشعر الطبقة الهندوسية العليا حيال أكل لحم الأبقار كما يشعر الأميركي حيال أكل كلب البودل الخاص بالعائلة. ومع ذلك يومًا ما كان اللحم، وعلى الخصوص لحم الأبقار، يستهوي سكان الهند بقدر ما يستهوي الهمبرغر وشرائح اللحم اليوم سكان أميركا الشمالية.

كانت الحياة القروية في الهند خلال العصر الحجري الحديث تعتمد على منتجات الحيوانات الداجنة ومحاصيل الحبوب. وكفلاحي الشرق الأوسط، كان الهنود القدامى يربون الماشية والأغنام والماعز إضافة إلى زراعة القمح والذرة البيضاء والشعير. ونحو عام 2500 ق. م، عندما بدأت أوائل المستعمرات الكبيرة بالظهور على طول نهر السند وروافده، كانت النزعة النباتية لا تزال بعيدة من الوجود. وقد وُجدت بين حطام المدن القديمة – هارابا وموهينجو دارو – عظام نصف مدفونة لماشية من الغنم والماعز مع أنقاض المطابخ. وفي المدن نفسها، وجد علماء الآثار أيضًا عظام خنازير وجاموس ماء ودجاج وفيلة وجمال.

---

(1) أدنى الطبقات في النظام الطبقي الهندوسي. (المترجم)

يبدو أن مدينتي هارابا وموهينجو دارو، المشهورتين بالأبنية المعمرة من حجر الطوب وممراتهما وحدائقهما الواسعة، قد هُجرتا بعد عام 2000 ق. م بفترة، إلى حد ما، نتيجة كوارث بيئية تتضمن تغيرات في مجرى قنوات النهر التي كانتا تعتمدان عليها في الري. وفي ظرفهما الضعيف أصبحتا عرضة لهجوم «القبائل البربرية» المتنقلة إلى الهند من بلاد فارس وأفغانستان. وكان هؤلاء المحتلون، المعروفون بالآريين، مشتتين، ومزارعين – رعاة شبه رحّل استوطنوا في البداية في البنجاب، ولاحقًا توسعوا باتجاه وادي الغانج. كانوا شعبًا من العصر البرونزي المتأخر، ويتحدثون لغة تسمى الفيدية، اللغة الأصل للغة السنسكريتية، وكان نمط حياتهم يشبه إلى حد كبير يشبه نمط حياة اليونانيين قبل هوميروس والتيتانيين والسلت ما وراء حدود مراكز التشكُّل للدولة في أوروبا وجنوب غرب آسيا. ومع انهيار هارابا وموهينجو دارو، سيطر المحتلون على أفضل الأراضي، أزالوا الغابات، وبنوا قرى دائمة، وأسسوا سلسلة من الممالك الصغيرة حيث نصبوا أنفسهم حكامًا على سكان المنطقة الأصليين.

يأتي جلّ معلوماتنا حول ما كان يأكله الآريون من النصوص المقدسة المكتوبة بالفيدية والسنسكريتية خلال النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد. تُبيّن هذه المدوَّنة أنهم خلال العصر الفيدي القديم – حتى عام 1000 ق. م – كانوا يتغذون على لحوم الحيوانات، ومن بينها لحوم الأبقار بشكل دائم وبتذوق كبير. تضمن استقصاء علماء الآثار في هاستينابور فرضيةً قوية تقول أيضًا إن الماشية والجاموس والأغنام كانت ضمن الحيوانات التي اعتاد أكلها هؤلاء المستوطنون القدماء في سهل الغانج.

في دراسته الموثوقة، «الطعام والشراب في الهند القديمة»، يختصر أوم براكاش (Om Brakash) الحالة في العصر الفيدي المبكر كما يلي:

> تدعى النار آكلة الثيران والأبقار العاقر. يتضمن تقديم لحم القربان الشعائري أكل الكهنة له. يقدم الماعز أيضًا كقربان إلى النار كي يحمل إلى الأسلاف. قتلت بقرة عقيم أيضًا في موعد زواج من أجل الطعام كما هو واضح... بيت الذبح مذكور أيضًا. لحم الخيول والكباش والأبقار العواقر والجواميس كان يطبخ. من المرجح أن لحم الطيور كان يؤكل أيضًا.

في الحقبة الفيدية المتأخرة،

> تضمّن العرْفُ قتلَ ثور كبير أو ماعز كبير لإطعام ضيف مميز. أحيانًا كانت تقتل بقرة أجهضت أو بقرة عقيم أيضًا. يُلمحُ «أتيثيغفا» أيضًا أن الأبقار تذبح أيضًا من أجل الضيوف. كثير من الحيوانات: أبقار، أغنام، ماعز وخيول استمر قتلها في الأضاحي، وكان لحم هذه الحيوانات القربانية يأكله المشاركون.

تتضمن النصوص الفيدية المتأخرة والهندوسية المبكرة تناقضات كثيرة في ما يتعلق باستهلاك لحوم الأبقار. فإلى جانب رسوم عدة للماشية المُعَدة للتضحية هناك مقاطع تدل على أن الأبقار يجب ألا تذبح أبدًا، وأن أكل لحمها يجب أن يحرم بتاتًا. بعض المصادر الموثوقة – أ. ن. بوز (A. N. Bose)، على سبيل المثال – تدّعي أن هذه التناقضات يمكن تفسيرها بشكل أفضل بفرضية أن علماء الهندوس المتعصبين قاموا بتحريف نصوص الامتناع عن أكل لحم البقر، والامتناع عن ذبح البقر في تاريخ متأخر. يشعر بوز أن «لحم الأبقار كان اللحم الأكثر شيوعًا في استهلاكه» خلال معظم الألفية الأولى قبل الميلاد. لعلّ الحل الأقل جدلًا لهذه التناقضات في النصوص المقدسة أنها كانت تعكس تغيرات تدريجية في المواقف على مدى فترة طويلة بدأ الناس خلالها أكثر فأكثر يرون في أكل الحيوانات الداجنة – خصوصًا الأبقار والعجول – أمرًا بغيضًا.

ما يبدو واضحًا وضوح الشمس أنه كان لدى ممالك وادي الغانج في أوائل العصر الهندوسي وأواخر العصر الفيدي طبقة كهنوتية نظيرة للاويين بين الإسرائيليين القدامى والدرويديين بين السلت. وكان أعضاؤها يسمون البراهمة. وهناك وصف مسهب لواجبات البراهمة في أعمال سنسكريتية معروفة مثل «براهماناس» و«سوتراس». ليس من مجال للشك في أن الحياة الشعائرية البراهمية الأولى، كتلك التي للدرويديين واللاويين (والمتخصصين الدينيين الأوائل من كل دويلة وزعامة امتدت بين إسبانيا واليابان)، كانت تركز على التضحية بالحيوان. وكمثل نظرائهم في العالم القديم بأسره، كان البراهمة الأوائل يتمتعون باحتكار لتقديم تلك الطقوس والتي من دونها لا يمكن أن يؤكل لحم الحيوان. وكان البراهمة، بحسب الـ «سوترا» الوحيدين المخوّلين بالتضحية بالحيوان.

تشير نصوص الـ «سوترا» إلى أن الحيوانات يجب ألا تقتل إلا قرابين للآلهة وفي «حسن ضيافة» واسعة، وأن «تقديم وتلقي الهدايا» هي واجبات خاصة بالبراهمة. تضاعف هذه الفروض تمامًا المؤن المنظمة لاستهلاك اللحوم على وجه الخصوص والتي هي خاصية لدى المجتمعات التي تتشارك فيها الولائم والتضحية بالحيوانات الفاعلية ذاتها. لم يكن «الضيوف» المكرمون في المضافة الفيدية القديمة حفنة من الأصدقاء الذين يقومون بالزيارة لغرض العشاء، بل قرى بكاملها ومقاطعات. ما تخبرنا به الـ «سوترا»، بمعنى آخر، أن البراهمة كانوا في الأصل طبقة من الكهنة يرأسون مظاهر طقسية لولائم توزيع يرعاها زعماء آريون وأسياد حرب.

بعد عام 600 ق. م وجد البراهمة وأسيادهم الدنيويون صعوبة متزايدة في سد حاجة الشعب للحوم الحيوانات. وككهنة وحكام الشرق الأوسط وأماكن أخرى، عجزوا عن المحافظة على معدلات مرتفعة من ذبح الحيوانات وسخاء توزيع من دون إسراف في أكل الحيوانات التي دعت الحاجة إليها لحرث وتسميد الحقول. نتيجة ذلك، أصبح أكل اللحم حكرًا على مجموعة مختارة تشمل البراهمة وآريون آخرون من طبقة عليا، بينما لم يمتلك القرويون العوام، بافتقارهم القدرة على دفع الضرائب أو مصادرة حيوانات أشخاص آخرين، خيارًا إلا أن يحافظوا على حيواناتهم الداجنة للجرِّ، وإنتاج الحليب والسماد. وبدأ البراهمة بالتدريج يصبحون جزءًا من نخبة أكلة اللحوم والذين تحول احتكارهم إلى امتياز لذبح الحيوانات لولائم التوزيع، ثم إلى احتكار لامتياز أكلها. بعد أن أصبح الناس العاديون في شمال الهند نباتيين فعليًا بوقت طويل، واصلت الطبقات الهندوسية الأعلى – لاحقًا أكثر المؤيدين حماسًا للأنظمة الغذائية الخالية من اللحوم – في الإقبال بشهية على لحم الأبقار وأنواع أخرى من اللحوم.

أؤسس نقاشي حول الفجوة المتسعة بين الطبقة الأرستقراطية المدللة التي تأكل اللحم وطبقة المزارعين المفقرة التي لا تأكل اللحم على واقع أنه عند منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد بدأ عدد من الأديان الجديدة بتحدي شرعية طبقة البراهمة وطقوس التضحية لديها. من بين هذه الأديان الإصلاحية، الأكثر

شهرة هما البوذية والجينية. وقد أسسهما رجلا دينٍ مؤثرين، حظرت كلا البوذية والجينية الفروق الطبقية، أبطلتا الكهنوتية الوراثية، وجعلتا الفقر شرطًا مسبقًا للروحانية، ناصرتا الصلة بالأساس الروحي للكون عبرَ التأمل أكثر مما هي عبر التضحية بالحيوانات. في إدانتهما العنف والحرب والقسوة وتعاطفهما لمعاناة البشر، استَبَقَتْ كلا هاتين الحركتين المبادئ الرئيسة للمسيحية.

بالنسبة إلى البوذيين، كانت الحياة بأسرها مقدسة، على الرغم من أنها قد توجد في أشكال عليا ودنيا. وبالنسبة إلى الجينيين، لم تكن الحياة في ذاتها مقدسة، بل إنها تندمج في روح شاملة: ليس هناك أشكال عليا ودنيا. في كلتا الحالتين، لم يكن الكهنة الذي ضحوا بالحيوانات أفضل من القتلة. أجاز البوذيون أكل لحم الحيوان، شريطة ألا يكون الآكل شريكًا في القتل. في أي حال، شجب الجينيون قتل جميع الحيوانات، وأكدوا نظامًا غذائيًا نباتيًا محضًا. حتى إن بعض أتباع الطوائف الجينية آمنوا بضرورة توظيف كناسين لإخلاء الطريق أمامهم حتى يتجنبوا ذنب القتل العارض لمجرد نملة.

كما أشرت سابقًا، تزامن انتهاء التضحية بالحيوان مع نشوء أديان روحية عالمية. ومع عجز «الوهابين» السابقين المتزايد عن تثبيت حكمهم الملكي من خلال العروض العامة للسخاء المبالَغ به، توجّه الناس للبحث عن «التوزيع» في الحياة الآخرة أو في حيّز جديد من الوجود. أوضحت أيضًا أن صورة الحاكم كحام للضعيف ضد القوي برزت كممارسة للكفاءة السياسية خلال فترات التوسع الإمبراطوري. بذلك كانت البوذية، كالمسيحية، في أكمل حالاتها لأن تُتخذ كدين إمبراطوري. لقد أضفت الروحانية على واجبات الإمبراطور في الوقت نفسه الذي ألزمت فيه الطبقة الأرستوقراطية في أن تظهر العطف على الفقراء والمساكين. هذا يفسر، في اعتقادي، لماذا أصبحت البوذية ديانة رسمية في ظل أزوكا، واحد من أقوى الأباطرة في تاريخ الهند. أزوكا، وهو حفيد مؤسس سلالة موريا في شمال الهند، تحول إلى البوذية في عام 257 ق. م. وسرعان ما شرع هو وذريته بإحداث أول وأكثر إمبراطورية هندية استقرارًا؛ مملكة على مساحة مضطربة امتدت لأمد وجيز من أفغانستان إلى سيلان. لذلك من المحتمل أن يكون أزوكا أول إمبراطور في التاريخ عمل على إخضاع العالم باسم دين يدعو إلى السلام الشامل.

في ذلك الحين، كانت الهندوسية متأثرة بعمق بالأديان الجديدة، وبدأت باعتماد بعض الإصلاحات ذاتها التي جعلت من قرينتها البوذية ناجحة سياسيًا. ورويدًا رويدًا، بدأت المعارضة الواسعة للتضحية بالحيوان تتمظهر في الهندوسية بمذهب أهيمسا؛ اللاعنف على أساس قدسية الحياة. ولكن هذا التغير لم يطرأ دفعة واحدة أو يتقدم في اتجاه واحد. فبعد انهيار السلالة المورية في عام 184 ق. م، انتعشت البراهمية وازدهر أكل اللحم بين النخبة من جديد. وفي نحو عام 350م، بحسب براكاش، كانت «لحوم حيوانات عدة» تقدم إلى البراهمة في **سرادها**، وهي احتفالات التوزيع في إحياء ذكرى الأموات. «يذهب الكروما بورانا إلى حد القول إن من لا يتناول اللحم في **سرادها** سيُبعَث حيوانًا المرة تلو الأخرى».

لا يمكن البتّ بدقة متى أصبحت الأبقار والثيران أهدافًا بارزة للتبجيل بين البراهمة والهندوس الآخرين من الطبقة العليا. من المستحيل تحديد تواريخ معينة لتبدّل أحوال الطقوس الهندوسية لأن الهندوسية ليست ديانة منظمة موحّدة، بل عددًا كبيرًا من الطوائف المتآلفة قليلًا والتي تتمركز في معابد مستقلة وأضرحة وآلهة وطبقات، ولكل منها خصوصياتها الشعائرية والمذهبية. أحد المصادر، س. ك. مايتز (S. K. Maitz)، يدّعي أن البقرة أصبحت الحيوان الأكثر قدسيةً بحلول عام 350م، ولكن دليله تمثّل في شطرة وحيدة من قصيدة ملحمية تصف ملكًا ما وملكته بأنهما «يبجلان الأبقار بصمغ الصندل والأكاليل.» هناك أيضًا مخطوط للملك شاندراغوبتا الثاني، مؤرخ عام 465م، يساوي فيه بين قتل البقرة وقتل البراهمي. لكن وجهة نظر الهندوس المعاصرين ربما تكون دخيلة. في ما بعد، أصدر أباطرة غوبتا تشريعات ملكية تهدف إلى منع استهلاك العامة عددًا من الحيوانات. ووضع الملوك الهندوسيون الخيول والفيلة تحت وصايتهم كالأبقار. فكللوا حيواناتهم، غسلوها وزودوها بإسطبلات مكسوة بالسجاد، وأطلقوها لتطوف في محميات تحت الرقابة. ربما بعد عام 700م والفتح الإسلامي للهند اكتسب مركب البقرة المقدسة شكله المعاصر المألوف. فلم يكن لدى أتباع الإسلام رادع عن أكل لحم الأبقار. من هنا، في ظل المغول، الأباطرة الإسلاميين للهند، ربما أصبحت حماية البقرة رمزًا سياسيًا للمقاومة الهندوسية ضد المحتلين المسلمين أكلة لحوم الأبقار. في كل الأحوال، وعلى نحو تدريجي، أصبح البراهمة – الذين كانوا

على مدى قرون مضحين ومستهلكين للحم الحيواني – يعتبرون أن من واجبهم المقدس منع ذبح أي حيوان داجن، وخاصة الأبقار والثيران، أو أكله.

بحسب حدود معرفتي، لم يحدث أن قدّم أحدٌ تفسيرًا منطقيًا لمَ أصبحت الهند، على عكس الشرق الأوسط أو الصين، مركزًا لدين حظر استهلاك لحم الأبقار وبجل البقرة كرمز للحياة. فلنتأمل إذًا إن كانت المبادئ العامة المتعلقة بإقامة المحرمات الحيوانية التي اقترحتها في الفصل السابق ملائمة هنا. كانت الممارسات والمعتقدات الهندية القديمة بدايةً تشبه المعتقدات والممارسات الشائعة في معظم أوروبا وآسيا وأفريقيا الشمالية. وكما هو متوقَّع، أدى التحولُ العام من التضحية بالحيوان وإعادة توزيعها إلى تحريم استهلاك الأنواع التي كانت في السابق وافرة وذات قيمة إلى تكثيف الزراعة، واستنزاف الموارد وازدياد الكثافة السكانية. ولكن هذه التعميمات لا تفسر التشدد الخاص على الماشية، ثم النزعة النباتية في الهند أو المركّبات الدينية الخاصة المتعلقة بالحيوانات في مناطق أخرى.

أرى أن البداية كانت من وادي الغانج، حيث يظهر أن معدل النمو السكاني كان أكبر بكثير منه في الشرق الأوسط، أو في أي مكان آخر من العالم القديم. كان عدد السكان خلال العصر الفيدي ضئيلًا وسكنوا متناثرين في قرى صغيرة. وفي نحو عام 1000 ق. م كانت الكثافة السكانية منخفضة ما يكفي لأن تتيح لكل عائلة امتلاك عدد من الحيوانات (تذكر النصوص الفيدية أربعة وعشرين ثورًا مربوطًا إلى محراث واحد)، وكما في أوروبا ما قبل روما كانت الماشية تعتبر الأنموذج الأساسي للثروة. بعد أقل من 700 سنة تالية رجّح أن الغانج أصبح المنطقة الأكثر كثافة سكانية في العالم. تعطي تقديرات كينغسلي ديفيس وآخرون الهندَ عدد سكان راوح بين 50 و100 مليون في عام 300 ق. م. ولا بد من أن نصف هذا العدد الإجمالي على الأقل كان يستوطن وادي الغانج.

نعلم أن خلال الفترة الفيدية القديمة كان وادي الغانج لا يزال مغطى بغابات عذراء. بالكاد بقيت شجرة مع حلول عام 300 ق. م. وبينما كان الري مؤمَّنًا بشكل وافٍ لعائلات زراعية عدة، كان ملايين المزارعين يتلقون كميات شحيحة

من المياه، أو قد لا يصلهم شيء على الإطلاق. وبسبب تقلب الأمطار الموسمية، كان من المجازفة دائمًا الاعتماد على هطول الأمطار وحدها. زاد الجفاف خطر التصحر بلا شك. وزاد أيضًا خطورة الفيضانات التي يحدثها نهر الغانج المقدس عندما ترمي الرياح الموسمية هطولًا مطريًا غزيرًا دفعة واحدة على سفوح جبال هيمالايا. وحتى اليوم تشكل فترات الجفاف التي تمتد في الهند لموسمين أو ثلاثة مواسم متتالية خطرًا على حياة ملايين الناس الذين يعتمدون على المطر لسقاية محاصيلهم. من «**ماهابهاراتا**»، وهي قصيدة ملحمية ألفت في فترة بين عامي 300 ق. م و300م، نعلم أن إحدى فترات الجفاف دامت اثنتي عشرة سنة. تروي القصيدة كيف أن البحيرات والآبار والينابيع جفت، وكيف أنه كان لا بد من هجر الزراعة وتربية المواشي. وتُركت الأسواق والمحال خاوية. وصلت التضحية بالحيوان إلى أقصاها، حتى الأوتاد التي تربط إليها اختفت. لم يكن هناك احتفالات. وشوهدت في كل مكان أكوام العظام وتردد صراخ الكائنات الحية. غادر الناس المدن. وهجرت القرى وأحرقت. فرّ الناس بعضهم من بعض. كان كلٌّ يخشى الآخرَ. هجرت أماكن العبادة. اقتيد العجائز من ديارهم. تحولت الماشية والماعز والأغنام والجواميس إلى وحوش شرسة تهاجم بعضها. حتى البراهمة ماتوا بلا حماية. ذبلت الأعشاب والنباتات. بدت الأرض مثل محرقة و«في ذلك العصر المخيف حين آلت القيم إلى زوال، بدأ الرجال يأكل بعضهم الآخر».

بينما ازدادت الكثافة السكانية، تقلّصتِ المزارع أكثر وكانت الكائنات الداجنة ذات الأهمية القصوى دون سواها هي التي يمكن إشراكها في الأرض. كانت الماشية من الكائنات التي لا يمكن استبعادها. فهي حيوانات الحراثة، الحراثة التي كانت تعتمد تكتمل بها دورة الزراعة المطرية. كان يجب في الأقل الإبقاء على ثورين لكل عائلة، إضافة إلى بقرة واحدة لتلقيحها واستيلاد البدائل عندما تخور قوى الثيران. بذلك تركز الاهتمام الديني على تحريم أكل لحوم الماشية. وبما أنها كانت الحيوانات الزراعية الوحيدة الباقية، كان من المحتمل أنها المصدر الوحيد المتبقي للحوم. وذبحها من أجل لحومها، في أي حال، ينطوي على تهديد لأسلوب إنتاج الغذاء بكامله. ولذلك حرم لحم الأبقار للسبب نفسه الذي حرم لأجله لحم الخنزير في الشرق الأوسط: لإزالة الإغراء.

يعكس التحريم الخاص بلحم الخنزير والأبقار، في أي حال، أدوارًا بيئية مختلفة للكائنين. كان الخنزير مكروهًا؛ وكانت البقرة مؤلَّهة. يبدو سبب هذا الوضع واضحًا نتيجة لما قلته عن أهمية الماشية في الدورة الزراعية. عندما أصبح الخنزير أكثر كلفةً من أن يربى من أجل لحمه، اعتبر الحيوان بذاته عديم الفائدة – بل أسوأ من أن يكون عديم الفائدة – لأنه كان صالحًا فقط كشيء يؤكل. ولكن حين أصبحت الماشية مكلفة جدًا لتربيتها من أجل لحمها، فإن قيمتها كمصدر للجر لم تنقص. من هنا وجبت حمايتها بدلًا من كراهيتها، وأفضل طريقة لحمايتها لم تكن في منع أكل لحمها فحسب، بل في منع ذبحها. كان للإسرائيليين القدامى مشكلة في منع التحول عن الحبوب إلى إنتاج لحم الخنزير. كان الحل هو التوقف عن تربية الخنازير. ولكن لم يكن باستطاعة الهندوس القدامى الكف عن تربية الماشية بما أنهم يستخدمون الثيران لحرث الأرض. ولم تكن مشكلتهم الرئيسة كيف يحجمون عن تربية كائنات معينة، بل كيف يحجمون عن أكلها عندما يجوعون.

إن تحول لحم الأبقار إلى لحم محرم له أصوله في الحياة العملية للمزارعين الأفراد. لم يكن نتاج بطل ثقافي خارق ولا عقل اجتماعي مشترك مستغرق في تكلفة/ جدوى إدارة مصادر بديلة. لم يوجد أبطال ثقافيون يعبرون عن آراء تشكلت في عصرهم وعقول جمعية. كان تحريم لحم الأبقار نتيجة تراكمية لقرارات فردية لملايين وملايين المزارعين الأفراد، بعضهم كان أكثر قدرة من الآخرين على مقاومة إغراء ذبح حيواناتهم الداجنة لأن إيمانهم كان راسخًا بأن حياة بقرة أو ثور كانت أمرًا مقدسًا. هؤلاء الذين حملوا مثل هذه المعتقدات كانوا أكثر أهليةً للتمسك بمزارعهم، ونقلها لأبنائهم، من أولئك الذين يؤمنون بشكل مختلف. وككثير من الاستجابات التكيفية في الثقافة والطبيعة، لا يمكن استقراء «خلاصة الأمر» لتحريم الأديانِ استخدامَ لحوم الحيوانات في الهند من خلال تكلفة/ منافع قصيرة الأمد. بل، إن المدة الطويلة هي التي تهم أكثر، أي الإنجاز خلال دورات زراعية غير طبيعية أكثر منها طبيعية. وتحت وطأة جفاف دَوريّ سببُه قصورُ الأمطار الموسمية، وبالتالي ترجمة حب المزارع الفرد للماشية مباشرة إلى حب حياة الإنسان، ليس رمزيًا بل عمليًا. كان ينبغي أن تعامل الماشية كالبشر لأن البشر الذين يأكلون الماشية كانوا على مسافة خطوة واحدة من أكل بعضهم الآخرَ.

حتى هذا اليوم، حين يستسلم المزارعون الموسميون للإغراء ويذبحون ماشيتهم فإنهم بذلك أمام قضية مصيرية. فلا يمكنهم الحرث من جديد حتى عندما تسقط الأمطار. ثم سيتحتم عليهم بيع مزارعهم والهجرة إلى المدن. فقط أولئك الذين يتضورون جوعًا دون أن يأكلوا ثورًا أو بقرة يمكنهم البقاء أحياء لموسم من الأمطار الشحيحة. تقاس المقدرة البشرية بمدى التحمل الهائل وقدرات التعافي لسلالات البقر الدرباني. وكما الجمال، تخزن الأبقار الهندية الطاقة في سنامها، ويمكنها العيش أسابيع من دون طعام أو شراب، وتنتعش عندما يتاح لها أقل قدر من الغذاء. بعد فترة طويلة من نفوق سلالات أخرى بسبب المرض والجوع والعطش، تستمر أبقار الدرباني بجر المحراث، وإنجاب العجول، وإنتاج الحليب. وخلافًا لسلالات ماشية أوروبية أخرى، اختير الدرباني لا لقوته واكتناز لحمه أو غزارة حليبه، بل لقدرته الفائقة على البقاء حيًا في مواسم جفاف وقحط قاسية.

هذا يقودنا إلى مسألة أن البقرة فضلًا عن الثور هي الحيوان الأكثر تبجيلًا. فعلى الرغم من أن لحم الجنسين محرم بشكل متساو، لكن الطقوس والفنون الهندوسية تؤكد قداسة إناث الأبقار أكثر بكثير من ذكورها. مع ذلك فالواقع يكذب النظرية. فالثيران تفوق الأبقار عددًا باثنين لكل بقرة في سهل الغانج؛ نسبة جنسية يمكن أن تُعلل فقط في حال وجود اصطفاء ممنهج ضد العجول الإناث من خلال إهمال مؤذ وذبح في الخفاء (يوازي تمامًا المعاملة في الخفاء لإناث البشر). تدلل هذه النسبة غير المتوازنة على علو القيمة للثيران على الأبقار كمصدر للجر وحرث الحقول. وعلى الرغم من كل التهليل الذي يحيط بالبقرة الأم المقدسة، تعامل الثيران تحت ظروف طبيعية، في الواقع، بشكل أفضل بكثير، حيث تؤوى في إسطبلات، وتُطعَم باليد، وتُقدَّم إليها الحبوب ومكملات بذور القطن للحفاظ على صحتها وقوتها. وتعامل الأبقار، من جهة أخرى، في الحياة القروية اليومية بالطريقة التي يعامل بها الهنود الأميركيون كلابهم أو يعامل بها المزارعون الأوروبيون خنازيرهم. فهي كناس القرية. لا تُحفظ في إسطبلات أو إطعامها محاصيل العلف. بدلًا من ذلك، تترك لتسيبَ حول القرية لجمع ما يمكنها العثور عليه من النفايات. ثم بعد أن تكون قد لعقت القرية ونظفتها، يسمح لها بالتجول

بحثًا عن بعض أوراق العشب التي حطّت بطريقة ما في دورتها الأخيرة قرب قناة على الطريق أو نبتت بين مسافات السكك الحديد. ولأن الأبقار عوملت ككناسة سائبة، كان من المحتمل ظهورها في أماكن غير ملائمة مثل مصارفِ مياه الطرق العامة كثيقة الحركة المرورية وعلى أطراف مدارج المطار، مفسحة المجال أمام الاتهام السخيف في أن الهند اجتاحتها ملايين الماشية «عديمة الفائدة».

تتفوق البقرة على الثور لأنها رمز «أهيمسا»، قدسية الحياة، وربما لأنها أكثر من الثور عرضة لخطر الرأي أنها «عديمة الفائدة». وفي أوقات الجوع تبقى الحاجة إلى البقرة من أجل الحماية الشعائرية أكثر من ثور الجر. وحتى من وجهة نظر التوالد واستمرارية الدورة الزراعية، فإن للبقرة قيمة أكبر من حيوان الجر الذكر. وعلى الرغم من أنها ليست بقوة الثور، فإنها تستطيع في الحالات الطارئة جر المحراث كما يمكنها ذات يوم إنجاب بدائل عن الحيوانات التي تستسلم للجوع والعطش. ومع ذلك، ولو على مضض، لا بد من أن البقرة عوملت بشكل جيد، إن لم يكن أفضل من الثور، وهذا ما يرجح سبب كونها الهدف الأساسي للتبجيل الطقسي. فقد كان موهنداس غاندي يدرك ما عناه بقوله إن الهندوس عبدوا البقرة لا لأنها «تنتج الحليب، بل لأنها تجعل من الزراعة أمرًا ممكنًا».

لا يمكن المرء تفسير لغزِ تحريم لحم الأبقار في الهند ما لم يستطع أن يقدم تفسير عدم تحريمه في مراكز قديمة أخرى لتشكيل الدولة. وأحد الاحتمالات هو أن المزارعين الهنود كانوا أكثر اعتمادًا على الأمطار الموسمية غير المنتظمة من المزارعين الآخرين في مناطق مختلفة. ومن الممكن أن هذا ما جعل حماية الأبقار والثيران أكثر إلحاحًا خلال أوقات الجوع. ففي مصر وبلاد ما بين النهرين، حيث كانت الماشية مقدسة والتضحية بها ممنوعة في أزمنة حكم السلالات المتأخرة، استمر أكل لحم الأبقار. ولكن مصر وبلاد ما بين النهرين، على عكس الهند، اعتمدتا كليًا على الزراعة المروية، ولم تتمتعا أبدًا بأعداد كبيرة من المزارعين المتّكلين على الماشية المقاومة للجفاف كي يتجاوزوا المواسم الجافة.

تقدم الصين مشكلة أكثر تعقيدًا. فعلى الرغم من أن الصينيين استخدموا المحاريث التي تجرها الثيران، لم يطوروا قط عقدة حب للبقرة، بل على

العكس، كانت أنثى الماشية تعامَل بأقل قدر من الحظوة. وهذا ما انعكس في الطبخ الصيني. ففي حين يعتمد المطبخ التقليدي في شمال الهند بشكل رئيس على الحليب ومشتقاته ودهون الطبخ الرئيسة التي يتضح أنها الزبدة أو السمن، لا تتطلب الوصفات الصينية أبدًا الحليب أو القشدة أو الجبنة، وأما دهون الطبخ الرئيسة فهي شحم الخنزير أو الزيت النباتي. ولدى معظم البالغين الصينيين نفور من الحليب (على الرغم من أن مثلجات الحليب حظيت بشعبية متزايدة في السنوات الأخيرة). لماذا يحب الهنودُ الحليب ويكرهه الصينيون؟

أحد التفسيرات لكره الصينيين للحليب أن لديهم «حساسية» فيزيولوجية تجاهه. فالصينيون البالغون الذين يشربون كميات من الحليب يصيبهم عمومًا مغص حاد وإسهال. والسبب فعليًا ليس حساسية، بل عوز وراثي في قدرة الأمعاء على إنتاج أنزيم اللاكتاز. هذا الأنزيم يجب أن يكون متوافرًا كي يتمثل الجسمُ اللاكتوز، السكر الغالب في الحليب. فبين 70 و100 في المئة من البالغين الصينيين لديهم عوز اللاكتاز. المشكلة في هذا التفسير أن كثيرًا من الهنود – بين 24 و100 في المئة، بحسب المنطقة – لديهم أيضًا عوز اللاكتاز. وكذلك لدى معظم البشر، الأوروبيون ونسلهم من الأميركيين هم الاستثناء. علاوة على ذلك، يمكن تجنب كل العواقب غير المرضية لعوز اللاكتاز بسهولة إذا تم شرب الحليب بكميات قليلة أو إذا استهلك في أي شكل من أشكاله الرائبة أو المتخمرة مثل اللبن أو الجبن، حيث يكون اللاكتوز فيها متحللًا إلى سكر أقل تعقيدًا. بمعنى آخر، إن عوز اللاكتوز هو عائق أمام شرب كميات كبيرة من الحليب على الطريقة الأميركية. لا يمكن أن يفسر كره الزبدة والقشدة الحامضة والجبن واللبن، والتي يتجلى غيابها بمجملها عن المطبخ الصيني.

ما يتضح من هذه المقارنة بين النظم البيئية الصينية والهندية هو الغياب العملي في الصين للبقرة كحيوان زراعي. أظهر المسح الرسمي لجون لاسون بوك (John Lasson Buck) لزراعة الصين ما قبل الشيوعية وجود ثيران في الصين الشمالية بمعدل 0.05 ثورًا مقابل أقل من 0.005 بقرة في كل مزرعة. هذا يشير إلى نسبة جنسية للماشية لأكثر من ألف ذكر مقابل مئة أنثى، مقارنةً بنسبة تراوح

بين 100:210 و100:150 في سهل الغانج المتوسط و100:130 لسائر الهند. يعكس هذا الاختلاف واقعَ أنه لم يكن للبقرة عمليًا أي دور في اقتصاد الدواجن في شمال الصين يتجاوز إنجاب الثيران، ما يفسر جانبًا واحدًا في الأقل من النفور الصيني تجاه الحليب: لم يكن هناك من أبقار تجول القرية الصينية الشمالية الأنموذجية. لا أبقار، لا حليب؛ لا حليب، لا فرصة لاكتساب ميل لمشتقات الحليب.

كانت لصورة الدواجن في الصين دائمًا صفة التنوع المناطقي الجدير بالاعتبار في ما يتعلق باستخدام حيوانات الجر والركوب. في المقاطعات الشمالية الوسطى والشمال شرقية كان مجموع كل الخيول والقرود والبغال كبيرًا بمقدار أعداد الماشية. هذا يتناقض مع ولايات أوتار براديش، وبيهار، والبنغال الغربي في وادي الغانج، حيث تظهر الخيول والقردة والبغال بأعداد قليلة.

يكمن الاختلاف الأكبر بين حالتي الدواجن الهندية والصينية، في العدد الكبير للخنازير في الصين والغياب الفعلي للخنازير من معظم سهل الغانج. يقدر بوك أن هناك في كل مزرعة في شمال الصين ما معدله 0.52 خنزيرًا. أحد أعضاء وفد حديث إلى الصين، وهو ج. ف. سبرايغ (G. F. Sprague) من قسم الهندسة الزراعية بجامعة إيلينوي، يقدر أن الصين استولدت بين 250 إلى 260 مليون خنزير في 1972. وهذا أكثر بأربع مرات من الكمية التي تنتج في الولايات المتحدة، «أمة تعرف بإنتاجها الواسع للخنزير». إذا أنتجت الصين هذه الحيوانات بالطريقة التي تنتجها الولايات المتحدة، يكتب سبرايغ، «لمثّل ذلك استنزافًا حادًا للموارد الغذائية المتوافرة». ولكن هناك شبهًا بسيطًا بين الخبرات الإنتاجية بين البلدين. إنتاج الخنزير في الولايات المتحدة يعتمد على تزويد الحيوان بالذرة، ووجبات الصويا، ومكملات من المعادن والفيتامينات، ومضادات حيوية. أما في الصين فتربى الحيوانات في الأصل كعمل منزلي، ومثل الأبقار في الهند، «تعتاش على النفايات التي لا تناسب البشر؛ فضلات الخضار وقشور الأرز الأرضية أو المخمرة والبطاطا الحلوة ودوالي الفاصولياء والصويا واللبلاب المائي وغيرها». وكما كانت تقدر الأبقار الهندية لروثها، فكذلك الخنازير الصينية تقدر «تقريبًا

للحمها كما لروثها». بمعنى آخر، كان الخنزير ولا يزال كناس القرية الرئيس للصينيين. يزودهم بمكملات أساسية من الدهون والبروتينات والسماد الشديد الندرة كما استمد الهنود أساسيات كهذه من كناس القرية لديهم، وهو البقرة. مع اختلاف كبير واحد: بما أن الخنزير لا يحلب، يجب أن يؤكل لو كان يستخدم كمصدر للدهون والبروتينات في النظام الغذائي. هذا يعني أنه ما دام الخنزير يشغل وظيفة الكناس للقرية، لم يقبل الصينيون دينًا كالإسلام، الذي يحرم بشكل خاص استهلاك لحم الخنزير.

لكن لِمَ اتخذ الصينيون الخنزير كناس القرية بينما اتخذ الهنود البقرة؟ هناك عدد من العوامل من المرجح وجودها. **أوّلها**، إن تربية الخنازير في سهل الغانج غير محبذة كما في حوض النهر الأصفر. فحرارة الربيع الشديدة والجفاف المتكرر الذي تكيفت معه أنواع الماشية الدربانية جعل من الخنزير المحب للرطوبة استثمارًا خطيرًا (ينطوي على مجازفة). ففي أوتار براديش، أكبر ولاية هندية منتجة للغذاء، يهطل 88 في المئة من الأمطار في فترة أربعة أشهر، بينما يرتفع معدل درجات الحرارة اليومية في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو فوق 100 درجة فهرنهايت بكثير. في المقابل، يسود شمالَ الصين ربيع وصيف معتدلا البرودة، ولا يكاد يُلحظ فصل جاف هناك.

هناك عامل مهم آخر وهو الوفرة النسبية للأراضي الرعوية الصالحة لتربية حيوانات الجر. فالصين، على عكس الهند، لديها منطقة واسعة مناسبة لرعي حيوانات الجر لا تصلح لزراعة المحاصيل الغذائية. أما في الصين فإن 11 في المئة من كامل الأرض فقط تخضع للحراثة، بينما 50 في المئة من المنطقة كلها في الهند هي أراضٍ زراعية. وبحسب بوك، تتألف منطقة قمح الربيع الشمالية من الصين من «أرض رعوية عامة كبيرة حيث تجعل الأمطار والطبيعة الطبوغرافية الوعرة الحراثة صعبة». وعلى العكس، أقل من 2 في المئة من منطقة الأراضي الزراعية في سهل الغانج الأوسط هي مرعى دائم أو أرض رعوية. هكذا فإن إنجاب حيوانات جر أساسية في الهند يجب أن يتم في مناطق مرصوصة من قبل عن طريق البشر؛ مناطق تفتقر إلى أراضٍ غير صالحة للزراعة وتناسب الرعي.

فحيوانات الجر، إذًا، يجب تغذيتها أساسًا على الفضلات كما هو متاح لكناس القرية. بمعنى آخر، حيوان الجر والكناس يجب أن يكونا الحيوان نفسه. ويجب أن يكون الماشية، لأنه لا الخيول، ولا القردة، ولا البغال يمكن أن تؤدي غرضها على نحو مرضٍ في مناخ موسمي جاف ذي حرارة حارقة، بينما كان جاموس الماء عديم الفائدة للمزارعين الذين افتقروا إلى وسائل الري.

لعل أفضل طريقة لاستعراض معاملة الحيوانات في الهند مقارنةً بالصين هي من جهة الأطوار المختلفة لعملية مقاربة واحدة كبيرة هي التكثيف. لا الصين ولا الهند تمكنتا من تحمّل استثمار واسع النطاق للحيوانات بالأساس من أجل لحمها أو منتجات الألبان بسبب كثافة السكان الهائلة والخسارة الحادة للسعرات الحرارية التي تستلزمها مزارع الحيوانات المُحْدَثة على أراضٍ زراعية. في الصين ما قبل الاشتراكية عاش سكان الريف على نظام غذائي يستمد 97.7 في المئة من سعراته الحرارية من الأطعمة النباتية و2.3 في المئة فقط من منتوجات الحيوان؛ لحم الخنزير بشكل أساسي. وقلما كانت الكائنات التي استخدمت في الأساس كحيوانات جر تؤكل في ريف الصين، كما لم تكن تؤكل في الهند. لِمَ، إذًا، لم يحظر لحم الأبقار بتحريم ديني؟

في الحقيقة، كان هناك تحريم كهذا في بعض المناطق. ليس هناك من مصدر موثوق أكثر من ماو تسي تونغ الذي قدم الملاحظات التالية حين كان في هونان:

> ثور الجر كنز للفلاحين. وكما هو سائد في المعتقَد الديني أن «أولئك الذين يذبحون الماشية في هذه الحياة سيصبحون أنفسهم ماشية في الحياة التالية،» يجب ألا يقتل ثور الجر أبدًا. فقبل أن يمتلك الفلاحون القوة، لم يكن لديهم من وسيلة إلا التحريم الديني لإيقاف ذبح الماشية.

في هذه الصدد يكتب ت. هـ. شين (T. H. Shen):

> يخالف ذبح الماشية من أجل لحمها العرف الصيني. تذبح الماشية لتأمين اللحم فقط قرب المدن الكبيرة، ولا يحدث ذلك إلا عندما تتوقف الحاجة إليها في المزارع.

بينما عانت كلّ من الهند والصين آثار ألوف السنوات من التكثيف، تبدو العملية أنها بلغت أقصى حدودها في الهند. فالزراعة الصينية أكثر كفاية من الزراعة الهندية في الأصل بسبب اتساع المنطقة المحروثة والمروية؛ 40 في المئة من الأراضي الصينية الزراعية في مقابل 23 في المئة من الأراضي الهندية. بذلك يكون معدل إنتاج الأرز في كل فدان أرض أعلى مرتين في الصين منه في الهند. وعلى الرغم من إتاحة القابلية لتنامي الخنازير والقردة والبغال والخيول في الصين، والعوامل المناخية والطبوغرافية الملائمة للإنتاج، لم يصل التكثيف إلى حدود اضطرت إلى نهي كامل عن ذبح الحيوانات من أجل اللحم. وبدلًا من حلب حيوانات الجر، عمد الصينيون إلى ذبح الخنازير. فقبلوا بذلك من بروتين اللحم الحيواني قدرًا أقلّ مما كان يمكن أن يحصلوا عليه من الحليب؛ لو أنهم استعملوا البقرة بدلًا من الخنزير ككناس للقرية.

يرى الهندوس والغربيون على السواء أن تحريم أكل اللحم في الهند انتصارٌ للأخلاق على الشهية. هذا تحريف خطير للسيرورات الثقافية. فلم تكن النزعة النباتية عند الهندوس انتصارًا للروح على المادة، بل لقوى الإنجاب على الإنتاج. إن السيرورة المادية المشابهة تمامًا التي عززت انتشار الأديان فارغة اليدين في الغرب، وانتهاء التضحية بالحيوان وولائم التوزيع، وتحريم لحم كائنات داجنة مثل الخنزير والحصان والحمار ما دفع الهند بشكل متصلب باتجاه أديان تدين أكل لحوم جميع الحيوانات. لم يحدث هذا لأن روحانية الهند فاقت روحانية مناطق أخرى؛ بل لأن تكثيف الإنتاج في الهند، واستنزاف الموارد الطبيعية وازدياد الكثافة السكانية قد جاوزت حدود النمو في أي مكان آخر من العالم ما قبل الصناعي باستثناء وادي المكسيك.

المراجع والملاحظات

يُنظر: F. R. Allchin, «Early Domestic Animals in India and Pakistan,» in: Peter Ucko & G. W. Dimbleby (eds.), *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals* (Chicago: Aldine, 1969), p. 321; Bridget Allchin & Raymond Allchin, *The Birth of Indian Civilization* (Baltimore: Penguin, 1968), pp. 114, 259; Jaquetta Hawkes,

The First Great Civilizations (New York: Alfred A. Knopf, 1973); John Marshall, *Mohenjo-daro and the Indus Civilization*, 3 vols. (London, 1931); Romila Thapar, *A History of India* (Baltimore: Penguin, 1966).

يُنظر: Om Prakash, *Food and Drinks in Ancient India: From Earliest Times to C. 1200 A.D.* (Delhi: Munshi Ram Manohar Lal, 1961), pp. 15, 16; A. N. Bose, *Social and Rural Economy of Northern India, 600 B C-200 A D.* (Calcutta: Firma K. L. Mukhopadhyay, 1961), p. 109.

يُعتبر تاريخ كامبريدج للهند هو المصدر القياسي المعتمَد. يُنظر: Prakash, *Food and Drinks*, pp. 94-95; S. K. Maitz, *Economic Life of Northern India in the Gupta Period. Cir. An 300-500* (Calcutta: World Press Private, 1957), pp. 94-95,

لعصر غوبتا. يُنظر: Kingsley Davis, *The Population of India and Pakistan* (Princeton: Princeton University Press, 1951); Joseph Spengler, *Indian Economic Thought: A Preface to Its History* (Durham, NC: Duke University Press, 1971); Pran Nath, *A Study in the Economic Condition of Ancient India* (London, 1929),

للديموغرافيا التاريخية. يُنظر: Bose, *Social and Rural*, pp. 131ff.,

للاطلاع على إزالة الغابات والماهابهاراتا والجفاف. أما عن البيئة الثقافية للماشية في الهند فيُنظر: Marvin Harris: *Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture* (New York: Random House, 1974); «Comments on Alan Heston's 'An Approach to the Sacred Cow of India',» *Current Anthropology*, vol. 12 (1971), pp. 199-201; «The Cultural Ecology of India's Sacred Cattle,» *Current Anthropology*, vol. 7 (1966), pp. 51-59; K. N. Raj: «India's Sacred Cattle: Theories and Empirical Findings,» *Economic and Political Weekly*, vol. 6 (27 March, 1971), pp. 717-722; «Investment in livestock in Agrarian Economies: An Analysis of Some Issues Concerning 'Sacred Cows' and 'Surplus Cattle',» *Indian Economic Review,* vol. 4 (1969), pp. 1-33; Allan Heston et al., «An Approach to the Sacred Cow of India,» *Current Anthropology*, vol. 12 (1971), pp. 191-209; V. M. Dandekar, «Cow Dung Models,» *Economic and Political Weekly* (Bombay), vol. 2 (August 1969), pp. 1267-1271; Stewart Odend'hal, «Energetics of Indian Cattle in Their Environment,» *Human Ecology*, vol. 1, no. 1 (1972), pp. 3-32; Embassy of India, «Indian Economy and Cattle Use,» *India News*, 07/11/1975.

يُنظر: M. K. Gandhi, *How to Serve the Cow* (Ahmedabad: Navajivan Publishing House, 1954).

لبحث اللاكتاز يُنظر: Gail Harrison, «Primary Adult Lactase Deficiency: A Problem in Anthropological Genetics,» *American Anthropologist*, vol. 77 (1975), pp. 812-835.

ولمقارنات النظم البيئية الهندية والصينية يُنظر: John Buck, *Land Utilization in China*, 3 vols.: vol. 1: New York: Praeger, vol 2: Statistics, vol. 3: Atlas (Chicago: University of Chicago Press, 1964; [1937]); Raj, «Investment in livestock»; R. L. Singh (ed.), *India: A Regional Geography* (Varanasi: National Geographic Society of India, 1971); J. D. Gavan & J. Dixon, «India: A Perspective on the Food Situation,» *Science*, vol. 188 (1975), pp. 541-549; T. H. Shen, *Agricultural Resources of China* (Ithaca: Cornell University Press, 1951), p. 290; Ralph Phillips et al., *Livestock of China*, US Department of State Publication 2249, Far Eastern Series, no. 9 (Washington, DC, 1945); G. F. Sprague, «Agriculture in China,» *Science*, vol. 188 (1975), pp. 549-555.

اقتباس ماو من: Raj, «India's Sacred Cattle,» p. 717.

يُنظر: K. N. Varma, *Population Problem in the Ganges Valley* (Agra: Shiva Lal Agarwala, 1967),

لـ وادي الغانج الحديث.

13

المصيدة المائية

في الأربعة آلاف سنة بين ظهور أولى الدول وبداية العصر المسيحي، ارتفع عدد سكان العالم من حوالى 87 مليون إلى 225 مليون. وكان أربعة أخماس الإجمالي الجديد تقريبًا يعيش في ظل الإمبراطوريات الرومانية، وهان الصينية، وغوبتا الهندية. يحجب هذا الإجمالي العالمي حقيقة أن كثافة السكان في المناطق المركزية لم تستمر في الازدياد من دون ضابط خلال حقبة الأربعة آلاف سنة تلك. لا يتفق التاريخ الديموغرافي للإمبراطوريات القديمة والرأي المالتوسي الساذج في أن النمو السكاني هو مسار تاريخي متواصل. كان تعداد السكان الثابت هو المبدأ الأساسي في الإمبراطوريات القديمة كما كان في العصر الباليوليتي. كان هناك حدود لأعداد البشر والحيوان التي يمكن حشدها في وديان الأنهار الكبرى لمصر وبلاد ما بين النهرين والهند والصين. بعد بلوغ مرحلة النزعة النباتية الفاعلة، بقيت كثافة السكان ثابتة أو ربما نحت إلى الانخفاض. بالطبع، استمر عدد السكان في التزايد خارج المناطق المركزية مع ظهور إمبراطوريات أكبر ودول تابعة أكثر. ولكن واحدة تلو الأخرى، بدا أن المناطق المركزية وصلت إلى حدها البيئي من النمو.

بحسب كينغسلي ديفيس (Kingsley Davis)، استقرّ عدد السكان في الهند ككل في عام 300 ق. م ولم يبدأ بالزيادة من جديد حتى القرن الثامن عشر. ويقدر كارل باتزر (Karl Butzer) أن عدد سكان وادي النيل في مصر تضاعف أربع مرات

بين عامي 4000 ق. م و2500 ق. م، وكان ذروة ذلك العصر والمعروف في التاريخ المصري بالمملكة القديمة. بعد ذلك، حافظ على استقرار فعلي أكثر من ألف سنة. وفي عام 1250 ق. م ارتفع ليصل إلى ذروة جديدة، كانت حوالى 1.6 مرة فقط من الدرجة المحددة في المملكة القديمة، وقبل بداية العصر الروماني – الإغريقي بقليل تراجع من جديد إلى مستوى المملكة القديمة. وفي ظل الحكم الروماني وصل إلى الذروة مجددًا عند حد ينوف بقليل عن الضعفين مما كان عليه في المملكة القديمة، ولكن عند نهاية الإمبراطورية الرومانية في عام 500م عاد إلى أقل من المقدار الذي كان قبل عام 3000 سنة. وأفضل معلوماتنا ترِد من الصين، حيث يمكن الأخذ ببيانات الإحصاء الرسمي للسكان التي تغطي مدة تتعدى 2000 سنة. تظهر دراسة هانز بيلنشتين (Hans Bielenstein) الموثوقة أنه في الفترة بين عام 2م إلى عام 742م بقي عدد سكان الصين الإجمالي قريبًا من 50 مليون نسمة، بحد أعلى يبلغ 58 مليون نسمة، وحد أدنى 48 مليون نسمة. وعلى قدر أكبر أهمية، حدث انخفاض واضح في المناطق المركزية الأصلية لسلالة هان الحاكمة. فقد بلغ عدد سكان السهل الكبير للنهر الأصفر، على سبيل المثال، 35 مليون نسمة في عام 2م. وانخفض هذا العدد إلى 25 مليون نسمة في عام 140م، وارتفع إلى 31 مليون نسمة في عام 609 وعاود الانخفاض إلى 23 مليون نسمة في عام 742م. مع الأعداد المتناقصة التي سببها غزو أراضٍ جديدة، بقي معدل نمو سكان الصين قريبًا من الصفر في أفضل فترة من الألفيتين (بعد عام 1450 مكَّنَ إدخالُ أنواع جديدة من الأرز والبطاطا الحلوة والذرة الهندو–أميركية وسائلَ الزراعة الصينية من دعم تعداد سكاني أكثر كثافة من العصور السابقة).

قرنًا إثر قرن تأرجح مستوى المعيشة في الصين، وشمال الهند، وبلاد ما بين النهرين ومصر بشكل طفيف فوق ما يمكن أن يدعى بعتبة الفقر أو تحته. عندما كانت الكثافة السكانية ترتفع للغاية في منطقة معينة، كانت مستويات العيش تهبط إلى ما دون العتبة، ما كان يؤدي إلى حروب ومجاعات، وبالتالي انخفاض عدد السكان. ومع كثافة أقلّ، كان مستوى المعيشة يرتفع من جديد إلى حد أعلى بقليل من المعدل طويل الأمد.

كثيرًا ما كان المراقبون الغربيون مدهوشين بالطبيعة المستقرة أو «الراكدة» لأنظمة السلالات القديمة تلك. فعقدًا بعد عقد، جاء الفراعنة والأباطرة ورحلوا، وصعدت سلالات وانمحت؛ واستمرت حياة العمال والمزارعين والفلاحين، كالعادة، أعلى بدرجة من الكفاف. كانت الإمبراطوريات القديمة مناطق مكتظة بمزارعين أميين يكدحون من الصباح حتى المساء لجنيِ أغذية نباتية ليس فيها ما يكفي من البروتينات. كانوا أحسن حالًا بقليل من ثيرانهم، ولم يكونوا أقل عرضة لأوامر الأشخاص الأرقى الذين كانوا يعلمون كيف يحفظون السجلات والذين لديهم وحدهم الحق في الصناعة واستعمال أسلحة الحرب والإكراه. إن حقيقة استمرار مجتمعات تؤمّنُ أجرًا ضئيلًا كهذا لآلاف السنين – أطول من أي نظام دولي في تاريخ العالم – تقوم كتذكير قاتم على أنه ما من شيء متوارَث في العلاقات الإنسانية يدعم التطور المادي والأخلاقي.

طورت كل إمبراطورية قديمة أنموذجها المتكامل للحياة الاجتماعية. من الطبخ إلى الفنون، كلٌ منها كانت عالمًا بذاتها. ومع كل اختلافاتها، تمتلك الصين القديمة والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر أنظمة متشابهة أساسًا في الاقتصاد السياسي. فلكل منها طبقة عالية التمركز من الموظفين البيروقراطيين والحكام المستبدين الأرفع بمقتضى الوراثة ادعوا تفويضًا سماويًا، أو قيل إنهم أنفسهم آلهة. كان هناك شبكات طرق ممتازة تشرف الحكومة على صيانتها وأنهار وقنوات ربطت كل ضيعة وكل قرية بمراكز إدارية وطنية ومحلية. في كل قرية هناك شخصية مهمة واحدة في الأقل تؤدي وظيفة الرابط بين القرية والإدارة المركزية. واتخذت قوى السلسلة السياسية اتجاهًا واحدًا: من القمة إلى الأسفل. وفي حين كان المزارعون يمتلكون أراضيَ أحيانًا، كما في الصين، اتجهت السلطة البيروقراطية لاعتبار ذلك هبة من الدولة. كانت أولويات الإنتاج تُرسم وفق سياسات الضريبة الحكومية ومن خلال استدعاء دوري لرجال القرية ونسائها من أجل العمل على مشاريع إنشائية ترعاها الحكومة. كانت «الدولة أقوى من المجتمع». فلديها الحقّ في تحصيل الضرائب ومصادرة المواد، ومن ثم كان تجنيد العمال بالفعل حقًا مطلقًا من حقوقها. كانت تقوم بإحصاءات منتظمة للسكان في كل قرية كي تحدد القوى العاملة المتوافرة والدخل الأساسي من الضرائب، وتنشر جيوشًا من العمال

أشبه بالنمل أينما قرر أسياد المنطقة، ليتولوا مهمة بناء القبور والأهرامات وأدوات الدفاع والقصور التي تكون أحجامها مذهلة حتى بالنسبة إلى المعايير الصناعية الحديثة. في مصر كانت الحاجة تدعو إلى التشغيل الموسمي لنحو 100 ألف رجل قوي البنية لتنفيذ مشاريع ضخمة لمصلحة المملكة القديمة؛ قوى عاملة مؤلفة من 84 ألف رجل شُغّلت لثمانين يومًا في السنة لمدة عشرين عامًا لبناء هرم خوفو الأكبر. وفي الصين تطلب بناء سور الصين العظيم مليون عامل في وقت واحد؛ مليون آخرون كدّوا في العمل على القناة الكبرى؛ وأكثر من مليونين كانوا يُلزمون العمل شهريًا لبناء العاصمة الشرقية والبلاط الإمبراطوري لسلالة سوو خلال حكم الإمبراطور يانغ (604-617م).

على الرغم من تطوير فلسفات وأديان تدعو إلى العدالة والرحمة، كان على حكام هذه الممالك الواسعة الاعتماد مرارًا على الترهيب، والتلويح باستعمال القوة الصريحة للحفاظ على القانون والنظام. كان الامتثال الكامل مطلوبًا من التابعين، أي توقيرهم الأسمى لواجبهم وتذللهم في حضرة صاحب السلطان. في الصين كان على العامي أن يركع؛ ينثني إلى الأمام، يضرب الأرض برأسه، ويقبل التراب. وفي الهند الهندوسية كان العامة يطوقون أقدام الملك. وفي مصر الفرعونية كان التابعون يزحفون على بطونهم. في هذه الإمبراطوريات القديمة كلها كان هناك أنظمة عديمة الرحمة تنفي وتعاقب عصاةَ الأوامر. كان العسس يبقون الحكام على اطّلاع دائم بمثيري الشغب المحتملين. وكانت العقوبات تتدرج من الضرب إلى التعذيب حتى الموت. في مصر يضرب جباةُ الضرائب المزارعين المتمردين ويرمونهم، مقيدي الأقدام واليدين في مصارف الري؛ كان كبار العمال في كل المشاريع الحكومية يحملون هراوات وسياطًا. في الهند القديمة كان القضاة يحكمون على المتمردين بتعريضهم لثمانية عشر نوعًا من التعذيب، من بينها جَلد باطن القدم، والتعليق رأسًا على عقب، وحرق ما بين الأصابع. وكان يحكم على مرتكبي الجنح الخفيفة، بالضرب الصريح لمدة ثمانية عشر يومًا متواصلة؛ أما ما يتعلق بمرتكبي الجنح الشنيعة، فكانوا يطلقون حكمًا على المذنب بتلقي عقوبات الأيام الثمانية عشر في اليوم نفسه. في الصين كان الإمبراطور يعاقب من يعبر عن آراء حمقاء بخصيه في زنزانة مظلمة.

اشتركت هذه الإمبراطوريات القديمة بخاصية أخرى: كل واحدة كانت كما دعاها المؤرخ المؤسس العظيم كارل ويتفوغل (Karl Wittfogel) «مجتمعًا مائيًا». كل منها نشأ في وديان وسهول تراوح ما بين الجافة وشبه الجافة تُروى من أنهار كبرى. وكان الموظفون يحولون المياه، بواسطة السدود والقنوات وضبط الفيضانات ومشاريع تصريف المياه، من هذه الأنهار ويوصلونها إلى حقول المزارعين. كان الماء يشكل العامل الأكثر أهمية في الإنتاج. فعندما كانت الحقول تُزود بكميات منتظمة ووافرة، كانت تنتج محاصيل ذات مردود مرتفع لكل فدّان أرض ولكل سعرة حرارية من الجهد.

من العلماء المعاصرين، تجشم ويتفوغل مشقة تبيان العلاقة بين الإنتاج المائي ونشوء الأنظمة الاستبدادية السكونية في الإدارة الزراعية. ووجهة نظري في هذه العلاقة تستقي الكثير من وجهة نظر ويتفوغل، لكنها لا تتطابق تمامًا مع مجمل صيغته. أعتقد أن الزراعة المائية ما قبل الصناعة أدت بشكل متواتر إلى نشوء سلطات بيروقراطية لإدارة الزراعة متطرفة في استبدادها لأن التوسع وتكثيف الزراعة المائية - وهي نفسها نتيجة للضغوط الإنجابية - كانت تعتمد بشكل فريد على مشاريع بناء ضخمة والتي، في غياب الآلات، لم يتسن تنفيذها إلا من خلال جيش من العمال أشبه بالنمل. فكلما كان النهر أكبر، كانت طاقة إنتاج الغذاء للمنطقة التي يتدفق فيها أكبر. ولكن كلما كان النهر أكبر، كانت مشاكل الاستفادة من طاقاته أكبر. من جهة، كانت الدولة تتولى بناء الشبكات الواسعة من التحويلات والقنوات الرافدة ومصارف الري وبوابات التحكم بتدفق المياه لتأمين وجود كمية كافية من المياه في الوقت المناسب؛ من جهة أخرى، كانت الدولة تتولى بناء السدود، والحواجز ومصارف المياه لتلافي التأثيرات المؤذية الناجمة عن تدفق كمية كبيرة من المياه دفعة واحدة. تطلب جدول المشاريع الموضوعة في قيد الدراسة تغيير وجه الأرض بالمعنى الحرْفيّ: تحريك الجبال، تغيير شكل ضفاف الأنهار، حفر مجاري أنهار جديدة بالكامل. لا يمكن تجنيد فرق العمال الضروريين لمشاريع ضخمة وتنسيق عملهم وتوجيههم وإطعامهم وإسكانهم إلا بواسطة كوادر خاضعة لقادة يتبعون خطة رئيسة. من هنا كلما كانت شبكات المياه والمنشآت أكبر، كانت إنتاجية المنظومة الكلية أضخم، وكان الميل أكبر

لدى الإدارة الزراعية الهرمية لأن تصبح تابعة لشخص مكتمل السلطة على رأس هرمها.

إن القدرة الفريدة للمجتمعات المائية على ترميم نفسها على الرغم من انقلابات السلالات المتكررة والغزو المتواتر من المحتلين البرابرة ينشأ من التفاعل بين البنى السياسية والتكيف البيئي الأساسي. مع أن تركُّز السلطة النهائية في حاكم أعلى وعائلته كان يعني أن جميع خطوط القوة السياسة تسير في اتجاه واحد فقط، إلا أن ضخامة وتعقد أجهزة الدولة أعطت الموظفين الأعلى والموظفين البيروقراطيين الأقلّ شأنًا منهم الفرصة لإشباع مطامحهم على حساب فئات الشعب الدنيا. وعلى الرغم من القيمة التي أولاها الحاكم الحكيم للّين والعدالة، كان الموظفون البيروقراطيون ينزعون إلى تسمين أنفسهم على حساب رفاه الشعب. تنامى الفساد وفق متوالية هندسية قياسًا بعدد السنوات التي تحتفظ خلالها السلالةُ بسطوتها. وسرعان ما يُهمل العمل العام، وتبدأ السدود تتسرب منها المياه، وتمتلئ القنوات بالطمي، وينخفض الإنتاج. يضاف العجز الكبير، والأخطاء البشرية والكوارث الطبيعية إلى القوى المخربة للعمل. وبشكل متكرر، جراء ذلك، كانت السلالة الحاكمة تجد أنها ما عاد بمقدورها حماية جماهير المزارعين وإمدادهم. وبينما تمزقها النزاعات، تصبح معرضة لخطر «البرابرة» الآتين من خارج الأسوار، وجيوش الإمبراطوريات المجاورة، أو شعبها المتمرد. حينئذ كانت السلالة تنهار. وهذا حصل مرارًا في تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين والهند والصين. ولكن كان أمام القادة الجدد – أكانوا خصومًا داخليين أم خارجيين – خيار واحد فقط إذا أرادوا التمتع بثروة الإمبراطورية: ترميم السدود، وتنظيف القنوات، وإعادة بناء الحواجز، وإصلاح أسلوب الإنتاج المائي. حينئذ ستكون بداية دورة جديدة. يزداد الإنتاج، ويخفض المزارعون غير المعدمين معدل قتل الأطفال والإجهاض، وتزداد الكثافة السكانية. ولكن ما إن تزداد الكثافة السكانية، حتى يشحّ الإنتاج، ويصبح الموظفون الفاسدون أكثر تطرفًا في محاولاتهم حشو أكياس نقودهم. في النهاية، حينما ينحدر المزارعون إلى الفقر، يندلع صراع للسيطرة السلالية من جديد.

كما أكد ويتفوغل، فقد استبق كارل ماركس جوهر النظرية المائية في عدد من أعماله التي إما أنكرت وإما تجاهلها لينين وستالين. وقد نسب ماركس الاقتصاد السياسي الفريد للهند والصين إلى ما يدعوه «نمط الإنتاج الآسيوي»؛ فكتب:

> كان هناك في آسيا، منذ الأزمنة السحيقة، ثلاث مصالح حكومية فقط: مصلحة المال، أو نهب الداخل؛ مصلحة الحرب، أو نهب الخارج؛ أخيرًا، مصلحة الأشغال العامة. في مصر، والهند، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد فارس ...إلخ. تؤخذ الفائدة بمستوى عالٍ لتغذية قنوات الري. هذه الأولوية لاستخدام مشاعي واقتصادي للمياه... جعلت تدخل القوى المركزية للحكومة أمرًا ضروريًا في الشرق حيث كانت الحضارة بمستوى منخفض والتوسع الإقليمي أوسع بكثير مما يدعو لعلاقات حياتية طوعية.

أحد أسباب فقدان مشروع ماركس لتطور العالم سمعته في ظل لينين وستالين هو ما احتواه من أن الشيوعية الأممية أو «دكتاتورية البروليتاريا» يُحتمل ألا تكون في الواقع أكثر من شكلٍ جديد وأكثر تطورًا للاستبداد الإداري الذي يعتمد على قاعدة صناعية أكثر منها زراعية. ثمة سبب آخر هو أن ماركس وصف المجتمعات الآسيوية بأنها مجتمعات «جامدة» أو «راكدة» ولم يرَ جانبًا لتطورها اللاحق من خلال سيروراتها الداخلية الخالصة. كان هذا مختلفًا مع جوانب أخرى من مقولات ماركس، فهو كان يعتقد أن التناقضات داخل المجتمع تؤدي إلى قيام صراع طبقي، وأن الصراع الطبقي هو مفتاح فهم التاريخ بأسره. لدى المجتمعات المائية كثير من التناقضات والصراعات الطبقية، لكن يبدو أنها كانت مقاومة بشكل لافت للتغير الجذري.

جادل بعض منتقدي النظرية المائية في أن الخصائص البيروقراطية للإمبراطوريات القديمة ظهرت قبل أن تصل شبكات الري ومشاريع التحكم بالفيضانات مرحلةً تتطلب الأعداد الضخمة من العمال والتحكم المركزي. على سبيل المثال، ناقش روبرت ماكورمك آدامز (Robert McCormick Adams)، من جامعة شيكاغو، أن في بلاد ما بين النهرين القديمة ذات الحكم السلالي «كان الري، بمجمله، يدار على أساس ضيق النطاق، يتضمن تعديلًا طفيفًا على النظام المائي الطبيعي وبناء قنوات رافدة على نطاق ضيق فحسب»، ولذلك «لم يكن

هناك ما يشير إلى أن صعود السلطة السلالية في جنوب بلاد ما بين النهرين ارتبط بالمتطلبات الإدارية لنظام ذي قناة رئيسة». بالرد أودّ أن أوضح أن نظرية ويتفوغل ليست عن أصل الدولة، بل عن أصل الطبيعة المستمرة الشديدة الاستبدادية لأنواع معينة من أنظمة الدولة-الإمبراطورية. لا ينكر آدامز أن خلال نضوج الإمبراطوريات في بلاد ما بين النهرين كان بناء المشاريع المائية الضخمة وإدارتها الشغل الشاغل والبارز لكوادر عالية التمركز للإدارة الزراعية. يثبت تاريخ السلالات في بلاد ما بين النهرين بالكامل رأي ويتفوغل الأساسي أن مع ازدياد مجال الأشغال المائية وتعقيده، ازداد «تدخل القوة المركزية للحكومة».

رفض كارل باتزر مؤخرًا قابلية تطبيق نظرية ويتفوغل للخصائص الإدارية والمائية لمصر القديمة. ومثل آدامز، يدّعي أن المرحلة السلالية تم الوصول إليها قبل أن يكون هناك أي استثمار واسع النطاق في البنى المائية. لكن يبدو أنه يمضي أبعد من ذلك في تأكيد أن «التنافس على المياه لم يكن مسألة تتجاوز النطاق المحلي»؛ وأنه «لا يوجد دليل على أجهزة بيروقراطية مركزية يمكن أن تعمل على إدارة الري على نطاق وطني أو إقليمي أو محلي»؛ وأنه أخيرًا «كانت تُعالج المشكلات البيئية على نطاق محلي».

يعزو باتزر الطبيعة غير المتمركزة بشكل دائم لنظام الري في مصر تحت حكم السلالات إلى حقيقة أن سهل النيل الفيضي مقسم إلى سلسلة من الأحواض الطبيعية التي تمتلئ بشكل متتالٍ عندما يفيض النهر ويغمر السدود على طول مجراه الرئيس. قبل بناء سد أسوان في الستينيات من القرن العشرين عبر كامل عرض القناة الرئيسة والسهل الفيضي، لم يكن هناك وسيلة للمقاطعات الموجودة أعلى النهر لفصل المياه عن المقاطعات الأبعد الموجودة أدنى النهر، كما كان الأمر في بلاد ما بين النهرين. لقد كانت البنى الصناعية، بحسب باتزر، ضيقة النطاق وتألفت في الأساس من محاولات لتوسيع السدود والحواجز الطبيعية الموجودة مسبقًا والتي تفصل كلَّ حوض عن النهر، وكلَّ حوض عن الحوض الآخر وتقويتها.

إن نقد باتزر لنظرية ويتفوغل متناقض مع كثير من المعطيات التي قدمها هو نفسه. يظهر أنه لم يدرك ما قاله ويتفوغل. على سبيل المثال، يصور رأس صولجان

الملك العقرب حاكمًا منذ عام 3100 ق. م قبل حكم السلالات، وهو يفتتح سدًا أو يستهل بناء قناة. يقبل باتزر هذا ودليلًا آخر كإثبات أن «الري الصناعي الذي يتضمن فيضًا وتصريفًا مدروسَين باستخدام بوابات تتحكم بتدفق المياه، والماء المعبأ في سدود طولانية وعرضانية، أسسته الأسرة الأولى». ويسلّم أيضًا أن الحكومة المركزية انهمكت في مشاريع مائية واسعة تبدأ في المملكة المتوسطة (2000 ق. م) كان هدفها تنظيم مستوى بحيرة الفيوم وتصريف أجزاء كبيرة من منطقة الدلتا، على الرغم من أنه يعتبر هذه المشاريع الضخمة استثناءات وبذلك فهي ذات أهمية ضئيلة في محاولة فهم تنظيم حكم السلالات السياسي. علاوة على ذلك، على الرغم من ادعائه أن الموظفين المحليين كان بإمكانهم تنظيم وإدارة توزيع المياه، فإنه يصف المتطلبات التقنية الهائلة:

> تحويل الحواجز الطبيعية إلى حواجز صناعية أقوى وأعلى؛ توسيع ورفع الوحل لقنوات الفيض المتباعدة الطبيعية؛ إغلاق، ودمج أو تصريف القنوات الطبيعية، بسدود أرضية وبوابات التحكم بقنوات جرّ المياه؛ تقسيم حوض الفيض بسدود إلى وحدات قابلة للسيطرة، ذات غرض معين إلى حد ما؛ التحكم بوصول المياه واحتجازها في وحدات فرعية حوضية من خلال اقتطاع مؤقت في الجدران الاستنادية والسدود أو من خلال شبكة من القنوات القصيرة والبوابات المنشأة من حجارة البناء.

يسلم باتزر أن هذه العمليات كانت تتطلب المرة تلو الأخرى «قطّاعاتٍ غفيرةً من عدد سكان كامل من المزارعين أقوياء البنية لوحدة حوض»، لكنه يفترض وحدة واحدة فقط كل مرة. هذا الاستنتاج خاطئ بشكل واضح لأن لكل «وحدة حوض» مجاورين اثنين على الأقل – واحد أعلى النهر وآخر أدنى النهر. عندما تكون المياه مرتفعة، ينتهي عجز المحافظة على حواجز ما بين الأحواض وقنوات التصريف الراجعة في الظروف العادية بالفيضان غير المسيطر عليه للحوض الأدنى. عندما يكون فيضان النيل أعلى من المعتاد، بإمكان ثغرة في الحاجز الأعلى أن تهدد لا حوضًا متاخمًا فقط، بل الحوض التالي أيضًا، لأن بإمكان الضغط الذي يتعذر ضبطه جرف الحواجز بين الأحواض بسهولة. كانت الحاجة كبيرة إلى تنسيق الاستجابة لأحواض عديدة بشكل متساو عندما يفشل فيضان

النيل وتؤثر كمية المياه المحولة من الأحواض أعلى النهر على الكمية التي تصل إلى الأحواض الأبعد أدنى النهر. باتزر نفسه يرسم صورة بارزة لـ «المجاعات... الفقر... المقابر الجماعية... الجثث المتعفنة... الانتحار... أكل لحوم البشر... الفوضى... التفكك الشامل... الحرب الأهلية... السرقة الجماعية... عصابات السلب المتجولة... وكذلك نهب المدافن» التي نتجت من العجز في الفيضان السنوي. بينما كان هناك حوادث كانت فيها ذروة الفيض إما عالية جدًا وإما منخفضة جدًا ولا توجد قوة في الأرض كان باستطاعتها تقديم المساعدة، فإن حكومة قادرة على وضع 100 ألف رجل للعمل على بناء جبال اصطناعية من كتل حجرية في الصحراء بالتأكيد لم تحجم عن محاولة الحد من تأثير كمية مياه كثيرة جدًا أو قليلة جدًا تحت ظروف طارئة.

كما في عمليات طبيعية وثقافية طويلة الأمد، حددت الظروف المتطرفة أو الطارئة أكثر من الظروف الطبيعية شكلَ التكيف السياسي لأسلوب الإنتاج المائي. في الصين كما في مصر، عندما كانت منشآت الري الرئيسة وضبط الفيضانات تعمل بشكل صحيح، ازدهرت الزراعة المروية من دون الحاجة إلى حكومة بالغة التمركز. ولكن عندما كانت السدود الكبيرة والحواجز على الأنهار الرئيسة تهدد بالفيضانات أو الزلازل أمكنَ للإدارة المركزية فقط حشد الموارد والقوة العاملة على نطاق واسع بما يكفي لدرء الكارثة. خلال فترة حكم هان، على سبيل المثال، كانت الكثافة السكانية بأعلى مستوياتها في السهل الكبير للنهر الأصفر في مقاطعتي شانسي وهونان. وعلى نحو دوري، كان يغمر النهر الأصفر ضفافه ويفيض على مناطق كبيرة من السهل. ولمنع هذه الكوارث، كانت الحكومة المركزية تشرف على بناء السدود والحواجز. وكان لهذا تأثير في زيادة كمية المياه المحتجزة وعلى ارتفاع مستواها خلال فصول الفيضان، أضف إلى ذلك الضرر الذي كان يمكن النهر أن يُحدثه عندما يخرج عن السيطرة. في عام 132 ق. م صدع النهر السدود، وغمر 16 مقاطعة، وشقَّ رافدًا جديدًا كليًا عبر السهل. تأثر عشرات ملايين المزارعين. وبقي الصدع مفتوحًا لثلاث وعشرين سنة إلى أن زار الإمبراطور «ووتي» بنفسه الموقع وأشرف شخصيًا على إصلاحه. وفي عام 11م حدث صدع آخر قرب النقطة نفسها، ولكن حينذاك غيّر النهر بكامله مجراه

وأحدثَ مجرًى جديدًا إلى البحر – مئات الأميال أبعد من مصبه السابق. وتأجلت أعمال الإصلاح مرة أخرى، لكن هذه المرة لعقود مديدة.

تجيز هذه الحقائق استنتاجين؛ **الأول**، أي جهد على مستوى القرية أو عموم الريف أو حتى المقاطعة لن يكون كافيًا للتكفّل بضخامة المشروع: وإلا فلن تنقضي سنوات عدة بين الصدع والإصلاح. **الثاني**، من يملك وسائل السيطرة على النهر يملك بكل معنى الكلمة وسائل التحكم بأمد حياة أعداد كبيرة من الناس ورفاههم.

في رأيي، ساند التدوين الفعلي للاكتشافات التي قام بها علماء الآثار بشكل ثابت النظرية المائية. فعندما صيغت النظرية لأول مرة، لم يكن هناك شيء معروف تقريبًا عن الظروف التي أفسحت المجال للدول والإمبراطوريات ذات الإدارة الزراعية للعالم الجديد. كان ويتفوغل وراء أول محاولة من علماء الآثار لاكتشاف وجود الري خلال مراحل تشكيل الدول المحلية في أميركا الجنوبية. وواصَل العمل الحديث لعلماء الآثار من جامعة كولومبيا وهارفرد دعم وجهة النظر في أن نمو المدن والدول وفن العمارة الضخم في الثقافات ما قبل الكولومبية لبلاد المرتفعات والبيرو الساحلية نما خطوة بخطوة مع زيادة حجم أنظمة الري فيها وتعقيده. كما مال الكشف عن الآثار الذي قام به في أميركا الوسطى وليام ساندرز وريتشارد ماكنيش أيضًا إلى تأكيد أهمية الري. وكما عرضت في فصل سابق، كانت الزراعة المائية المصدر الرئيس لمعيشة تيوتيخواكان[1] ومملكة الأزتك أكلة لحوم البشر.

وفقًا لويتفوغل، فإن للنظرية المائية مدلولات تنذر زمننا الحالي بالسوء. ففي حين يتتبع أصل الشكل الإداري الزراعي للاستبداد في ظروف بيئية معينة، يؤكد أنه متى حدث مرة فسينتشر من طريق الغزو بعيدًا عن موطنه النهري شبه الجاف. على سبيل المثال، يصر على أن المغول نقلوا الشكل الإداري الزراعي للاستبداد من الصين إلى روسيا في إثر الفتح المغولي لآسيا الوسطى والجزء الشرقي

---

(1) مدينة في أميركا الوسطى تقع في وادي المكسيك. (المترجم)

من أوروبا. في روسيا القيصرية امتدّ نظام «الاستبداد الشرقي» نفسه إلى القرن العشرين. لم تكن الثورة البلشفية و«دكتاتورية البروليتاريا» عند لينين، من وجهة نظر ويتفوغل، خطوات عابرة على طريق إعادة الحريات التي تمتع بها البشر قبل نشوء الدولة، بل لعلها أدت إلى إعادة القوة المتمركزة للحكومة وزادت من طغيان القيصر عبر تطوير وسائل صناعية للاستغلال والسيطرة. بالعودة إلى الصين، يرى ويتفوغل في الثورة الشيوعية هناك تكرارًا للنظام الإمبراطوري القديم، تكريسَ سلالة أخرى بعد انهيارٍ آخر وفصلٍ قصير تحت حكم أجنبي. بسبب البنى المائية والزراعية المستمرة للصين المعاصرة، يبدو لي هذا التحليل ملائمًا للوضع الصيني أكثر مما هو لروسيا، حيث يسود أسلوب الإنتاج الصناعي.

في كلتا الحالتين، يبدو أن ويتفوغل اختصر الدورة في نوعية التحليل الضروري بالنسبة إلينا لو أردنا أن نقيم الطبيعة الحقيقية لتهديد الحرية في عصرنا. لا أعتقد أننا معرضون لخطر تقاليد استبدادية اكتسبت حياة خاصة بها وتحولت من أسلوب إنتاج إلى آخر ومن نظام بيئي إلى آخر. ما توحيه لي نظرية ويتفوغل هو أنه عندما تخضع أنواع معينة من نظم الإنتاج على مستوى الدولة إلى التكثيف، فمن المحتمل صعود أشكال استبدادية للحكومة تمكّنها من تحييد الإرادة والوعي البشريين لآلاف السنين. هذا ما يحيل إلى أبعد من ذلك، إلى أنه يمكن للحظة الخيار الواعي المؤثرة أن توجد عبر الانتقال من أسلوب إنتاج إلى آخر فحسب. بعد أن يكون المجتمع قد قام بالتزامه نحو استراتيجية بيئية وتقنية معينة لحل مشكلة انخفاض الاكتفاء، وقد لا يُحتمل فعل شيء حيال ما يترتب من عواقب للخيارات المتهورة في الأمد البعيد.

المراجع والملاحظات

لاتجاهات سكان العالم يُنظر: Joseph Spengler, *Population Change, Modernization, and Welfare* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1974).

يُنظر: Kingsley Davis, *The Population of India and Pakistan* (Princeton: Princeton University Press, 1951); Karl Butzer, *Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in Cultural Ecology* (Chicago: University of Chicago Press, 1976); Hans Bielenstein,

«The Census of China During the Period 2-742 AD,» *Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities*, vol. 19 (1947), pp. 125-165.

في ما تبقى من هذا الفصل اعتمدتُ بقوة على كتاب كارل ويتفوغل **الاستبداد الشرقي**. يُنظر أيضًا: Karl A. Wittfogel: *Wirtschaft und Gesellschaft Chinas* (Leipzig: C. L. Hirschfeld, 1931); *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power* (New Haven: Yale University Press, 1957); *Agriculture: A Key to the Understanding of Chinese Society Past and Present* (Canberra: Australian National University Press, 1970); «The Hydraulic Approach to Pre-Spanish Mesoamerica,» in: Frederick Johnson (ed.), *Chronology and Irrigation. The Prehistory of the Tehuacan Valley*, vol. 4, Andover: Robert S. Peabody Foundation (Austin: The University of Texas Press, 1972).

اقتباس ماركس من مقالة: «British Rule in India,» *New York Daily Tribune*, 1953.

يُنظر: Wittfogel, «The Hydraulic Approach,» p. 62.

يُنظر آدامز: Robert McC Adams, *The Evolution of Urban Society: Early Mesopotamia and Prehispanic Mexico* (Chicago: Aldine, 1966), p. 68; Butzer, *Early Hydraulic Civilization*.

يرتكب: Dwight Perkins, *Agricultural Development in China 1368-1968* (Chicago: Aldine, 1968).

الخطأ ذاته بالنسبة إلى الصين. يُنظر: Hans Bielenstein, «The Census of China During the Period 2-742 AD,» *Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities*, vol. 19 (1947), pp. 125-165,

للاطلاع على فيضانات النهر الأصفر. وإني ممتن للنصح والنقد اللذين تلقيتهما من الأنثروبولوجي المتخصص بالمسائل الصينية الصديق والزميل ميرون كوهن. يُنظر: Wittfogel, «The Hydraulic Approach»; G. L. Ulmen, «Wittfogel's Science of Society,» *Telos*, vol. 24 (1975), pp. 81-114,

لمراجعة تأثير النظرية المائية على البحث. أيضًا: Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture* (New York: Thomas Y. Crowell, 1968); Barbara Price, «Prehispanic Irrigation Agriculture in Nuclear America,» *Latin American Research Review*, vol. 6 (1971).

يُنظر: William Mitchell, «The Hydraulic Hypothesis: A Reappraisal,» *Current Anthropology,* vol. 4 (1973), pp. 532-534.

لتوضيح يتعلق بالنظرية المائية. يُنظر: Richard Woodbury & J. Neely, «Water Control Systems of the Tehuacan Valley,» in: Johnson (ed.), *Chronology and Irrigation,*

للريّ في تيخواكان.

14

أصل الرأسمالية

لا تقترح النظرية المائية تفسيرًا للتقارب اللافت بين المؤسسات الاجتماعية لمصر وبلاد النهرين والهند والصين وبيرو الإنكا فحسب؛ بل تبسط أيضًا سبلًا واعدة للتساؤل المرتبط بمسألة سبب نشوء الرأسمالية والديمقراطية البرلمانية في أوروبا قبل ظهورها في أي مكان آخر من العالم. في شمال الألب، حيث لا توجد أنهار النيل أو السند أو النهر الأصفر، وحيث تؤمن ثلوج الشتاء وأمطار الربيع الرطوبة الكافية لمحاصيل الحقول والمراعي، بقي السكان متفرقين أكثر من المناطق المائية. قبل أن تكتظ وديان الأنهار بالمستعمرات المائية على مدّ البصر بوقت طويل، تأهبت أوروبا الشمالية للشعوب المتوسطية والشرق كما تأهبت لاحقًا أميركا لأوروبا: جبهة لا تزال مغطاة بغابات عذراء (مع ذلك كانت الكثافة السكانية أعلى من المنطقة المعتدلة من أميركا الشمالية، حيث أسهم غياب الحيوانات الداجنة أكثر في إبطاء النمو السكاني).

لم يتسبب تركز السكان في موئل ذي حدود معينة في ظهور أولى الدول في شمال أوروبا. كانت جميعها دولًا تابعة استدعى وجودها مجاراة التهديد العسكري للإمبراطوريات المتوسطية واستغلال إمكانات التجارة وكسب الغنائم التي تؤمنها الثروة العظيمة للإغريق والرومان.

على الرغم من أن معظم العلماء يشيرون إلى التنظيم السياسي للبريتون والتيتانيين والفرنج والغال في العصر الحديدي «كزعامات»، فإن تلك المجتمعات كانت قد تطورت بشكل واضح نحو بنية الدولة. كان ينبغي مقارنتها مع الدول الإقطاعية مثل دولة بونيورو بدلًا من زعامات التوزيع مثل قبائل التروبرياند والشيروكي. في عام 500 ق. م أصبحت الحياة الاجتماعية لشعوب أوروبا مقسمة بشكل حادّ إلى طبقات. وكالغزاة الفيديين لوادي السند، كان الفرنج والغال والتيتانيون والبريتون مقسمين إلى ثلاث طبقات تتبع التوريث: طبقة الزعامة الحربية الأرستقراطية؛ الكهنة، وهم الدرويديون، المسؤولون عن القيام بالشعائر وحفظ السجلات وحساب الوقت؛ وطبقة العامة التي تعيش في قرى زراعية أو مساكن رعوية متفرقة كانت جزءًا من مقاطعة خاضعة للزعيم المحلي. وعلى رأس المجتمع هناك ملك محارب مورَّث أو شبه مورَّث هو فرد من أفراد ذرية أو عائلة حاكمة.

بينما سعى الملك وزعماء المحاربين إلى إبقاء صورة الكرم السخي التي هي من خصائص الموزعين «الكرماء» المؤمنين بالمساواة، احتكروا امتلاك المعدات الأساسية لصون القانون والنظام ولشن الحملات العسكرية. كانت المواد التي احتكروها تتضمن المركبات والخيول والدروع والسيوف الحديدية. كان العامة ملزمين تأمين هدايا شعائرية من الحبوب والماشية وإسداء خدمات من العمل حين يستدعيهم الزعماء أو الملك. فحين يعون مصلحتهم، يتأهبون بكل طيب خاطر للاستجابة لطلبات حكامهم الأعلى قاطعي الرؤوس. اجتاز المجتمع مرحلة اعتماد الموزعين فيه على الكرم العفوي لأتباعهم، على الرغم من أنه كان لا يزال هناك غابات غير مأهولة بإمكان العامة أو الزعماء الساخطين الهرب إليها عندما يصبح «تقديم الهدايا» مفرطًا بما هو من جانب واحد.

لم تكن بالطبع الحاجة إلى شخصيات مناسبة ما أفشل الدويلات الأوروبية الشمالية في تطوير نظم استبدادية أحادية. حكايات البطولة الإيرلندية، بيوولف، القصص البطولية الجرمانية، وإلياذة هوميروس مليئة بزعماء محبطين دعاهم مارك بلوخ بـ«الملوك الصغار غريبي الأطوار». يدفعون بأنفسهم إلى المعركة، ينهبون

المدن وسط الصراخ وأصوات الأبواق، يذبحون الرجال والصبيان ويأخذون الفتيات والنساء في مركبات علقت عليها رؤوس مقطوعة حديثًا، الملوك السلتيون ومن كان تحت إمرتهم من أكثر الشخصيات عديمة الرحمة في التاريخ. وبكلمات بيغوت، كانوا متجشّئين، سريعي الغضب، جماعة بغيضة: «تمسك أيديهم مقبض السيف لدى أدنى إشارة لإهانة ما... تمسح الشوارب المشحمة التي كانت علامة على النبل».

مع ذلك ظلت ممالك السلت صغيرة ومفككة. كان العامة يتملصون من حماية زعيم ويذهبون إلى آخر. كان التحالف الجديد من المحاربين يشير إلى صعود عائلات حاكمة جديدة وسقوط القديمة. أجزاء كاملة من الممالك اقتطعت نفسها عن وطنها وهاجرت بالجملة من منطقة إلى أخرى: البلجيون[1] إلى بريطانيا، والهيلفيتيون[2] إلى سويسرا، والكمبري[3] والتيتانيون والأمبرونيون[4] إلى بلاد الغال، والسيثانيون إلى ترانسيلفانيا. وحّد الرومان هذه الممالك الإقطاعية الجوالة المفككة ضمن مقاطعات إمبراطورية، بنوا أول الأبنية الكبيرة وأول الطرق اللائقة، وأسسوا أنظمة لسك العملة وجمع الضرائب المنتظم والمحاكم القانونية. الكثير من هذا كان قشرة رقيقة تكسو ريفًا لا يزال بالكاد مهيأ لبنية الدولة. وخارج كبرى المقاطعات مارس الفرنج والغاليين والسلتيين والتيتانيين الذين أصبحوا رومانيين الزراعة على نطاق ضيق من أجل كسب العيش في قرى معزولة. بقيت المتاجرة بالمواد الصناعية والمنتجات الزراعية متخلفة مقارنة بالأجزاء المحيطة بالبحر المتوسط من الإمبراطورية. بقي الجميع أميًا بكل معنى الكلمة. من هنا، مع انهيار روما في القرن الخامس الميلادي لم ترتد أوروبا ما وراء الألبية إلى «عصور الظلام»، بل لم تخرج منها في الأصل. وما ارتدت إليه لم يكن إلا النظام الإقطاعي.

---

(1) قبيلة غالية. (المترجم)

(2) قبيلة غالية. (المترجم)

(3) قبيلة ألمانية. (المترجم)

(4) قبيلة من جزيرة جتلاند. (المترجم)

عمَد زعماء الإثنيات والملوك والحكام الرومانيون سابقًا والضباط وأمراء الحرب وقادة المزارعين وقطاع الطرق بقوة السلاح، إلى تشكيل سلسلة ممالك إقطاعية جديدة من المقاطعات الرومانية السابقة. بالطبع، لم يكن الإصلاح مكتملًا. ازداد عدد السكان تحت حكم الرومان وألزم كثيرٌ من الشعوب الرعوية شبه المتنقلة على الاستقرار وممارسة شكل متوازن للغاية من الزراعة المختلطة. كان الإقطاع الجديد أكثر صرامة وتنظيمًا من سابقه الروماني. استُخدم المزارعون دائمًا أقنانًا «لملّاك المزارع» التي كانت تديرها الأرستقراطية الجديدة. فوُعدوا بالحماية من الاعتداء والسرقة في مقابل تأمين كميات وافية من الغذاء والعمل والمواد لدعم سيد المملكة وفرسانه وحِرَفييه. شكّل الهرميةَ السياسية قسمُ الولاء المتبادل بين الفرسان والأسيادمن جهة، والأمراء الأقل سلطة والملوك من جهة ثانية.

على الرغم من الصرامة التي أدخلتها القنانة إلى النظام الإقطاعي، استمر التنظيم السياسي ما بعد الروماني في أوروبا بتناقضه والتنظيم في الإمبراطوريات المائية. كانت الدوائر المركزية للغنائم الداخلية والخارجية والأشغال العامة غائبة بشكل ملحوظ. لم يكن هناك نظام وطني لتحصيل الضرائب، وخوض الحروب، وبناء الطرقات والقنوات أو لإقامة العدل. كانت الوحدات الأساسية للإنتاج ممتلكات زراعية مستقلة، تامة في ذاتها تعتمد على الزراعة المطرية. لم يكن هناك أسلوب اقتصادي للملوك والأمراء الأكثر قوة لإعاقة أو تسهيل أعمال الإنتاج التي تتم في كل عالم زراعي صغير منفصل.

على عكس المستبدين المائيين، لم يكن بإمكان ملوك أوروبا في العصور الوسطى تزويد أو قطع المياه عن الحقول. كانت الأمطار تسقط بغض النظر عما يقرر الملك في قصره، ولم يوجد شيء في العملية الإنتاجية يستدعي تنظيم جيوش كبيرة من العمال. وبتعبير ويتفوغل، «لم تتضمن العلميات المتفرقة للزراعة المطرية تأسيس نماذج وطنية للتعاون كالزراعة التي تعتمد على مياه الري». وبذلك كانت الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية قادرة على مقاومة كل محاولات تأسيس أنظمة حكومية وطنية خالصة. وبدلًا من أن يتحول الملك إلى مستبد «شرقي»، بقي مجرد «أول السواسية». ومثل جون ملك إنكلترا في رونيميد في عام 1215م، كان

على ملوك أوروبا الإقطاعيين عمومًا أن يحجموا عن التدخل في حق النبلاء في تحصيل الضريبة من العامة. منعت الماغنا كارتا[5] التي انتزعها نبلاء إنكلترا من الملك جون صعود استبداد متمركز، لا من خلال ضمان تمثيل برلماني – لم يكن هناك برلمان حينذاك – بل من خلال ضمان أن كل بارون هو «ملكٌ» في قصره الخاص.

على الرغم من اشتهارها بأنها «عصور ظلام»، كان مطلع العصور الوسطى فترة نمو سكاني وتوسع وتكثيف في الإنتاج الزراعي. ففي نحو عام 500م كان هناك على الأرجح حوالى 9 أشخاص فقط في كل ميل مربع في أوروبا ما وراء الألب، ولكن في عام 1086م وصلت إنكلترا إلى كثافة 30 شخصًا في كل ميل مربع. فقط بعد 500م أصبحت الفؤوس الحديد ومناشر الخشب رخيصة بما يكفي ليستخدمها المزارع العادي. توسعت المستعمرات على حساب أراضي الغابات الباقية وحواف السبخات والمستنقعات. ازدادت نجارة الأخشاب، وبناء البيوت وتشييد الأسوار. زاد اختراع حدوة الحصان من فائدته كحيوان جر. وأدى تطوير الحدادة إلى إدخال نوع جديد من المحراث؛ آلة ثقيلة ذات حديد مدبب تركّب على عجلات وقادرة على حفر أخاديد عميقة في الطين الرملي والوحل الذي يميز مناطق الغابات المطرية. لأن الأخاديد كانت تُشَقّ عميقًا، لم يكن الحرث المتقاطع ضروريًا وأصبح الحقل الأكثر اقتصادًا عند الحرث هو الذي يحتاج قوامه إلى عدد أقل من عمليات الانقلاب في كل وحدة من المنطقة، وهكذا، فهو الحقل الذي يكون طوله أكبر من عرضه. أدخل الشكل الجديد طريقة محسنة لتدوير المحاصيل، فقللت من الحاجة إلى إراحة الأرض. كان النظام بكامله مناسبًا بشكل يثير الإعجاب في ما يرتبط بعلاقات الإنتاج الخاصة بالمزرعة. كل عائلة مزارعة تستطيع الوصول إلى منشآت الحدادة في المزرعة، كالمحاريث الثقيلة ومجموعات حيوانات الجر والحقول المتجاورة التي لا يستطيع المزارع أن يتحمل بشكل مستقل عبئها على عاتقه. لماذا إذًا لم يستمر هذا النظام إلى ما بعد القرن الرابع عشر؟

---

(5) ماغنا كارتا: باللاتينية «Magna Carta»، وتعني الشرعة الكبرى، هي وثيقة إنكليزية صدرت في 1215م لتنظيم العلاقة بين القوى السياسية الثلاث الملك والكنيسة والنبلاء. (المترجم)

تبدأ عادة تفسيرات انهيار الإقطاع بملاحظة أن التجارة والصناعة قد نمتا في القرنين العاشر والحادي عشر، وأن البحث عن المكاسب حوّل جميع الالتزامات العرفية تجاه الإقطاع إلى علاقات سوق، عرض وطلب. ولكن كما يوضح إيمانويل فالرشتاين (Immanuel Wallerstein)، «يجب عدم الاعتقاد بأن الإقطاع كنظام مناقضٌ للتجارة». كان الأسياد الإقطاعيون يشجعون دائمًا نمو المدن وتطور الحرفيين والتجار المدنيين الذين أمكنهم تسهيل تحول منتجات الأرض الزراعية إلى عدد من السلع والخدمات التي لم تستطع المزرعة تأمينها. لم يكونوا على الإطلاق معارضين أيديولوجيًا للبيع والشراء وجني الأرباح. ما يجب تفسيره، إذًا، هو لِمَ استغرقت المدن والأسواق أكثر من 500 سنة لتبدأ هدم النظام الإقطاعي.

الجواب، كما أعتقد، هو أن المدن والأسواق نمت ببطء ما دام باستطاعة الرقيق والمزارعين الأحرار المحافظة على مستويات معيشة عالية نسبيًا من خلال أعمالهم الزراعية التقليدية. كان على تطور الحياة التجارية انتظار تشكُّلِ كثافة سكانية حتى يصل هذا التطور إلى نقطة يهدد فيها الوضع الإقطاعي القائم. وعندما ارتفعت الكثافة، انخفض الاكتفاء، وكذلك انخفضت الريعية الزراعية من منظور المزارعين والأسياد الإقطاعيين على السواء. وهذا ما شجع الأسياد الإقطاعيين على البحث عن مصادر دخل إضافية، الأكثر أهمية بينها كان تربية الأغنام من أجل الصوف، والذي في المقابل حدّ من مساحة الأرض المتوافرة للمحاصيل الغذائية، وقلل من مساحة دُور المزارعين، وأفقر الكثيرَ من السكان القرويين، فحفز الهجرة إلى المدن ومراكز إنتاج الصوف.

أدين بوصفي لهذه العملية بالكثير لإنجاز ريتشارد جيرالد ويلكينسون. في كتابه *Poverty and Progress* **(الفقر والتقدم)**. يشير ويلكينسون إلى أن خصوبة الأراضي الصالحة للزراعة ومحصول البذور كانا إلى انخفاض في إنكلترا خلال القرن الثالث عشر:

> أُفسد النظام المتوازن لزراعة العصور الوسطى. لم يُقابَل التوسع في الأراضي الزراعية بتوسع كافٍ بالرعي والحيوانات لتأمين السماد... تم تقصير فترات إراحة الأرض... وحرثت أراضٍ أقل صلاحية.

قامت محاولات لزيادة المحاصيل في كل فدان أرض من خلال المعالجة بالجير، وتسميد الأرض بالطين الجيري، والحرث في رماد القش، وبذر البذور بشكل أكثف وتجربة بذور جديدة. ولكن من دون فائدة. فعلى الرغم من ازدياد الإنتاج، إلى أن عدد السكان ازداد أكثر. تضاعف ثمن القمح ثلاثة أضعاف تقريبًا بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الرابع عشر في الوقت نفسه الذي ارتفع فيه تصدير الصوف 40 في المئة. وعنى ارتفاع أسعار الحبوب أن العائلات التي كانت تفتقر إلى أراضٍ كافية لإطعام نفسها دُفعت إلى حافة الفقر.

كما أوضحت في دراستي حول نمو السكان في أوساط اليانومامو، كان ينبغي أن تتصف الفترة التي تسبق، أو تلي مباشرةً، استنزافَ وإنهاكَ النظام البيئي ما قبل الصناعي بمعدلات عالية قتل الأطفال الإناث. على الرغم من أن هذا الافتراض لا يمكن اختباره في حالة اليانومامو، فإن المعطيات متوافرة لإنكلترا في أواخر العصور الوسطى. بحسب جوزياه راسل (Josiah Russel)، فإن النسبة الجنسية لصغار السن ارتفعت إلى الذروة 130:100 بين عامي 1250م و1358م، وبقيت غير متوازنة بشكل حادّ قرنًا آخر. بالطبع، بما أن قتل الأطفال كان يُعتبر جريمة في التقاليد اليهودية – المسيحية، فقد بدتْ كل محاولة نفذها الأهل كأنها حوادث عرضية. تفرض دراسة بربارا كلوم (Barbara Kellum) لقتل الأطفال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن قاضي التحقيق كان يستدعى إذا احترق الطفل حتى الموت بقدر ماء انقلب عن النار، أو غرق في وعاء حليب، أو وقع في بئر. ولكن الاختناق، السبب الأكثر تكرارًا لموت الأطفال «العرضي» كان يعالجه كاهن الأبرشية. كان يعزى الموت اختناقًا بشكل معتاد إلى «الإفراط في التغطية» وكانت الأم بالكاد تعاقب بما هو أقسى من السخط العام أو التوبة؛ اقتصار نظامها الغذائي على الخبز والماء.

كانت النظرية التي تقبع خلف «الإفراط في التغطية» هي أن للأم الحق في العناية بطفلها في سريرها، وإبقائه إلى جانبها خلال الليل، ولكنها ملزمة في رعايته بألا ترقد وتنقلب فوقه. عندما كان يموت طفل في ظروف كهذه، كان من المستحيل إثبات نية القتل. من الواضح، بكل الأحوال، أن الأمهات اللواتي

يندفعن بقوة لتربية أطفالهن نادرًا ما ينقلبن فوقهم. قتل الأطفال الانتقائي، وليس العرضي، هو التفسير الوحيد للاختلال الكبير في التوازن في نسب جنس اليافعين في أواخر العصور الوسطى.

على الرغم من المعدل العالي في قتل الإناث، استمر عدد سكان إنكلترا بالزيادة حتى عام 1348م، عندما أهلك الطاعون الأكثر فَتكًا في تاريخ أوروبا – الموت الأسود – بين ربع ونصف عدد السكان. وذلك ما يشير إلى العلاقة بين سوء التغذية والمناعة ضد الأمراض، أعتقد أن من المنطقي افتراض أن النسبة اللافتة لمعدل الوفيات في وباء الطاعون الأسود كانت مرتبطة بتدهور المعايير الغذائية. بالتأكيد، عُزِيَ تحول السكان من الريف إلى المدن والزيادة في الكثافة الإجمالية للمستعمرات سببًا في تفشي الوباء.

نتيجة الطاعون، دخلت أوروبا فترة من الاضطراب السياسي والاقتصادي الشديد. كانت الممالك الإقطاعية تهتز من قمتها إلى أدناها بانتفاضات المزارعين الضخمة، والحركات المسيحية، وانتشار الطوائف التي كانت تمارس جلد الذات، ومذابح اليهود، والانشقاقات داخل الكنيسة الكاثوليكية، حملات قمع الهراطقة، وتأسيس محاكم التفتيش، وسلسلة متواصلة من الحروب والمعروفة على نطاق واسع بحرب المئة عام (1337–1453م). وكلّ ما سلف يبين، على ما أعتقد، أن تكثيف أسلوب الإنتاج المعتمد على المزارع وصل إلى حدوده القصوى من الناحية البيئية، وأن الأزمة التي سبقت نشوء أسلوب الإنتاج الجديد الذي ندعوه الرأسمالية كانت في عمقها شبيهة بالأزمات التي سبقت «ثورة» العصر النيوليتي وصعود الدول البدائية. فلأوضح هذه النقطة. لا أدّعي أن البيئة والضغوط الإنجابية وحدها كافية للتسبب في أزمة الإقطاع خلال القرن الرابع عشر. فقد كان لعوامل إضافية أخرى تأثيرها مثل استغلال الأسيادِ الإقطاعيين المزارعين وصعود طبقات جديدة من التجار والمصرفيين. كان للضغط الذي مارسه النبلاء الإقطاعيون وصعود المصالح التجارية دور في خلق الأزمة بالطبع مثلما كان للمطامح الفاسدة للإداريين البيروقراطيين في الصين دور في تدمير سلالات عدة. علاوة على ذلك، أجد أنه يمكن تصور أن هناك ضغطًا أقل من الطبقة الإقطاعية

الحاكمة لجعل المزارعين يكثفون الإنتاج، ربما توقف عدد السكان عن النمو موقتًا عند حدّ منخفض يكفي لتفادي الأزمة والمحافظة على مستويات عيش فوق عتبة الفقر. وربما كان لمعارضة الكنيسة قتل الأطفال دور في تسريع نمو السكان وتعجيل الأزمة.

لكن لا يمكن تجاهل العوامل البيئية. فلو لم يدفع عجز الأراضي غير المسيجة عن إنتاج محاصيل غذائية إضافية إلى ما دون العائدات الدنيا لما كانت عواقب تسييج الأراضي لغرض إنتاج الصوف وخيمة إلى هذه الدرجة. ولا أرى سببًا يدعو للشك أنه في نهاية الأمر، كان لاضطراب مناخي ما، وضغوط إنجابية أن تهيئ الوضع من أجل التحول إلى أسلوب جديد للإنتاج. وعلاوة على ذلك، فقد بدأت دورة التكثيف والاستنزاف وأنماط جديدة للإنتاج في مجتمعات قروية وجماعات غير مقسمة طبقيًا ما قبل تشكيل الدولة. أعتقد أن علينا الخلاص بعد ذلك إلى أن نظام المزارع كان مزعزعًا بشكل متوارث لأسباب بيئية واقتصادية – سياسية على السواء، وأننا يجب ألا نحاول ضمن حدود معرفتنا الحالية أن نضفي أهمية سببية أكبر إلى واحد منها أو آخر.

تبقى مسألة واحدة وهي لِمَ لم يصبح الانخفاض في تعداد السكان بعد الموت الأسود جزءًا من دورة صعود وهبوط ديموغرافي شبيه بصعود وهبوط مستويات العيش التي كمنتْ وراء التغيرات السلالية في المجتمع المائي. بمعنى آخر، لماذا، استُبدلَ الإقطاعي بنظام جديد بالكامل بدلًا من إصلاحه بعد انقضاء الأزمة؟ هنا، أيضًا، أعتقد أن نظرية ويتفوغل تقدم المفتاح من خلال لفتنا إلى البيئات المختلفة للعالمين المائي والإقطاعي؛ على الرغم من أنني أريد أن أشدد مرة أخرى على وجود تفاعل بين العوامل البيئية والعوامل السياسية والاقتصادية.

اقترن الفقر ثم انهيار حكم السلالات في المجتمعات المائية أنموذجيًا بضعف الإنشاءات المائية وعطبها. كانت تعليمات العمل الأولى هي إصلاح البنية المائية. ويعود ذلك إلى السلالة الجديدة، التي لم تتصرف خارج الغيرية بل من التنبه إلى احتدام صراعاتها الاقتصادية والسياسية حتى الذروة. وفي تكريس نفسها لإصلاح البنية المائية، كانت السلالة الجديدة تجند المجتمع بكامله آليًا

لإصلاح الاقتصاد السياسي لنظام إدارة الزارعة الاستبدادي. من جهة أخرى، تكمن المشكلة في أزمة الإقطاع الأوروبي في افتقار ضحايا تسييج الأراضي وتربية الحيوانات إلى الأراضي التي يحتاجون إليها لزراعة المحاصيل الغذائية. كانت تعليمات العمل الأولى لأسياد المزارع الذين تحولوا إلى تجار وصناعيين تفيد بأنه لا يمكنهم أن يسرّحوا الأغنام، ويعيدوا المزارعين إلى الأراضي، أو يتوقفوا عن صناعة المنسوجات الصوفية. لا يكمن بلوغ رفاهيتهم السياسية والاقتصادية السريعة الحدَّ الأقصى بالعودة إلى الخلف، بل في المضيّ قدُمًا في محاولات أكبر وأكثر غير ممنوعة لكسب المزيد من النقود ومراكمة رأس المال من خلال زيادة تربية الأغنام والإكثار من تصنيع المنسوجات الصوفية. باختصار، لم يرمم نظام المزارع، بل استبدل بنظام يعتمد على التقنية العلمية والإنتاج الآلي والرأسمالية والديمقراطية البرلمانية.

في ظل الرأسمالية يُوزِّع معظمَ السلع والخدمات «شركاتٌ» تتحكم أو يمكنها الوصول إلى الاعتمادات المالية أو «رأس المال» المجمع. هدفتْ شركات كهذه إلى تجميع رأس مال أكبر، وللقيام بذلك بأسرع وأفضل ما يمكن عمدتْ إلى زيادة معدل جني الأرباح إلى الحد الأقصى. تستطيع الشركة أن تزيد معدل ربحها حين تمتلك ميزة تكنولوجية متفوقة على منافسيها وتتمكن من خفض تكاليف كل وحدة. بذلك أصبح الابتكار التكنولوجي بعد فترة وجيزة مفتاح تجميع رأس المال والنجاح العملي. ويؤمن العلم، في المقابل، مفتاح الابتكار التكنولوجي. هكذا شكلت الرأسمالية من العلم والتكنولوجيا مركبًا مدعومًا ومميزًا من الناحية التبادلية نشأ في أوروبا كحل للأزمة الإقطاعية.

وجدت خصائص عدة من هذا المركّب في المجتمعات المائية أيضًا. فقد كان للصينيين، على سبيل المثال، ملكية خاصة للأرض، وأسواق لعرض أسعار بيع وشراء السلع الزراعية والصناعية، وتجار أثرياء، وشبكة من المصارف المالية والمؤسسات التجارية. كانت عائلات المزارعين تبيع وتشتري ضمن الأسواق المحلية بهدف زيادة الأرباح إلى الحد الأعلى. علاوة على ذلك، كان الأباطرة الصينيون يشجعون الابتكارات العلمية والتكنولوجيا. وفي الحقيقة، نعلمُ اليومَ أنه

حتى مجيء القرن الرابع عشر كان معدل تقدم الصين العلمي والتكنولوجي يضاهي المعدل الأوروبي. أظهر بحث تاريخي حديث أن الصينيين كانوا المسؤولين عن تطوير عنصر أساسي في الساعة، وهو شاكوش الساعة، الجزء الذي يمنع الزنبرك من الانفكاك بشكل أسرع عندما يدار بشدة. ويا لها من مفارقة، فالصينيون هم من اكتشف البارود، والذي استخدمه الأوروبيون في فتحهم الشرق. وبسبب استثمار السدود والقنوات وأنظمة الري التي تتحكم بها الحكومة، كانت طواحين الماء الصينية أرقى من نظيرتها الأوروبية. ويعتبر جوزف نيدهام (Joseph Needham)، المؤرخ العظيم للعلوم والتكنولوجيا الصينية، أن آلة النفخ المعدنية التي تعمل على طاقة المياه هي السلف المباشر للمحرك البخاري. ينسب نيدهام أيضًا إلى الصينيين اختراع أول حاسوب، وبوابة إقفال للقناة، وجسور معلقة بسلاسل حديدية، أول ذراع ميكانيكية حقيقية، ودفة توجيه السفينة، الطائرة الورقية التي تحمل الإنسان. ومنذ عام 1313م كان الصينيون يقومون بتجريب آلات الغزل التي تديرها المياه والتي كانت الأنموذج الأولي لدولاب الغزل الأوروبي.

على الرغم من هذه التجارب، من المبرر أن يشك المرء في أن الصين لم تكن لتطور أسلوبَ إنتاج صناعيًا من دون تهديد المثال الأوروبي وتحفيزه. ففي الصين لم تصبح يومًا المِيزة التكنولوجية على المنافسين عاملًا مفتاحيًا في رفع الأرباح وتجميع رأس المال. كان المفتاح الملائم للحياة التجارية الصينية هو دعم البيروقراطية الإدارية؛ «دائرة النهب الداخلية» عند ماركس. من دون صلات إمبراطورية مناسبة، كان من الممكن أن يتم يبدِّد الأرباحَ الموظفون الفاسدون. ومن الممكن أن توقف التراخيص التجارية بشكل اعتباطي، وكان العمل الذي يثبت أنه بالغ الربحية في خطر دائم من أن تبتلعه الحكومة. بمعنى آخر، تبع نموُّ التجارة الحرة والصناعة في الصين نموَّ الدولة الإدارية الزراعية وبقي جانبًا مهمًا ولكن تابعًا للاقتصاد السياسي المتمركز. «في أفضل الأحوال» يكتب ويتفوغل، إن أسياد المجتمع المائي «عالجوا ما اعتبره المشروع الرأسمالي هناك كحديقة مفيدة. وفي أسوأ الأحوال، كانوا يجزون وينزعون أغصان العمل الرأسمالي ليصبح ساقًا». في المقابل، رافقت الصناعة والتجارة الحرة في أوروبا بعد العصور الوسطى، وربما سبقتْ، نشوءَ الحكومات الملكية النيابية الأوروبية. وقد برزت

قوة الملوك الأوروبيين والتجار من خلال قاعدة مشتركة من القيود والحدود الإقطاعية، وتنافَسَ الملوك والتجار على السواء من أجل السيطرة على الاقتصاد السياسي ما بعد الإقطاعية.

في حين كان بمقدور ملوك إنكلترا وفرنسا وإسبانيا التدخل الوحشي في حياة رعاياهم، فإن طغيانهم كان يتوقف دائمًا عند حد معين مع معارضة أصحاب الملكيات الضخمة والتجار الأثرياء. يقول ويتفوغل، «كان حكام أوروبا الاستبداديون يكيدون بقسوة ويقتلون بلا رحمة مثلهم مثل رفقائهم الشرقيين. في أي حال، كانت قدرتهم على الاضطهاد والسلب تجد حدًّا لها من النبلاء والكنيسة والمدن التي، على الرغم من قدرتها على الاستقلال، كان يمكن لحكامها الأوتوقراطيين تقييدها، ولكن لم يكن بإمكانهم تدميرها». عندما ادعى الملوك الأوروبيون أنهم حظوا بتفويض إلهي وسلطة مطلقة، وقف برجوازيو إنكلترا وفرنسا في وجههم. وسرعان ما تخلى الذين كانوا سيصبحون عاجلًا أم آجلًا فراعنةً وإنكا أوروبيين عن حقوقهم في تمثيل السماء، أو انتهى بهم المطاف تحت المقصلة.

من وجهة نظر أنثروبولوجية، مع نشوء الديمقراطيات البرجوازية والبرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت أوروبا ارتدادًا شاذًا للهبوط من الحرية إلى العبودية، والذي كان الخاصية الرئيسة لنشوء الدول لستة آلاف سنة. عارض ويتفوغل رأي ماركس وإنغلز بأن التاريخ ما هو إلا تاريخ الصراع الطبقي بملاحظته أن «الصراع الطبقي هو ترف تختصّ به المجتمعات المنفتحة واللامركزية». ربما أفضل طريقة لطرح هذا – إذ إنني لا أنكر أن الصراع الطبقي وجد في المجتمعات المائية ولو بأشكال مستترة – هو القول إنه فقط في التاريخ الحديث لأوروبا وأميركا وصلت الطبقات الدنيا إلى حرية النضال العلني من أجل السيطرة على الدولة. ليس لكارهٍ الركوع والتمرغ بالتراب، ومثمِّنٍ للسعي نحو المعرفة العلمية للثقافة والمجتمع، ومؤمنٍ بالحق في البحث والمناقشة والمناظرة والنقد، وموقنٍ بأن المجتمع أكبر شأنًا من الدولة – ليس له أن يتحمل إساءةَ فهمِ أن صعود الديمقراطيات الأميركية والأوروبية لم تكن إلا نتاجًا طبيعيًا للمسيرة

نحو الحرية. إنه لمن الخطير بالتوازي مع ذلك افتراض أن الرأسمالية تمثل نقطة نهاية التطور الثقافي. ولا يمكن المرء أن يتجاهل التهديد الذي يقدمه اليوم تكثيف أسلوب الإنتاج الرأسمالي لوقاية تلك الحقوق الثمينة والحريات التي ازدهرت في ظلها حتى الآن، ولو بشكل محدود.

كان أشد منتقدي الرأسمالية - ومنهم كارل ماركس - يسلمون دائمًا أنه لم يكن هناك من سابق للموجة العارمة للمردود من السلع الغذائية والصناعية المرتبط بصعود شركات الأعمال الأوروبية والمصارف ومنظمات المقاولات. لم يحدث من قبل أن بذل أفراد عديدون جهدًا أعلى لزيادة الإنتاج بسرعة أكبر وبتنوع كبير في المشاريع. أعتقد أن سر هذه «القفزة إلى الأمام» في الجهد الإنتاجي هو تحرير أفراد طموحين من القيود السياسية والاجتماعية والأخلاقية عبر محاولات ذاتية لزيادة الثروة. كان المقاولون الأوروبيون هم أول من استطاعوا في تاريخ العالم تدبُّر أعمالهم من دون قلق من أن «دائرة النهب الداخلية» ستقوم بتحجيمها. وبالقدر نفسه من الأهمية، استطاعوا أن يجمعوا الثروة من دون أن يضطروا إلى القلق بشأن مشاركتها مع أصدقائهم أو أقربائهم الذين ساعدوهم كي يصبحوا أثرياء. وكـ «العظماء»، جمع المقاولون الثروة بحضِّ أتباعهم - يسمون اليوم موظفين - على العمل بجد أكبر. ولكن على عكس الميوميين في جزر سليمان، لم يكن المقاولون مضطرين إلى التوسل والتزلف والإغواء. فبامتلاكه رأس المال، استطاع المقاول أن يشتري «العون» ويوظف «الأيدي العاملة» (أضف إليها الظهور والأكتاف والأقدام والأدمغة). ولم يكن المقاول مضطرًا إلى أن يَعِدَ بتوزيع كل شيء في مهمة الشركة التالية. وبما أن تابعيه لم يكونوا أقرباء «الرجل العظيم» أو أصحابه القرويين، كان من السهل عليه ألا يكترث بمطالبهم بحصة أكبر من الإنتاج. علاوة على ذلك، لم يكن للأيدي - الظهور - الأكتاف - الأقدام - الأدمغة المساعدة من خيار في الأمر. لأنه بحرمانهم من الوصول إلى الأراضي والآلات، لن يستطيع «المساعدون» العمل ما لم يقبلوا بشرعية ادعاء المقاول «اللحم والدهن». أهل «العون» الذي يقدم إلى المقاول لا يُكفل لهم وليمة جماعية، بل ببساطة يكفل لهم عدم الجوع. باختصار، كان المقاول «الرجل العظيم» حرًا في النهاية في أن يعتبر تجميع رأس المال التزامًا أسمى من توزيع الثروة أو رفاه تابعيه.

الرأسمالية، إذًا، هي نظام مكرس لزيادة غير مقيدة في الإنتاج باسم الزيادة غير المقيدة في الأرباح. مهما يكن الأمر، لا يمكن أن يزداد الإنتاج بشكل غير مقيد. فلا يزال على المقاولين الرأسماليين، وقد تحرروا من قيود المستبدين والفقراء، أن يواجهوا قيود الطبيعة. لا يمكن للربحية في الإنتاج أن تتوسع إلى ما لا نهاية. فأي زيادة في كمية التربة أو المياه أو المعادن أو النباتات التي توظف في عملية إنتاجية معينة لكل وحدة من الزمن هي بمثابة عامل تكثيف. تمثلتْ فكرة الكتاب الرئيسة في استعراض مسألة أن التكثيف يؤدي حتمًا إلى انخفاض الاكتفاء. وليس هناك مجال للشك في أن لانخفاض الاكتفاء تأثيرات غير مواتية على متوسط المستوى المعيشي.

ما يجدر بالإيضاح أن الاستنزافات البيئية تؤدي أيضًا إلى أرباح مخفضة. هذه العلاقة لا يمكن فهمها بسهولة لأنه، وفق قوانين العرض والطلب، تؤدي القلة إلى أسعار مرتفعة. الأسعار المرتفعة، في أي حال، توصل إلى معدل استهلاك أقلّ لكل فرد (علامة تجارية على انخفاض مستويات العيش). يمكن دعم الأرباح بشكل موقت إذا تم التعويض عن الهبوط في معدل استهلاك الفرد بالتوسع في المبيعات الإجمالية بالاعتماد على النمو السكاني أو كسب أسواق عالمية. ولكن عاجلًا أم آجلًا سيبدأ مؤشر الأسعار المتزايدة الذي تسببت به الاستنزافات البيئية بالارتفاع بوتيرة أسرع من مؤشر الاستهلاك المتزايد وبالتالي لا بد من أن معدل الربح سيبدأ بالهبوط.

استجابة المقاولين التقليدية للهبوط في معدل الربح هي بالضبط ذاتها تحت أي أسلوب من أساليب الإنتاج التي تعرضت للتكثيف المفرط. فللتعويض عن الاستنزافات البيئية وانخفاض الاكتفاء (الذي يتجلى في شكل معدلات منخفضة للأرباح)، يسعى المقاول إلى خفض تكاليف الإنتاج من خلال إدخال آلات توفير الجهد. فعلى الرغم من أن هذه الآلات تتطلب رأس مال أكبر، ومن هنا لديها عادة تكاليف بدء عمل أكبر، فهي تنتج خفضًا في تكلفة كل وحدة في الإنتاج.

هكذا فإن نظامًا مكرسًا للزيادة الدائمة في التكثيف يمكنه الصمود فقط إذا كان في المقابل عُرضة لتغير تكنولوجي دائم. تعتمد قدرته على المحافظة على

مستويات العيش على نتيجة السباق بين التطور التكنولوجي والتدهور القاسي لشروط الإنتاج. وفي ظل الظروف الحالية، فإن التكنولوجيا على وشك خسارة هذا السباق.

المراجع والملاحظات

يُنظر: Stuart Piggott, *Ancient Europe* (Edinburgh: The University Press, 1965), pp. 229, 235, 140.

وعن روما يُنظر: Thomas W. Africa, *The Immense Majesty: A History of Rome and the Roman Empire* (New York: Thomas Y. Crowell, 1974).

يُنظر: Marc Bloch: *Feudal Society* (Chicago: University of Chicago Press, 1961); «The Rise of Dependent Cultivation and Seignorial Institutions,» in: M. M. Postan (ed.), *The Agrarian Life of the Middle Ages* (London: Cambridge University Press, 1966).

يُنظر: Karl A. Wittfogel, *Oriental Despotism: A Comparative Study of Total Power* (New Haven: Yale University Press, 1957), p. 44.

يُنظر: Eric Wolf, *Peasants* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1966), pp. 30 ff.; B. H. Van Bath, *The Agrarian History of Western Europe: AD 500-1850* (London: Edward Arnold, 1963),

للاطلاع على الديموغرافيا والاقتصاد الأوروبيين في القرون الوسطى. لتاريخ المحراث يُنظر: Bernard Wailes, «Plough and Population in Temperate Europe,» in: Brian Spooner (ed.), *Population Growth: Anthropological Implications* (Cambridge: MIT Press, 1972).

يُنظر: Immanuel Wallerstein, *The Modern World-System* (New York: Academic Press, 1974), p. 20; Robert S. Lopez, *The Commercial Revolution of the Middle Ages: 950-1350* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1974).

للاطلاع على 'أزمة الإقطاعية' يُنظر: Wallerstein, p p. 21 ff.; Michael Postan, *The Medieval Economy and Society: An Economic History of Britain in the Middle Ages* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1972).

يُنظر: Richard Wilkinson, *Poverty and Progress: An Ecological Perspective on Economic Development* (New York: Praeger, 1973), pp. 76-77.

وحول قتل الرضَّع يُنظر: Josiah Russel, *British Medieval Population* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1948); Barbara Kellum, «Infanticide in England in the Later Middle Ages,» *History of Childhood Quarterly*, vol. 1 (1974), pp. 367-388; William Langer, «Infanticide: A Historical Survey,» *History of Childhood Quarterly*, vol. 1 (1974), pp. 353-365; Richard Trexler: «Infanticide in Florence: New Sources and First Results,» *History of Childhood Quarterly*, vol. 1 (1973), pp. 98-116; «The Foundlings of Florence, 1395-1455,» *History of Childhood Quarterly*, vol. 1 (1973), pp. 259-284; Edward Shorter, *The Making of the Modern Family* (New York: Basic Books, 1975), pp. 168ff.; Mildred Dickeman: «Demographic Consequences of Infanticide in Man,» *Annual Review of Ecology and Systematics*, vol. 6 (1975), pp. 100-137; «Female Infanticide and Hypergymy: A Neglected Relationship,» paper presented at the meeting of the American Anthropological Association, San Francisco, 1975.

يُنظر: Marvin Harris: *Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture* (New York: Random House, 1974),

للسحر والخلاصية وانتفاضات الفلاحين، 1300–1500. يُنظر: Claire Russell & W. Russell. «The Natural History of Violence,» in: Charlotte Otten (ed.), *Aggression and Evolution* (Lexington, Mass.: Xerox College Publishing, 1973),

للعلاقة بين الموت الأسود وأزمة الإقطاع الإيكولوجية. وأيضًا: Johannes Nohl (ed.), *Black Death: A Chronicle of the Plague Compiled from Contemporary Sources* (New York: Humanities Press, 1961).

للتكنولوجيا الصينية يُنظر: Joseph Needham, *Clerks and Craftsmen in China and the West* (Cambridge (England): Cambridge University Press, 1970); Joseph Needham & W. Ling, *Science and Civilization in China* (Cambridge (England): Cambridge University Press, 1959), vol. 3; Mark Elvin, *The Pattern of the Chinese Past* (Stanford: Stanford University Press, 1974); Wittfogel, *Oriental Despotism*, pp. 78, 329.

15

الفقاعة الصناعية

تواجه جميع أنظمة الإنتاج سريعة التكثيف، سواء اشتراكية أكانت أم رأسمالية، أم مائية، أم نيوليتية أو باليوليتية، معضلة مشتركة. فالزيادة في مقدار الطاقة المستثمرة في الإنتاج في كل وحدة من الزمن سوف تكون عبئًا على إمكانات النظام البيئي من ناحية التجديد الذاتي، أو التطهير الذاتي، أو التحديث. بغض النظر عن أسلوب الإنتاج المعتمد، هناك وسائل لا بديل منها لتجنب العواقب الكارثية لانخفاض الكفاية: وهي التحول إلى تقنيات أكثر فاعلية. خلال فترة الـ 500 عام الماضية كانت التكنولوجيا العلمية الغربية تنافس أكثر الأنظمة الإنتاجية تسارعًا وتطرفًا في التكثيف في تاريخ جنسنا البشري.

بفضل العلم والهندسة، فإن معدل مستويات العيش في الأمم الصناعية أعلى اليوم من أي وقت مضى. هذه الحقيقة، أكثر من غيرها، تدعم إيماننا بأن التطور أمر محتوم؛ إيمان، مصادفة، تشاركه الكومينترن[1] وغرفة التجارة الأميركية. ما أريد تأكيده هنا أن ارتفاع مستويات العيش بدأ فقط منذ 150 عامًا، بينما استمر السباق بين التغير التكنولوجي السريع والتكثيف لمدة 500 عام. خلال معظم فترة ما بعد الإقطاع، تأرجحت مستويات العيش عند الفقر وهبطت بشكل متكرر إلى هاوية غير مسبوقة على الرغم من إدخال سلسلة لا تنقطع من آلات مبتكرة لتوفير جهد.

(1) Comintern: اختصار لـ communist international، تعرف أيضًا بالأممية الثالثة، وهي منظمة دولية تأسست في موسكو عام 1919 بعد الثورة الروسية بهدف تنظيم الأحزاب الشيوعية دوليًا. (المترجم)

كما بين ريتشارد ويلكينسون، فإن جميع التغيرات التكنولوجية المهمة التي أدخلت إلى إنكلترا بين عامي 1500 و1830 تمت بالإكراه وكاستجابة مباشرة إما للنقص في الموارد أو إلى النمو السكاني والضغوط الإنجابية الشديدة. وراء هذه العملية بأسرها كان هناك تناقص خطيرة مطّرد في الأراضي الزراعية ما أجبر الناس على العمل في الصناعة والاعتماد على وسائل مدنية لكسب الرزق. كانت فترات الابتكار التكنولوجي الأكبر هي الفترات الأعلى ازديادًا في عدد السكان، والأغلى في تكاليف المعيشة، وذات القدر الأكبر من المعاناة بين الفقراء.

خلال القرن السادس عشر، عندما ارتفع عدد السكان مجددًا لأول مرة منذ الموت الأسود، نمت الصناعة والتعدين بسرعة قاربت نموها خلال الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. ازدهرت صناعة النحاس وتجارة المعادن. دخلت صناعة الحديد مرحلة الإنتاج الضخم كما انتقلت أكوار الحدادة الصغيرة إلى الأفران العالية الكبرى. صناعة الزجاج، مراجل الملح، تخمير الجعة وصناعة القرميد جميعها لاقت توسعًا كبيرًا وتكثفًا. انقطع الإنكليز عن تصدير الصوف الخام وتحولوا إلى صناعة الألبسة الجاهزة. ولكن لم تستطع الغابات الإنكليزية دعم الازدياد الهائل في استهلاك الخشب والفحم النباتي للبناء والوقود. لتخفيف «مجاعة الأخشاب» الكبيرة في القرن السابع عشر، ازداد استخراج الفحم الحجري. وللوصول إلى الفحم، كان المستخرجون يحفرون أنفاقًا عميقة، تضع المناجم تحت مستوى المياه. لاستخراج المياه، حفروا مسارب في سفوح الجبال. عندما كانت المناجم عميقة جدًا بالنسبة إلى المسارب، جربوا تجهيز الخيول لرفع المضخات، ثم نواعير المياه، وأخيرًا مضخات التفريغ البخارية.

في تلك الفترة، استمرت معظم الطواحين بالعمل على طاقة المياه. عندما تقلصت الأراضي، ارتفع سعر الصوف. وبعد فترة وجيزة أصبح استيراد القطن من الصين أرخص من تربية الغنم في إنكلترا. لتشغيل محالج القطن كانت هناك حاجة إلى طاقة مياه أكبر. ولكن مواقع النواعير المناسبة أصبحت بعد فترة قصيرة نادرة. حينذاك، صمم وات وبولتون المحرك البخاري الأول الذي كان غرضه إنتاج حركة دورانية لآلات الغزل.

بينما توسعت الصناعة، ازداد حجم التجارة. لم تستطع حيوانات الركوب تحمل حمولات البضائع أكثر من ذلك. زاد التجار من استعمالهم للعربات وعربات الكارو. إلا أن العجلات كانت تشقق الطرقات، وتُحْدث حفرًا فيها، وتحولها إلى برك. ولذلك أُعدتْ الشركات لتأمين أشكال بديلة للنقل. فبنت شبكات من القنوات وجربت عربات السكك الحديد التي تجرها الخيول. كانت هناك حاجة إلى عدد كبير من الحيوانات لسحب القوارب وجر العربات وعربات الكارو، ولكن الأراضي الصالحة للزراعة المتوافرة لإنتاج القش تركت في تضاؤل. وبعد فترة وجيزة تجاوزت تكلفة إطعام القش للخيول تكلفة تغذية القاطرات بالفحم. حينذاك فقط – في عام 1830 – بدأ عصر القاطرة البخارية.

بكلمات ويلكينسون، ذلك كله كان «محاولة في الأساس للتماشي مع الصعوبات المتزايدة لإنتاج اصطدم بمجتمع آخذ بالاتساع». لم يسبق قبل عام 1830 أن تفوقت التكنولوجيا التي ابتكرتها طاقة أعظم العقول البارعة في إنكلترا على شره النظام للمصادر الطبيعية. وبعد 500 عام من الموت الأسود بقي فقر الطبقات العاملة الإنكليزية وبؤسها على ما هو عليه بالأساس.

يرسم التقويم التقليدي لمستوى العيش في القرن الثامن عشر صورة أزهى من خلال التركيز على نمو طبقة مدنية وسطى. لا شك في أن الطبقة الوسطى نمت برسوخ بمعدلات ثابتة ابتداءً من عام 1500م، ولكنها لم تشكل نسبة بارزة من عدد سكان أوروبا قبل الربع الثالث من القرن التاسع عشر. كان توزيع الثروة قبل ذلك يشبه إلى حد كبير الوضع في عدد من الدول المتخلفة المعاصرة. يمكن المرء أن يخدع بسهولة بأسباب المتعة المدنية والصخب لباريس ولندن في القرن الثامن عشر، تمامًا كما يمكن أن يخدع بسهولة اليوم بناطحات السحاب في مدينة مكسيكو أو مومباي. ولكن تحت هذا البهاء الذي كان يتمتع به 10 في المئة من السكان، كان هناك بؤس وعيش على الكفاف لباقي الـ 90 في المئة.

ينزع صعود الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة إلى حجب إدراكنا للتاريخ، على الرغم من أنه نما بخطى أسرع من نموه في أوروبا. ولكن انطوت التجربة الأميركية في الاستعمار على الشذوذ. فقد سيطر الأميركيون على قارة لم

يوجد فيها من قبل عدد سكان كثيف. حتى إنه كان بمقدور شعب العصر البرونزي أن يقتصد بالعيش بمستوى مرتفع لمئة سنة من برية غنية بالتربة الخصبة والغابات والمعادن. حدث التذوق الحقيقي الوحيد لثمار التطور لأول ثلاثة قرون من التغير التكنولوجي السريع في أوروبا، لم يفشل التقدم العلمي والتكنولوجي في إغاثة المزارعين فحسب، لكنه ولّد أشكالًا غير مألوفة للفقر المدني والانحطاط.

تبدو بعض الحقائق غير قابلة للجدال. كلما أصبحت الآلات أكبر، كان على الأشخاص الذين يشغلونها أن يعملوا بجهد أكبر لوقت أطول. وبحلول القرن التاسع عشر كان عمال المصانع والتعدين يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في أوضاع لم تكن لتحتملها قبائل تعتدّ بنفسها مثل بوشمان، التروبرياند، الشيروكي، أو الإيروكواس. في نهاية اليوم، بعد كفاح مرير مع صرير وقعقعة العجلات والدعامات والغبار والدخان ورائحة الوقود، يأوي عمال آلات توفير الجهد إلى أكواخهم الحقيرة المليئة بالقمل والبراغيث. وكما في السابق، كان بمقدور الأثرياء وحدهم أن يحظوا باللحم. أصبح الكساح، وهو مرض يحدث تشوهًا في العظام يسببه الافتقار لضوء الشمس وإلى مصادر الفيتامين «D» في النظام الغذائي، مستوطنًا في المدن والمناطق الصناعية. ارتفعت أيضًا نسبة السل وأمراض أخرى يعود سببها للنظام الغذائي ضعيف القيمة.

استمرت ممارسة قتل الأطفال المباشر وغير المباشر على نطاق يرجح أنه كان بالنسبة ذاتها في العصور الوسطى. تمّ التغاضي عن معظم الحالات التي كان القانون يعتبرها قتلًا عمدًا أو ناتجًا عن الإهمال والنظر فيها كحوادث عرضية. بينما ظل «الإفراط في التغطية» مرتفعًا على القائمة، كان الأطفال غير المرغوب فيهم يعطون أيضًا جرعات مميتة من المواد المسكرة أو المسكنات، أو كانوا يتركون عن سابق قصد للموت جوعًا. وبحسب وليام لانغر، «في القرن الثامن عشر لم تكن رؤية جثث الأطفال الممددة في الشوارع أو فوق القمامات مشهدًا غير مألوف في لندن ومدن كبيرة أخرى». كان رميهم عند بوابة كنيسة ما مفضلًا، ولكن فرصة اكتشاف الأمر كانت كبيرة. قرر المجلس النيابي في آخر الأمر التدخل وإنشاء مستشفيات خاصة بالأطفال اللقطاء ذات نظم متنوعة تضم الأطفال غير المرغوب

فيهم من دون التسبب بخطر على المانح. وفي القارة، كان يمرر الأطفال عبر صناديق دوارة في جدران مستشفيات اللقطاء.

لكن الحكومة لم تكن قادرة على دعم تكلفة تنشئة الأطفال حتى سن الرشد، وسرعان ما أصبحت مستشفيات اللقطاء مسالخ حقيقية وظيفتها الأساسية شرعنة احتكار الدولة لحق القتل. بين عامي 1756 و1760 كان هناك 15,000 حالة تسليم لمستشفى اللقطاء الأولى في لندن؛ ومن بين المسلّمين، عاش 4400 فقط إلى سن البلوغ. استمر تدمير آلاف المستشفيات الأخرى من المرضعات اللواتي وظفتهن الإصلاحيات الأبرشية. من أجل الاقتصاد، خصص الموظفون الأبرشيون الأطفال لنساء يلقبن بـ «الممرضات القاتلات» أو «السفاحات» لأنه «ما من طفل نجا يومًا من رعايتهن». ازدادت حالات التسليم إلى مؤسسات اللقطاء في القارة بثبات خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. في فرنسا ارتفعت حالات التسليم من 40000 في السنة في عام 1784 إلى 138,000 في عام 1822. وفي عام 1830 كان هناك 270 صندوقًا دوارًا في قيد الاستخدام في أنحاء فرنسا، و336,297 طفلًا تم التخلي عنهم شرعيًا خلال العقد بين عامي 1824 و1833. «كانت الأمهات اللواتي يتركن أطفالهن في الصندوق يعلمن أنهن كن يسلمنهم إلى الموت الأكيد كما لو رمينهم في النهر». وكان ما بين 80 و90 في المئة من الأطفال في هذه المؤسسات يموتون خلال سنة حياتهم الأولى.

مؤخرًا، في سبعينيات القرن الثامن عشر كان في أوروبا سكان «ما قبل العصر الحديث» كما يدعوه الديموغرافيون: معدلات ولادات ووفيات مرتفعة (حوالى 45 و40 بالألف، على التوالي)، بمعدل زيادة 0.5 في المئة سنويًا، ومتوسط العمر المتوقع يبلغ ثلاثين عامًا. وقد عاش أقل من نصف المواليد حتى سن الخامسة عشر عامًا. ففي السويد، حيث الإحصاءات السكانية موثوقة أكثر من غيرها، مات 21 في المئة من الأطفال المسجلين خلال السنة الأولى من عمرهم.

دخلت بعض أجزاء من أوروبا بعد عام 1770 ما يدعوه الديموغرافيون المرحلة «الانتقالية المبكرة». كان هناك انخفاض ملحوظ في معدل الوفيات، بينما بقي معدل الولادة ثابتًا تقريبًا. وهذا لا يعني بالضرورة أن مستويات العيش كانت

تميل إلى الارتفاع. تدل دراسة التعدادات السكانية «الانتقالية المبكرة» في الدول المتخلفة المعاصرة أن الانخفاض في معدلات الوفيات والزيادات الناتجة منه في النمو السكاني متوافقة مع مستويات ثابتة أو متدهورة حتى للصحة والرفاه. على سبيل المثال، وجد بنيامين وايت في دراسة حديثة عن مزارعي جاوة المفقرين المركزيين أن الوالدين يربيان أطفالًا إضافيين حتى لو كان ذلك يعود عليهم بتوازن طفيف للفوائد على التكاليف. وتساعد هذه العلاقة بين أعداد الأبناء والدخل في تفسير سبب أن تبدو عدة دول متخلفة غير متجاوبة مع التحكم بعدد السكان بوسائل تحديد النسل الطوعية. عندما تتجاوز الفوائد الصرفة لتنشئة الأبناء على التكاليف، فإن عائلة تنجح بطريقة ما في تنشئة أبناء أكثر ستكون أفضل حالًا من جيرانها بشكل طفيف، حتى لو كانت مستويات العيش للسكان ككل في انخفاض مع مرور الزمن.

كانت أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا فترة ازدياد في الطلب على عمالة الأطفال. ضمن المنزل، كان الأطفال يشتركون في عدد من «الصناعات المنزلية»، حيث يساعدون في تمشيط الصوف، وغزل القطن وصناعة الألبسة والمواد الأخرى ضمن عقود مع المقاولين. وعندما تحول مكان الصناعة إلى المصانع، أصبح الأطفال في الأغلب المصدر الرئيس للعمالة بما أنهم أكثر طواعية ويقبلون بأجر أقل من البالغين. نأمن الاستنتاج، إذًا، أن معدل الوفيات المنخفض خلال المراحل الأولى من الثورة الصناعية كان نتيجة، جزئيًا على الأقل، للطلب المتزايد على عمالة الأطفال أكثر مما يهدف، كليًا، إلى تحسن أساسي شامل في النظام الغذائي أو الإسكان أو الصحة. فالأطفال الذين كانوا في السابق مهملين، أو تم التخلي عنهم أو قتلهم في طفولتهم منحوا حينذاك الامتياز الملتبس في العيش حتى السن الذي يمكّنهم من العمل في مصنع لعدد من السنوات قبل أن يستسلموا لداء السل.

كان فشل القرون الثلاثة الأولى للمكننة بعد الإقطاعية والهندسة العلمية ظاهرًا للجميع. بعد ذلك، أمن البؤس المنتشر والمعاناة في القارة الشرارة التي أشعلت الثورة الفرنسية. في عام 1810 كان عمال المناطق الصناعية في إنكلترا ينشدون

«الخبز أو الدم». وبصورة متنامية، كان على الجماهير المعدمة اللجوء إلى السرقة كي تأكل. فارتفعت الإدانات السنوية للسرقة في إنكلترا 540 في المئة بين عامي 1805 و1833، وشُنق 26,500 شخص بين عامي 1806 و1833، معظمهم لسرقة مبالغ ضئيلة من المال. وفي عام 1798 قاد الخوف من الثورة والحال المريعة للطبقة العاملة إبّان التطور التقني والنمو الاقتصادي القس الإنكليزي توماس مالتوس إلى إعلان مذهبه الشهير في حتمية الفقر والعوز. رأى مالتوس أن وسائل المعيشة كانت تزداد بمتوسط حسابي، ولكن كان عدد السكان يزداد بسرعة أكبر. ولم يدّعِ مالتوس أن عدد السكان لا يصل إلى توازن مع الموارد الغذائية؛ بل نبّه إلى أنه إذاً لم يقيد عدد السكان من خلال التقشف، فسوف تضبطه الحروب، وقتل الأطفال والمجاعات والطاعون والإجهاض، ووسائل غير مرغوب فيها لمنع الحمل. وبمقدار ما كان الأمر متعلقًا بالماضي، كان مالتوس قطعًا على حق. ما أخطأ به هو فشله في التنبؤ كيف خلق الإنتاج الصناعي بالاجتماع مع وسائل منع الحمل الجديدة بعد فترة وجيزة ارتفاعًا سريعًا وغير مسبوق لمستويات العيش.

اعترض كارل ماركس ومصلحون وراديكاليون آخرون على مالتوس وعلماء اقتصاديين آخرين من القرن التاسع عشر ممن أصبح توجسهم معروفًا بـ «العلم الكئيب»، على قاعدة أن الفقر والبؤس اللذين غرق فيهما عمال ومزارعو أوروبا كانا نتيجة القوانين الخاصة بالاقتصاد السياسي للرأسمالية وليس نتيجة الوجود الإنساني بشكل عام. بحسب ماركس، جنى الرأسماليون أرباحهم من استغلال العمالة؛ في ظل الرأسمالية كانت الأجور تخفّض إلى حدود الكفاف بغض النظر عما إذا كان عدد السكان في ازدياد أو نقصان. شدد ماركس على أن قوانين الرأسمالية تؤدي حتمًا إلى تركز الثروة في أيدي قليل من البلوتوقراطيين وإفقار الجميع. وكمالتوس، فشل في التنبؤ بالارتفاع السريع وغير المسبوق لمستويات العيش الذي كان سيحدث بعد فترة وجيزة.

لم يدرك مالتوس ولا ماركس – أحدهما مُصادَر بقانون الإنجاب، والآخر مُصادَر بقانون الإنتاج – حقيقة أن الثورة الصناعية كانت تخلق علاقة جديدة بالكامل بين الإنتاج والإنجاب. فعلى عكس جميع التحولات الرئيسة السابقة

في أساليب الإنتاج، أنتجت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر تعاظمًا كبيرًا في كفاية العمالة والذي لم يرافقه ازدياد، بل انخفاض في معدل النمو السكاني. من ذروة تبلغ 1 في المئة سنويًا في بدايات القرن التاسع عشر، هبط معدل النمو إلى 0.5 في المئة سنويًا في القرن التالي، مع أن كمية الغذاء وكمية مواد المعيشة الأساسية الأخرى المتوافرة للفرد كانت في زيادة متسارعة. وعلى الرغم من أن الهجرة إلى الأميركيتين ساعدت في معدل النمو الأوروبي الإجمالي، فإن الهبوط في معدل الولادة من 45 بالألف إلى أقل من 20 بالألف هو السبب في معظم الانخفاض.

تدعى هذه الظاهرة التحول الديموغرافي. حول العالم، يعلق رجال الدولة والاقتصاديون آمالهم في التطور الاقتصادي على توقع أن الهبوط في معدلات الولادة هو استجابة طبيعية لإدخال تكنولوجيا أكثر كفاءة. ولكن من وجهة نظر أنثروبولوجية، لا شيء شاذ أكثر من ذلك. فكل تحول رئيس في إنتاجية العمالة حتى اليوم رافقه أو تبعه ازدياد سريع في الكثافة السكانية. يبدو هذا صحيحًا بما يتعلق بالتحول من العصر الباليوليتي إلى النيوليتي، لليانومامو من الأدوات الحجرية إلى الأدوات الفولاذية، لشعوب أميركا الوسطى من القطع والحرق إلى الشينامبا، للصينيين من الأمطار إلى الري. ويظهر أنه ينطبق تحديدًا على أوروبا منذ العصر البرونزي؛ بالتأكيد، منذ أوائل العصور الوسطى حتى بداية القرن التاسع عشر، كانت كل فترة من التغير التكنولوجي السريع هي أيضًا فترة من النمو السكاني السريع.

لأحاول إيضاح سبب حدوث التحول الديموغرافي. يبدو لي أنه تسبب به ترابط ثلاث حوادث ثقافية استثنائية: ثورة الوقود، ثورة منع الحمل، وثورة العمل. وسأتابعها دفعة واحدة. بثورة الوقود، أعني مئة، ألف، مليون ضعف من الزيادة في إنتاجية العمالة التي سببها تطبيق المحركات البخارية، ومحركات الديزل ومحركات البنزين والمحركات الكهربائية والنفاثة في الزراعة والصناعة والتعدين والنقل. كان الانتفاع من هذه المحركات على نطاق واسع كافيًا للتعويض حتى عن المعدل البطيء نسبيًا للنمو السكاني للمئة سنة الفائتة باعتماده الكليّ على

التحرير الفجائي لكميات كبيرة من الطاقة غير المستثمرة في السابق والمخزنة في باطن الأرض على شكل فحم وبترول. أجد من العسير تصور كيف أنه لم ينجم عن تسخير طاقة كبيرة في مدة زمنية قصيرة مكاسب متواضعة حتى الحد الأدنى في مستويات عيش أعداد وافرة من الناس. وحقيقة أن الفحم والبترول مصادر غير متجددة للطاقة (على عكس الأشجار والمياه والرياح والقوة العضلية للحيوانات، والتي قامت الأجيال السابقة منها بحدّ نفسها) هي حقيقة على جانب من الأهمية ينبغي أن أعود إليها بعد برهة.

أعني بثورة منع الحمل، ابتكار أساليب آمنة ورخيصة للحد من الخصوبة من خلال وسائل كيميائية وميكانيكية. أعلن عن الواقي الذكري في لندن خلال القرن الثامن عشر، ولكنه كان مصنوعًا من أمعاء الأغنام واستعمل في الأصل لتجنب الإصابة بمرض السفلس. باكتشاف عملية فلكنة المطاط، أمكن استخدام التكنولوجيا الصناعية في الإنتاج الضخم لـ «العوازل المطاطية». وإلى جانبها، بدأت الطبقة الوسطى باستخدام المنضحة المهبلية والسدادة المهبلية نحو القرن التاسع عشر، ومع بداية القرن العشرين كانت تمارس ذلك عائلات الطبقة الكادحة. انخفض قتل الأطفال، كما يمكن أن يلاحظ في الانخفاض الملحوظ في معدل وفيات الأطفال. وكذلك معدل الولادات. قبل عام 1830 بقي معدل الولادات الإنكليزي قريبًا من 40 بالألف، وهو ما يقارب المعدل الذي يوجد في دول متخلفة معاصرة مثل الهند والبرازيل. في عام 1900 هبط إلى أقل من 30 بالألف وفي عام 1970 تحت 20 بالألف.

كما أثبتت دراسة محمود ممداني لاستعمال موانع الحمل في الهند، لم يكن مجرد توافر الوسائل الفاعلة غير المؤلمة نسبيًا ليسبب بذاته انخفاضًا دراماتيًا كهذا في معدل الولادات. تخفض وسائل منع الحمل الحديثة من تكلفة التدخل في العملية الإنجابية. ولكن تبقى ضرورة حضّ الأسَر قائمة على أن تتدخل في مسار الطبيعة؛ يجب أن تتوجه إرادتهم إلى تنشئة أبناء أقل. وهنا، إذًا، تأتي ثورة العمل. وكما بينت سابقًا، فإن تحفيز تحديد الخصوبة هي في الأساس مسألة توازن بين منافع وتكاليف الأبوة. ومع التصنيع، ترتفع تكلفة تنشئة الأبناء - خصوصًا بعد

استصدار القوانين الناظمة لعمالة الأطفال وتشريعات التعليم الإلزامي – لأن المهارات التي يجب أن يكتسبها الطفل كي يصبح قادرًا على جني رزقه وأن يعود بفائدة على والديه تستغرق وقتًا أطول كي يكتسبها. وفي الوقت نفسه، يطرأ تغيُّرٌ على الإطار والحالة إجمالًا التي يجني منها الناس رزقهم. تتوقف الأسرة عن تكون في أي وضع مهم من أوضاع العمل الإنتاجي (باستثناء طبخ الوجبات وإنجاب الأطفال). ما عاد العمل شيئًا يقوم به أفراد العائلة قرب مزرعة أو مشروع العائلة أو ضمنها، بل أصبح أمرًا يقوم به المرء في المكتب أو المتجر أو المصنع بالاشتراك مع أفراد عائلة أخرى. من هنا فإن تدفق العائد من فوائد تنشئة الأبناء بات يشكل عاملًا حاسمًا أكثر فأكثر في نجاحهم الاقتصادي ككسبة أجور ورغبتهم في المساعدة في الأزمات المالية والطبية التي يمكن أن يتوقعها الأهل في سنوات ضعفهم.

يؤمن توافر وسائل منع الحمل غير المؤلمة والبنية المعدلة للمهام الاقتصادية – ثورة وسائل منع الحمل وثورة العمل – المفتاح جوانب عدة محيرة من الحياة الاجتماعية المعاصرة. تجعل فترات الحياة الأطول والتكاليف الطبية المتزايدة توقع أن يمنح الأبناء راحة وأمنًا لآبائهم المسنين مسألة غير واقعية. هكذا تواجهنا عملية الاستعاضة عن ذلك ببرامج التأمين الطبي والزعيم للمجتمع ما قبل الصناعي حيث كان الأبناء يعتنون بآبائهم المسنين. عندما تكتمل هذه العملية، فإن آخر أثر لطرف مقابل ذي أهمية في اعتبار الآباء/ الأبناء سيتلاشى.

إن تكلفة تنشئة أبناء الطبقة الوسطى بالنسبة إلى الآباء من الطفولة حتى سن الدخول إلى الجامعة في الولايات المتحدة اليوم تصل إلى 80,000 دولارًا، جزء صغير فقط يعود عليهم مالًا أو سلعًا أو خدمات. (لا أنكر أن الأمور المعنوية، كمتعة رؤية الأبناء يكبرون، تؤثر أيضًا في السلوك. ولكن من يقول إن متعة رؤية عشرة أطفال يكبرون ليصبحوا نادلي سيارات أكبر من متعة رؤية أحدهم يكبر ليصبح جراحًا؟ أم إنها أكثر مكافأة للمرأة أن تُنشئ جراحًا واحدًا من أن تكون وحيدة دون أن تربي أحدًا؟) هذا سبب استمرار معدل الولادات في الولايات المتحدة بالهبوط، أضف إلى أن حالات الطلاق، وحالات الارتباط الرضائي

خارج الزواج، والزيجات بلا أطفال، والمثلية الجنسية والزواج المثلي جميعها في ازدياد. ومن الأسباب أيضًا، أن أساليب الحياة الأسرية الاختيارية، و«الحرية» الجنسية و«الفجوات بين الأجيال» قد ظهرت فجأة أيضًا.

كي نختصر: يمكننا أن نرى الآن كيف أنه كان للتكنولوجيا اليد العليا في السباق ضد التكثيف والاستنزاف وانخفاض الاكتفاء. استثمر العالم الصناعي موارد جديدة هائلة من الطاقة الرخيصة في الوقت نفسه الذي كان قادرًا على توزيع هذا الرخاء بين سكان يتكاثرون أقل من مقدراتهم الإنجابية بكثير. لكن انتهاء السباق ليس قريبًا؛ إذ يمكن الفائدة أن تكون موقتة فحسب. نبدأ ببطء في استيعاب أننا تكريسنا للآلات التي تعمل على الفحم الأحفوري هو تكريسنا للاستنزاف، وانخفاض الاكتفاء ونسب الأرباح المنخفضة حتى حدودها الدنيا. لا يمكن إعادة تدوير الفحم والبترول؛ بل يمكن استخدامهما فسحب إما بوتائرَ أكثر سرعةً وإما أكثر بطأً.

لا يتفق الخبراء بالتأكيد على المدة التي تدوم فيها الموارد من الفحم والبترول ضمن المعدلات الحالية من الاستهلاك. يقدر الدكتور ماريون كينغ هوبرت (M. King Hubert) من شركة شل للبترول والمسح الجيولوجي في الولايات المتحدة أن ذروة إنتاج البترول ستحدث في عام 1995، وأن إنتاج الفحم سيصل إلى ذروته في عام 2100. ليس السؤال الحقيقي متى ستنتهي آخر قطرة من البترول أو متى سيستخرج آخر طن من الفحم. فتأثير الاستنزاف على المستويات المعيشية يصبح غير محتمل قبل انتهاء آخر ورقة من العشب أو آخر حصان أو أيل. كلما بحثنا أبعد وأعمق عن الفحم، أصبحت تكاليف العمليات الصناعية أكبر. وتحت هذه الظروف فإن معدل ما تستخدمه الطاقة في إنتاج الغذاء ومصادر أخرى للطاقة يعمل على تسريع المعدل الذي يصبح فيه انخفاض الاكتفاء واضحًا في ارتفاع تكاليف السلع والخدمات. وبينما يصبح الفحم والبترول أكثر ندرة، سترتفع تكاليفهما. وبما أن كل منتج وكل خدمة فعليًا في المجتمع الصناعي تعتمد على التزويد الكبير من الطاقة المستمدة من هذه المصادر، سيقلل التضخم باطراد من قدرة الفرد العادي على دفع ثمن السلع والخدمات التي تعتبر اليوم أساسية للصحة والرفاه.

تعتمد سرعة هبوط مستويات العيش في الأمم الصناعية أو بطئه على مدى تأخر التحول إلى مصادر طاقة بديلة. يجب عدم صرف النظر عن إمكان حصول فقر مدقع. وفي وجه النقص الوشيك والمحتوم في الفحم الأحفوري، لا نزال عاجزين عن خفض معدل تبديدنا لهذه الموارد. في الحقيقة، لا نزال نوسع مجال التكنولوجيا التي تعتمد على الفحم الأحفوري بسرعة ونحاول التعويض عن الأسعار المرتفعة بإدخال أكثر إسرافًا للفحم الأحفوري في آلات «توفير الجهد» وعمليات الإنتاج.

لقد أصبح إنتاج الغذاء، كمثال أكثر أهمية، يعتمد على إمدادات النفط بشكل كامل؛ فالجر الزراعي، والرفع، والسحب، والنقل تم الاستحواذ عليها أولًا. ووصلنا اليوم إلى مرحلة أصبحت فيها تهيئة التربة من خلال الأسمدة الكيماوية وحماية النبات باستعمال مبيدات الأعشاب ومبيدات القوارض والحشرات والفطور تعتمد كليًا على التزوّد الدائم بمشتقات البتروكيماويات. إن ما يدعى بـ«الثورة الخضراء» هي ثورة البترول التي أصبحت فيها المحاصيل الأكبر لكل فدان أرض ممكنة بإدخال مستمر لكميات كبيرة من طاقة الفحم الأحفوري في إنتاج أنواع نباتية تم تهجينها خصوصًا لقدرتها على الاستجابة للمزودات البتروكيماوية.

كما بيّن ديفيد بيمنتل من جامعة كورنل، تستخدم اليوم 2790 سعرة حرارية في الولايات المتحدة لإنتاج وتوصيل عبوة واحدة من الذرة تحتوي 270 سعرة. يتسبب إنتاج لحم الأبقار اليوم بنقص هائل في الطاقة: 22000 سعرة حرارية لإنتاج 100 غرام (يحتوي على 270 سعرة حرارية كما في عبوة الذرة). إن طبيعة أسلوب الإنتاج هذا، الشبيه بالفقاعة، يمكن إدراكها من حقيقة أنه إذا استهلكتْ باقي أجزاء العالم فجأة نسبَ الطاقة الخاصة بالزراعة في الولايات المتحدة، فإن احتياطي النفط سيستنزف خلال إحدى عشرة سنة. أو فلنقل ذلك بطريقة مختلفة قليلًا: كلما كان تحول العالم المتخلف إلى الصناعة أسرع، دعتِ الحاجةُ أكثر العالمَ الصناعي إلى تطوير أسلوب أكثر ابتكارًا للإنتاج.

المراجع والملاحظات

Richard Wilkinson, *Poverty and Progress: An Ecological Perspective on Economic Development* (New York: Praeger, 1973), pp. 76ff., 112ff.

لمعرفة أحوال العيش في أوروبا يُنظر: Fernand Braudel: *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II* (New York: Harper & Row, 1972); *Capitalism and Material Life 1400-1800* (New York: Harper & Row, 1973); Friedrich Engels, *The Condition of the Working Class in England.* London: Oxford University Press, 1958); Frederick Eden, *The State of the Poor* (London: G. Routledge & Sons, 1928); Ivy Pinchbeck, *Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850* (New York: Kelley Reprints, 1969); Karl Polanyi, *The Great Transformation* (New York: Rinehart, 1944); William Langer, «Checks on Population Growth, 1750-1850,» *Scientific American* (1972), pp. 96, 98.

لمعدل الوفيات في السويد والتحول الديموغرافي يُنظر: Derek Llewellyn-Jones, *Human Reproduction and Society* (London: Faber & Faber, 1974),

كذلك: Paul Ehrlich & A. Ehrlich, *Population, Resources, Environment* (San Francisoo: W. H. Freeman, 1970); T. R. Ford & G. F. DeJong (eds.), *Social Demography* (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1970).

يُنظر: William Langer, «Europe's Initial Population Explosion,» *American Historical Review*, vol. 69 (1963), pp. 1-17; D. V. Glass & D. Eversley (eds.), *Population in History* (Chicago: Aldine, 1965).

لانخفاض معد الوفيات في القرن الثامن عشر. يُنظر: Benjamin White: «Demand for Labour and Population Growth in Java,» *Human Ecology*, vol. 1, no. 3 (1973), pp. 217-236; «The Economic Importance of Children in a Japanese Village,» in: Moni Nag (ed.), *Population and Social Organization* (The Hague: Mouton, 1975).

عن الصناعات المنتَجة منزليًا يُنظر: David Landes (ed.), *The Rise of Capitalism* (New York: Macmillan, 1966),

إحصائيات الجريمة من: Georg Rusche & O. Kirchheimer, *Punishment and Social Structure* (New York: Columbia University Press, 1939).

للاطلاع على السياق الاجتماعي للمالتوسيين يُنظر: Steven Polgar (ed.), *Population, Ecology and Social Evolution* (The Hague: Mouton, 1975.); H. L. Beales, «The Historical Context of the Essay on Population,» in: D. V. Glass (ed.), *Introduction to Malthus* (London: Frank Case, 1959).

للاطلاع على جدال ماركس – مالتوس يُنظر: Ronald Meek, *Marx and Engels on the Population Bomb* (Berkeley: Ramparts Press, 1971),

يُنظر: N. E. Himes, *Medical History of Contraception* (New York: Gamut Press, 1963); Llewellyn-Jones, *Human Reproduction*,

لتاريخ منع الحمل يُنظر: J. A. Banks, *Prosperity and Parenthood* (London: Routledge, 1953); Ansley Coale, «The Decline of Fertility in Europe from the French Revolution to World War II,» in: S. J. Behrman, L. Corsa & R. Freedman (eds.), *Fertility and Family Planning: A World View* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1970).

للاطلاع على تراجع الخصوبة. وحول آثار وتقدير التكاليف المتزايدة لتربية الأطفال، يُنظر: Wanda Minge-Kalman, «The Evolution of Domestic Production: Changes During the Peasant to Worker Transition in Europe,» PhD dissertation, Columbia University, New York. 1977.

للاطلاع على استنزاف الفحم والنفط يُنظر: National Petroleum Council, *US Energy Outlook.: Oil and Gas Availability* (Washington, DC: National Petroleum Council, 1973); S. S. Penner & L. Icerman, *Energy: Demands, Resources, Impact, Technology and Policy* (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1974); M. Hubert, «Scientist Is Hopeful on World Resources,» *New York Times* (2 December 1976); Barry Commoner, *The Poverty of Power: Energy and the Economic Crisis* (New York: Alfred A. Knopf, 1976).

ولـ (بترلة (Oilification الغذاء يُنظر: Marvin Harris, «The Withering Green Revolution,» *Natural History*, vol. 82, no. 2 (1973); Peter Jennings, «The Amplification of Agricultural Production,» *Scientific American*, vol. 235, no. 3 (1976), 180-195; Nicholas Wade, «The World Food Situation: Pessimism Comes Back Into Vogue,» *Science*, vol. 181 (1973), pp. 634-638; David Pimentel et al., «Food Production and the Energy Crisis,» *Science*, vol. 182 (1973), pp. 443-449; «Energy and Land Constraints in Food Protein Production,» *Science*, vol. 190, (1975), pp. 754-761.

David Pimentel, «Expert Says Only Hope to Feed World Is with Food Production Unlike That in US,» *New York Times* (8 December 1976); Georg Borgstrom, *The Food and People Dilemma* (North Scituate, Mass.: Duxbury Press, 1973); J. Steinhart & C. Steinhart, «Energy Use in the US Food System,» *Science*, vol. 184 (1974), pp. 307-315; Gerald Leach, *Energy and Food Production* (Washington: Institute for Environment and Development, 1975).



خاتمة ومناجاة أخلاقية

قبل ثورة الوقود، كانت النباتات والحيوانات المصدر الرئيس للطاقة في الحياة الاجتماعية. وبانتشار تلك الكائنات حول الأرض في ملايين من المزارع والقرى، جمعت النباتات والحيوانات الطاقة من الشمس وحولتها إلى أشكال تناسب الاستخدام والاستهلاك البشري. لم تكن مصادر أخرى للطاقة، كالرياح والمياه المتساقطة، أقل انتشارًا. كانت الطريقة الوحيدة كي يقطع بها المستبدون إمداد الطاقة عن الناس تتمثل في منعهم من الوصول إلى الأرض أو المحيطات. كان ذلك مهمة شاقة ومكلفة للغاية في معظم الأوضاع المناخية والأرضية. كان التحكم بالمياه، في أي حال، قد نظم بيسر أكبر. وحيث كان بالإمكان التحكم بالمياه، أمكن التحكم بالنباتات والحيوانات. علاوة على ذلك، بما أن النباتات والحيوانات كانت المصدر الرئيس للطاقة، كان التحكم بالمياه بمثابة التحكم بالطاقة. من هذا المنطق كان مُستبدُّو المجتمع المائي مستبدين للطاقة؛ لكن فقط بطريقة غير مباشرة وبدائية جدًا.

افتتحت ثورة الوقود إمكان شكل أكثر مباشرةً للتفرد بالطاقة. تجمع اليوم الطاقة وتوزع تحت إشراف عدد صغير من الدوائر الرسمية والمؤسسات. تأتي من أعداد صغيرة من المناجم والآبار. يمكن، تقنيًا، أن تغلق هذه المناجم والآبار أمام مئات ملايين الناس، ليصبحوا عرضة للجوع والتجمد والغرق في الظلام، يجعلوا جامدين بتشغيل بضعة صمامات ونقرة بضعة مفاتيح. كما لو أن هذا لم يكن سببًا كافيًا للإنذار، بدأت الأمم الصناعية بالتعويض عن الاستنزاف الوشيك للفحم والنفط بالتحول إلى الطاقة النووية؛ مصدر أكثر تركزًا بكثير للطاقة من

الوقود الأحفوري. توجد في الأصل القدرة الكهربائية لتعقب السلوك الفردي من خلال شبكات المراقبة المركزية وحواسيب وحفظ السجلات. من المحتمل بشدة أن يؤمن التحول إلى إنتاج الطاقة النووية تمامًا الشروط المادية الأساسية الأكثر تلاؤمًا لاستخدام طاقة الحاسوب لتأسيس شكل جديد وثابت للاستبداد. يمكننا فقط من خلال لامركزية أسلوب إنتاج الطاقة الأساسي - من خلال خرق الاتفاقات الدولية التي تحتكر النظام الحالي لإنتاج الطاقة ومن خلال خلق أشكال لامركزية جديدة للتكنولوجيا الطاقية - أن نصلح وضعنا الثقافي والبيئي الذي أدى إلى نشوء الديمقراطية السياسية في أوروبا.

يستدعي هذا سؤالًا عن كيفية اختيارنا بشكل واعٍ لبدائل غير محتملة لنزعات تطورية محتملة. من خلال مسحٍ للماضي، من وجهةَ نظر أنثروبولوجية، أعتقد أن من الواضح أن التحولات الرئيسة للحياة الاجتماعية البشرية توافقت حتى الآن مع الأهداف المتخذة بشكل واعٍ من قبل المشاركين التاريخيين. ليس للوعي شأن مهم في العمليات التي أصبح فيها قتل الأطفال والصراع الحربي وسائل تنظيم تعداد سكان المجتمعات القروية والجماعات: أصبحت النساء خاضعات للرجال؛ أولئك الذين كانوا يعملون بجهد أكبر ويكسبون القليل أصبحوا من يعملون قليلًا ويكسبون الكثير؛ أصبح «الوهّابون» هم المؤمنون؛ ولحم القربان أصبح لحمًا محرمًا؛ لقد أصبح مقدمو القرابين الحيوانية نباتيين، وأصبحت وسائل توفير الجهد أدوات العمل الشاق، وأصبحت زراعة الري مصيدة الاستبداد بالمياه.

لم يكن أسلافنا، بالطبع، سيكيولوجيًا أقل وعيًا منا من ناحية التيقظ، امتلاك الأفكار وصنع القرار الذي يعتمد على الحساب القريب لأنواع تكلفة/ منافع بديلة للفعل. بقولنا إن وعيهم لم يكن له دور في توجيه مسار التطور الثقافي لا يعني القول أنهم كانوا «زومبي». أعني هنا أنهم كانوا غير مدركين لتأثير أساليب الإنتاج والإنجاب على مواقفهم وقيمهم وأنهم كانوا جاهلين كليًا للتأثيرات التراكمية للقرارات المتخذة من أجل زيادة التكلفة/ المنافع قصيرة الأمد إلى الحد الأعلى. لتغيير العالم بطريقة واعية على المرء أن يمتلك أولًا إدراكًا واعيًا لما هو عليه العالم. إن افتقار إدراك كهذا هو نذير يدعو للضيق.

كشخص يؤمن بالحتمية الثقافية، اتهمت أحيانًا بتقليل القيم الإنسانية إلى فعل منعكس آلي وبتصوير الأفراد على أنهم مجرد دمى. هذه مذاهب مغايرة لإدراكي للعمليات الثقافية. أشدد ببساطة على أن اعتقاد الأفراد وسلوكهم كانا دائمًا ما يحصران في اتجاه معين من قبل القيود والإمكانات البيئية والثقافية. تعين أساليب إنتاج وإنجاب متعاقبة طبيعة هذه الاتجاهات. عندما يستدعي أسلوب الإنتاج موزعين «عظماء»، يبلغ الرجال الطموحين ليتباهوا بثروتهم ويمنحونها كلها. وحيث يستدعي أسلوب الإنتاج «مقاولين عظماء»، يبلغ الرجال ليتباهوا بثروتهم ويحتفظون بها كلها لأنفسهم. لا أتظاهر بأنني أعلم لِمَ أصبح سوني واهب ولائم عظيمًا أو لِمَ أصبح جون روكفلر مكتنزَ ثروة كبيرًا. ولا أعلم لِمَ أحد الأفراد على التعيين كتب هاملت. إنني أرغب تمام الرغبة في أن أدع هذه الأسئلة تتبدد إلى لغز دائم.

السببية الثقافية أمر آخر. كثير من الإنسانويين والفنانين يرتدون عن افتراض أن التطور الثقافي شكلته حتى الآن قوى موضوعية لاواعية. تملؤهم الطبيعة المحتمة بالإدراك كما تملؤهم بشكل متساوٍ لإمكان مستقبل محتم. إلا أن مخاوفهم ليست في موضعها. فقط من خلال إدراك الطبيعة المحتمة للماضي يمكننا أن نأمل أن نجعل المستقبل أقل اعتمادًا على القوى الموضوعية واللاواعية. ومع ولادة علم الثقافة ادعى آخرون بأنهم أدركوا موت المبادرة الأخلاقية. من جهتي، لا يمكنني أن أدرك كيف أن افتقار النباهة التي تتعلق بالعمليات القانونية التي قامت حتى الآن يمكن أن تكون منبرًا لبناء مستقبل متحضر. لذا مع ولادة علم الثقافة أجد بداية وليس نهاية المبادرة الأخلاقية. فلينتبه حماة التلقائية التاريخية: إذا كانت عمليات التطور الثقافية كما بينت، فهم متهاونون أخلاقيًا في تحفيز الآخرين على التفكير والفعل كما لو أن مثل هذه العمليات غير موجودة.

أعتبر من الخطأ الفادح تعليم أن جميع الأشكال الثقافية محتملة بشكل متساوٍ وأن من خلال قوة الإرادة المحضة لفرد ملهم يمكن في أي لحظة أن يغير مسار نظام ثقافي بالكامل في اتجاه يلائم أي فلسفة. تفوق المسارات المتوازية والمتقاربة المسارات المتباعدة عددًا بشكل كبير في التطور الثقافي. فمعظم البشر

ملتزمون الأعراف. التاريخ يعيد نفسه بأفعال لا تعد من خضوع الأفراد للحكم والأنموذج الثقافي، والإرادات الفردية نادرًا ما تغلب في حالات تتطلب تغيرًا راديكاليًا لمعتقدات وممارسات ذات حالة معينة خصوصية.

في الوقت ذاته، لم أكتب شيئًا في هذا الكتاب يدعم وجهة نظر أن الفرد عاجز أمام مسيرة التاريخ العنيدة أو أن الاستقالة والقنوط هما الاستجابات المناسبة لتركز القوة الصناعية والزراعية. إن الحتمية التي حكمت التطور الثقافي لم تكن يومًا مكافئًا للحتمية التي حكمت نظامًا فيزيائيًا مغلقًا، بل إنها تشبه السياق السببي الذي يؤدي إلى تطور الكائنات النباتية والحيوانية. وبشكل رجعي، وبإرشاد من مبدأ داروين في الاختيار الطبيعي، بإمكان العلماء أن يعيدوا بتلقائية بناء السلسلة السببية للتكيفات التي قادت من الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور. ولكن كيف يمكن أن يصبح ما رآه العلماء قرشًا بدائيًا حمامة؟ ما الذي رآه العلماء في زبابة الشجر (treeshrew) يمكن أن يصبح **إنسانًا عاقلًا**؟ إن تكثيف أسلوب الإنتاج الصناعي والنصر التكنولوجي على الضغوط المالتوسية ينذر بلا شك بنشوء أشكال ثقافية جديدة. لا أعلم بشكل مؤكد ماذا ستكون هذه الأشكال، ولا أي أحد آخر.

بما أن التغيرات التطورية لا يمكن التنبؤ بها كليًا، من الواضح أن هناك متسع في العالم لما ندعوه الإرادة الحرة. كل قرار فردي في القبول، المقاومة، أو تغيير النظام الحالي يبدل إمكانية حدوث نتيجة تطورية معينة. بينما ليس مسار التطور الثقافي حرًا أبدًا من تأثير النظام، بعض اللحظات من الممكن أن تكون «مفتوحة» أكثر من غيرها. أكثر اللحظات المفتوحة، كما يبدو لي، هي تلك التي يصل فيها أسلوب الإنتاج إلى حدوده في النمو وحين لا بد من أن يتم تبني أسلوب جديد. نحن نتجه بسرعة نحو فتحة كهذه. عندما نعبرها، عندها فقط، وننظر إلى الخلف، ينبغي أن نعلم لِمَ يختار البشر خيارًا ما دون غيره. في خلال ذلك، يبرر للناس الذين لديهم التزامات شخصية عميقة لرؤية معينة للمستقبل تمامًا كفاحهم تجاه هدفهم، حتى لو كانت النتيجة تبدو اليوم بعيدة وغير ممكنة. في الحياة، كما في أي لعبة تعتمد نتيجتها على الحظ والمقدرة في آن، فإن الاستجابة الحكيمة للأفضليات السيئة هي المحاولة بجد أكبر.

المراجع

Adams, Robert McC. *The Evolution of Urban Society: Early Mesopotamia and Prehispanic Mexico*. Chicago: Aldine, 1966.

Africa, Thomas W. *The Immense Majesty: A History of Rome and the Roman Empire*. New York: Thomas Y. Crowell, 1974.

Alland, Alexander. «Adaptation.» *Annual Review of Anthropology*. vol. 4 (1974).

Allchin, Bridget & Raymond Allchin. *The Birth of Indian Civilization*. Baltimore: Penguin, 1968.

Armalegos, George & Allan McArdle. «Population, Disease and Evolution.» *American Antiquity*. vol. 40, no. 2 (1975).

Balikci, Anselm. «Female Infanticide on the Arctic Coast.» *Man*. vol. 2 (1967).

Banks, J. A. *Prosperity and Parenthood*. London: Routledge, 1953.

Barnouw, Victor. *Culture and Personality*. Homewood, Ill.: Dorsey Press, 1973.

Beales, H. L. «The Historical Context of the Essay on Population.» In: D. V. Glass (ed.). *Introduction to Malthus*. London: Frank Case, 1959.

Beattie, John. *Bunyoro: An African Kingdom*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1960.

Bicchieri, M. G. (ed.). *Hunters and Gatherers Today*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1971.

Bielenstein, Hans. «The Census of China During the Period 2-742 AD.» *Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities*. vol. 19 (1947).

Biocca, Ettore. *Yanomamo: The Narrative of a White Girl Kidnapped by Amazonian Indians*. New York: Dutton, 1970.

Birdsell, Joseph. *Human Evolution: An Introduction to the New Physical Anthropology*. Chicago: Rand McNally, 1972.

Black, Francis. «Infectious Diseases in Primitive Societies.» *Science*. vol. 187 (1975).

Bloch, Marc. *Feudal Society*. Chicago: University of Chicago Press, 1961.

_______. «The Rise of Dependent Cultivation and Seignorial Institutions.» In: M. M. Postan (ed.). *The Agrarian Life of the Middle Ages*. London: Cambridge University Press, 1966.

Borgstrom, Georg. *The Food and People Dilemma*. North Scituate, Mass.: Duxbury Press, 1973.

Bose, A. N. *Social and Rural Economy of Northern India, 600 B C-200 A D*. Calcutta: Firma K. L. Mukhopadhyay, 1961.

Boserup, Esther. *The Conditions of Agricultural Growth*. Chicago: Aldine, 1965.

Brain, C. K. «Some Aspects of the South African Australopithecine Sites and Their Bone Accumulations.» In: C. Jolly (ed.). *Early Man in Africa*. London: Duckworth, in press.

Braudel, Fernand. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II*. New York: Harper & Row, 1972.

_______. *Capitalism and Material Life 1400-1800*. New York: Harper & Row, 1973.

Briffault, Robert. *The Mothers*. New York: Grosset & Dunlap, 1963.

Brown, Judith. «Iroquois Women: An Ethnohistoric Note.» In: Reiter, Rayna (ed.). *Toward an Anthropology* of *Women*. New York: Monthly Review Press, 1975.

Buck, John. *Land Utilization in China*. 3 vols.: vol. 1: New York: Praeger, vol 2: Statistics, vol. 3: Atlas. Chicago: University of Chicago Press, 1964; [1937].

Butzer, Karl. *Environment and Archaeology: An Ecological Approach to Prehistory*. Chicago: Aldine, 1971.

_______. «Patterns of Environmental Change in the Near East During Late Pleistocene and Early Holocene Times.» In: Fred Wendorff & A. Marks (eds.). *Problems in Prehistory: North Africa and the Levant*. Dallas: Southern Methodist University, 1975.

_______. *Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in Cultural Ecology*. Chicago: University of Chicago Press, 1976.

Carneiro, Robert. «A Theory of the Origin of the State.» *Science*. vol. 169 (1970).

_______ & D. Hilse. «On Determining the Probable Rate of Population Growth During the Neolithic.» *American Anthropologist*. vol. 68 (1966).

Chagnon, Napoleon. *Yanomamo: The Fierce People*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1968.

_______. *Studying the Yanomamo*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1974. «Genealogy, Solidarity and Relatedness: Limits to Local Group Size and Patterns of Fissioning in an Expanding Population.» *Yearbook of Physical Anthropology*. vol. 19 (1975).

Coale, Ansley. «The Decline of Fertility in Europe from the French Revolution to World War II.» In: S. J. Behrman, L. Corsa & R. Freedman (eds.). *Fertility and Family Planning: A World View*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1970.

_______. «The History of the Human Population.» *Scientific American*. vol. 231 (September 1974).

Cockburn, T. A. «Infectious Diseases in Ancient Populations.» *Current Anthropology*. vol. 12 (1971).

Coe, Michael. *America's First Civilization: Discovering the Olmec*. New York: American Heritage, 1968.

Cohen, Mark N. «Population Pressure and the Origins of Agriculture.» In: Steven Polgar (ed.). *Population, Ecology and Social Evolution*. The Hague: Mouton, 1975.

Commoner, Barry. *The Poverty of Power: Energy and the Economic Crisis*. New York: Alfred A. Knopf, 1976.

Condominas, George. *Nous avons mangé la forêt de la Pérre-Genie Goo*. Paris: Plon, 1957.

Conklin, Harold. *The Study of Shifting Cultivation*. Washington: Pan American Union, 1963.

Cook, Sherburne. «Human Sacrifice and Warfare as Factors in the Demography of Pre-Colonial Mexico.» *Human Biology*. vol. 18 (1946).

_______. *Prehistoric Demography*. Reading (Mass.): Addison Wesley, 1972.

Covarrubias, Miguel. *Indian Art of Mexico and Central America*. New York: Alfred A. Knopf, 1957.

Cowgill, Ursula. «An Agricultural Study of the Southern Maya Lowlands.» *American Anthropologist*. vol. 64 (1962).

Culbert, T. P. (ed.). *The Classic Maya Collapse*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1973.

Dandekar, V. M. «Cow Dung Models.» *Economic and Political Weekly* (Bombay). vol. 2 (August 1969).

David, Nicholas. «On Upper Paleolithic Society, Ecology and Technological Change.» In: Colin Renfrew, *Before Civilization*. New York: Alfred A. Knopf, 1973.

Davis, Kingsley. *The Population of India and Pakistan.* Princeton: Princeton University Press, 1951.

De Tapiá, Andrés. «Relación Hecha por el Senor Andrés de Tapiá sobre la Conquista de Mexico.» In: J. G. Icozbalceta (ed.). *Colecci6n de Documentos para la Historia de Mexico.* Nendeln, Liechtenstein: Kraus reprint, 1971.

Devereux, George. *A Study of Abortion in Primitive Societies*. New York: Julian Press, 1955.

Díaz, Bernal. *The Discovery and Conquest of Mexico* 1517-1521. New York: Farrar, Straus & Giroux, 1956.

Dickeman, Mildred. «Demographic Consequences of Infanticide in Man.» *Annual Review of Ecology and Systematics*. vol. 6 (1975).

_______. «Female Infanticide and Hypergymy: A Neglected Relationship.» Paper presented at the meeting of the American Anthropological Association, San Francisco, 1975.

Divale, William. «Systematic Population Control in the Middle and Upper Paleolithic.» World Archaeology. vol. 42, no. 2 (1972).

Divale, W. T., F. Chamberis & D. Gangloff. «War, Peace and Marital Residence in Pre-Industrial Societies.» *Journal of Conflict Resolution*. vol. 20 (1976).

Divale, William & M. Harris. «Population, Warfare and the Male Supremacist Complex.» *American Anthropologist*. vol. 78 (1976).

Dornstreich, Mark & G. Morren. «Does New Guinea Cannibalism Have Nutritional Value?.» *Human Ecology*. vol. 2 (1974).

Driver, G. R. & J. C. Miles (eds.). *The Babylonian Laws*. vol. 2. Oxford: Clarendon Press, 1955.

Dumond, Don E. «The Limitation of Human Population: A Natural History.» *Science*. vol. 187 (1975).

Durán, Diego. *The Aztecs: The History of the Indies of New Spain*. New York: Orion, 1964.

Dyson-Hudson, Rada & N. Dyson-Hudson. «Subsistence Herding in Uganda.» *Scientific American*. vol. 220, no. 2 (1969).

Eden, Frederick. *The State of the Poor*. London: G. Routledge & Sons, 1928.

Edmondson, Wesley C. *Land, Food and Work in East Java*. New England Monographs in Geography, no. 4. Armidale, NSW, Australia, 1976.

Ehrlich, Paul & A. Ehrlich. *Population, Resources, Environment*. San Francisoo: W. H. Freeman, 1970.

Elvin, Mark. *The Pattern of the Chinese Past*. Stanford: Stanford University Press, 1974.

Engels, Friedrich. *The Condition of the Working Class in England*. London: Oxford University Press, 1958.

Epstein, H. *The Origin of the Domestic Animals of Africa*. New York: Africana Publishing Corporation, 1971.

FAO/WHO. «Energy and Protein Requirements.» FAO Nutrition Meetings Report Series. No. 52. Rome: Food and Agricultural Organization of the United Nations, 1973.

Flannery, Kent. «The Origins of Agriculture.» *Annual Review of Anthropology*. vol. 2 (1973).

Flinn, Lynn, C. Turner & A. Brew. «Additional Evidence for Cannibalism in the Southwest: The Case of LA 4528.» *American Antiquity*. vol. 41 (1976).

Ford, T. R. & G. F. DeJong (eds.). *Social Demography*. Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1970.

Freeman, M. «A Social and Economic Analysis of Systematic Female Infanticide.» *American Anthropologist*. vol. 73 (1971).

Fried, Morton H. *The Evolution of Political Society: An Essay in Political Anthropology* New York: Random House, 1967.

_______, M. Harris & R. Murphy (eds.). *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*. Garden City, NY: Natural History Press, 1968.

Friedl, Ernestine. «The Position of Women: Appearance and Reality.» *Anthropological Quarterly*. vol. 40 (1967).

_______. *Women and Men: An Anthropologist's View*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1975.

Frisch, Rose & Janet McArthur. «Menstrual Cycles: Fatness as a Determinant of Minimum Weight for Height Necessary for Their Maintenance or Onset.» *Science*. vol. 185 (1974).

Frisch, Rose. «Critical Weights, A Critical Body Composition, Menarche and the Maintenance of Menstrual Cycles.» In: Elizabeth Watts, F. Johnston, & G. Lasker (eds.). *Biosocial, Interrelations in Population Adaptation*. The Hague: Mouton, 1975.

Gandhi, M. K. *How to Serve the Cow*. Ahmedabad: Navajivan Publishing House, 1954.

Gavan, J. D. & J. Dixon. «India: A Perspective on the Food Situation.» *Science*. vol. 188 (1975).

Gelb, Ignace. «From Freedom to Slavery.» In: D. O. Edzard (ed.). *18th Rencontre Assyriologique Internationale*. Munich: Bayerischen Akademie Der Wissenschaften, 1972.

_______. «Prisoners of War in Early Mesopotamia.» *Journal of Near Eastern Studies*. vol. 32 (1973).

Glass, D. V. & D. Eversley (eds.). *Population in History.* Chicago: Aldine, 1965.

Gregor, Thomas A. «Social Relations in a Small Society: A Study of the Mehinacu Indians of Central Brazil.» PhD Dissertation, Columbia University, 1969.

Grennes-Ravitz, Ronald & G. Coleman. «The Quintessential Role of Olmec in the Central Highlands of Mexico.» *American Antiquity*. vol. 41 (1976).

Gross, Daniel. «Protein Capture and Cultural Development in the Amazon Basin.» *American Anthropologist*. vol. 77 (1975).

Grove, David C. et al. «Settlement and Cultural Development at Chalcatzingo.» *Science*. 192 (1976).

Hall, Calvin & G. Lindzey. «Freud's Psychoanalytic Theory of Personality.» In: Robert Hunt (ed.). *Personalities and Cultures: Readings in Psychological Anthropology.* Garden City: Natural History Press, 1967.

Hammond, Norman (ed.). *Mesoamerican Archaeology: New Approaches*. Austin 1974.

Harner, Michael. «The Ecological Basis for Aztec Sacrifice.» *American Ethnologist*. (in press).

_______. *Article in Natural History Magazine* (in press).

_______. «Population Pressure and the Social Evolution of Agriculturalists.» *Southwestern Journal of Anthropology.* vol. 26 (1970).

_______. «The Material Basis for Aztec Sacrifice.» Paper read at the Annual Meeting of the American Anthropological Association, San Francisco, 1975.

Harris, Marvin. «The Cultural Ecology of India's Sacred Cattle.» *Current Anthropology*. vol. 7 (1966).

_______. *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture*. New York: Thomas Y. Crowell, 1968.

_______. «Comments on Alan Heston's 'An Approach to the Sacred Cow of India'.» *Current Anthropology*. vol. 12 (1971).

_______. «The Withering Green Revolution.» *Natural History*. vol. 82, no. 2 (1973).

_______. *Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture*. New York: Random House, 1974.

_______. *Culture, People, Nature: An Introduction to General Anthropology*. New York: Thomas Y. Crowell, 1975.

_______. *Cultural Materialism: The Struggle for a Science of Culture*. New York: Random House, 1979.

Harrison, Gail. «Primary Adult Lactase Deficiency: A Problem in Anthropological Genetics.» *American Anthropologist*. vol. 77 (1975).

Hart, C. W. M. & Arnold Pilling. *The Tiwi* of *North Australia*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1960.

Hassan, Ferki. «On Mechanisms of Population Growth During the Neolithic.» *Current Anthropology*. vol. 14, no. 5 (1973).

_______.«Size, Density and Growth Rate of Hunting-Gathering Populations.» In: Steven Polgar (ed.). *Population, Ecology and Social Evolution*. The Hague: Mouton, 1975.

Hastings, James (ed.). *Encyclopedia of Religion and Ethics*. New York: Charles Scribner & Sons, 1921.

Haviland, William. «Stature at Tikal, Guatemala: Implications for Ancient Maya Demography and Social organization.» *Americain Antiquity*. vol. 32 (1967).

_______. «A New Population Estimate for Tikal, Guatemala.» *American Antiquity*. vol. 34 (1969).

Hawkes, Jaquetta. *The First Great Civilizations*. New York: Alfred A. Knopf, 1973.

Heider, Karl. *The Dani of West Irian*. Reading, Mass.: Addison Wesley, 1972.

Herskovits, Melville. *Economic Anthropology*. New York: Alfred A. Knopf, 1952.

Heston, Allan et al. «An Approach to the Sacred Cow of India.» *Current Anthropology*. vol. 12 (1971).

Himes, N. E. *Medical History of Contraception*. New York: Gamut Press, 1963.

Hoebel, Edward Adamson. *The Law of Primitive Man*. Cambridge: Harvard University Press, 1954.

Hogbin, H. Ian. *A Guadalcanal* Society: *The Kaoka Speakers*. New York: Holt, Rinehart & Winston, 1964.

Howells, Nancy Lee. In: Richard Lee & I. DeVore. Cambridge: Harvard University Press, in press.

Jacobsen, Thorkild & R. Adams. «Salt and Silt in Ancient Mesopotamian Agriculture.» *Science*. vol. 128 (1958).

Jennings, Peter. «The Amplification of Agricultural Production.» *Scientific American*. vol. 235, no. 3 (1976).

Johnson, Allen. «The Allocation of Time in a Machiguenga Community.» *Ethnology*. vol. 14 (1975).

Kalberry, Phyllis. *Aboriginal Woman, Sacred and Profane*. London: Routledge, 1970; [1939].

Kellum, Barbara. «Infanticide in England in the Later Middle Ages.» *History of Childhood Quarterly*. vol. 1 (1974).

Kolata, Gina. «!Kung Hunter-Gatherers: Feminism, Diet and Birth Control.» *Science*. vol. 185 (1974).

Kroeber, Alfred L. *Cultural and Natural Areas of Native North America*. Berkeley: University of California Press, 1939.

Lamphere, Louise. «Women and Domestic Power: Political and Economic Strategies in Domestic Groups.» In: Dana Raphael (ed.). *Being Female: Reproduction, Power, Change*. The Hague: Mouton, 1975.

Landes, David (ed.). *The Rise* of *Capitalism*. New York: Macmillan, 1966.

Langer, William. «Europe's Initial Population Explosion.» *American Historical Review*. vol. 69 (1963).

_______. «Checks on Population Growth, 1750-1850.» *Scientific American* (1972).

_______. «Infanticide: A Historical Survey.» *History of Childhood Quarterly*. vol. 1 (1974).

Lathrap, Donald. «The 'Hunting' Economies of the Tropical Forest Zone of South America: An Attempt at Historical Perspective.» In: Daniel Gross (ed.). *Peoples and Cultures of Native South America*. New York: Natural History Press, 1973.

Leach, Gerald. *Energy and Food Production*. Washington: Institute for Environment and Development, 1975.

Lee, Richard. «Problems in the Study of Hunters and Gatherers.» In: Richard Lee & I. DeVore (eds.). *Man the Hunter*. Chicago: Aldine, 1968.

_______. «!Kung Bushmen Subsistence: An Input-Output Analysis.» In: Andrew P. Vayda (ed.). *Environment and Cultural Behavior.* Garden City: Natural History Press, 1969.

Lévi, Sylvain. *La Doctrine du sacrifice dans les Brahmanas*. Paris: Presses Universitaires de France, 1966.

Lévi-Strauss, Claude. *The Elementary Structures of Kinship*. Rev. ed. Trans by J. H. Bell, J. R. von Sturmer & Rodney Needham. Boston: Beacon, 1969.

Linton, Sally. «Woman the Gatherer: Male Bias in Anthropology.» In: Sue Ellen Jacobs (ed.). *Women in Perspective: A Guide for Cross Cultural Studies*. Urbana: University of Illinois Press, 1973.

Lizot, Jacques «Aspects économiques et sociaux du changement culturel chez les Yanõmamis.» *L'Homme*. vol. 2, (1971).

Llewellyn-Jones, Derek. *Human Reproduction and Society*. London: Faber & Faber, 1974.

Lopez, Robert S. *The Commercial Revolution of the Middle Ages: 950-1350*. Englewood Oiffs, NJ: Prentice-Hall, 1974.

Lowie, Robert. *Indians of the Plains*. New York: McGraw-Hill, 1954.

Lundell, Cyrus. *The Vegetation of Peten*. Washington, DC: Carnegie Institution, 1937.

MacNeish, Richard. *Energy and Culture in Ancient Tehuacan*. Manuscript. [n. d.].

_______. «Speculations About the Discovery of the New World by Paleoindians.» *American Scientist* (in press).

Maitz, S. K. *Economic Life of Northern India in the Gupta Period. Cir. An 300-500*. Calcutta: World Press Private, 1957.

Malinowski, Bronislaw. «War and Weapons Among the Natives of the Trobriand Islands.» *Man*. vol. 20 (1920).

_______. *Argonauts of the Western Pacific*. New York: Dutton, 1922.

_______. *Sex and Repression in Savage Society*. London: Routledge and Kegan Paul, 1927.

_______. *Coral Gardens and Their Magic*. 2 vols. London: Allen & Unwin, 1935.

Marshack, Alexander. *The Roots* of *Civilization*. New York: McGraw-Hill, 1972.

Marshall, John. *Mohenjo-daro and the Indus Civilization*. London, 1931.

Mason, J. Alden. *The Ancient Civilizations of Peru*. Harmondsworth (England): Penguin, 1957.

Mathenay, Ray. «Maya Lowland Hydraulic Systems.» *Science*. vol. 193 (1976).

Meek, Ronald. *Marx and Engels on the Population Bomb*. Berkeley: Ramparts Press, 1971.

Meggers, B. *Amazonia: Man and Culture in a Counterfeit Paradise*. Chicago: Aldine, 1971.

_______, E. Ayensu & W. Duckworth. *Tropical Forest Ecosystems in Africa and South America: A Comparative Review.* Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1973.

Mencius. *The Works of Mencius.* Trans. by James Legge. New York: Dover, 1970.

Metraux, Alfred. «Tribes of the Middle and Upper Amazon River.» In: J. H. Steward (ed.). *Handbook of South American Indians.* vol. 143, no. 3. Washington, DC: Bureau of American Ethnology Bulletin, 1945.

Minge-Kalman, Wanda. «The Evolution of Domestic Production: Changes During The Peasant to Worker Transition in Europe.» PhD dissertation, Columbia University, 1977.

Mitchell, William. «The Hydraulic Hypothesis: A Reappraisal.» *Current Anthropology.* vol. 4 (1973).

Montagu, Ashley. *The Nature of Human Aggression.* New York: Oxford University Press, 1976.

Morely, S.G. & G. Brainerd. *The Ancient Maya.* Palo Alto: Stanford University Press, 1956.

Morgan, Lewis H. *League of the Iroquois*. New York: Corinth Press, 1962.

Morren, George. «Settlement Strategies and Hunting in a New Guinea Society.» PhD dissertation, Columbia University, 1974.

Mosimann, James G. & Paul S. Martin. «Simulating Overkill by Paleoindians.» *American Scientist.* vol. 63, no. 3 (1975).

Mount, Lawrence. *The Climatic Physiology of the Pig*. London: Edward Arnold, 1968.

Murdock, George P. *Social Structure*. New York: Macmillan, 1949.

_______. *Ethnographic Atlas*. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1967.

Nash, Jill. *Matriliny and Modernization: The Nagovisi of South Bougainville*. New Guinea Research Bulletin, 1974.

Nath, Pran. *A Study in the Economic Condition of Ancient India*. London, 1929.

National Petroleum Council. *US Energy Outlook: Oil and Gas Availability*. Washington, DC: National Petroleum Council, 1973.

National Research Council. *Agricultural Production Efficiency*. Washington, DC: National Academy of Sciences, 1974.

Needham, Joseph. *Clerks and Craftsmen in China and the West*. Cambridge (England): Cambridge University Press, 1970.

_______ & W. Ling. *Science and Civilization in China*. Cambridge (England): Cambridge University Press, 1959.

Neel, James & K. Weiss. «The Genetic Structure of a Tribal Population, the Yanomamo Indians.» *American Journal of Physical Anthropology*. vol. 42 (1975).

Nohl, Johannes (ed.). *Black Death: A Chronicle* of *the Plague Compiled from Contemporary Sources*. New York: Humanities Press, 1961.

Nurge, Ethel. «Spontaneous and Induced Abortion in Human and Non-Human Primates.» In: Dana Raphael (ed.). *Being Female: Reproduction, Power, Change*. The Hague: Mouton, 1975.

Odend'hal, Stewart. «Energetics of Indian Cattle in Their Environment.» *Human Ecology*. vol. 1, no. 1 (1972).

Oliver, Douglas. *A Solomon Island Society: Kinship and Leadership Among the Siuai of Bougainville*. Cambridge: Harvard University Press, 1955.

Palerm, Angel. «Agricultural Systems and Food Patterns.» *Handbook of Middle American Indians*. vol. 6 (1967).

Parsons, Jeffrey & R. Blanton. *Prehispanic Demography in the Eastern Valley of Mexico: The Texaco, Ixtapalapa and Chalco Areas*. Unpublished manuscript, 1969.

Penner, S. S. & L. Icerman. *Energy: Demands, Resources, Impact, Technology and Policy*. Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1974.

Perkins, Dwight. *Agricultural Development in China 1368-1968*. Chicago: Aldine, 1968.

Phillips, Ralph et al. *Livestock of China*. US Department of State Publication 2249. Far Eastern Series. no. 9. Washington, DC, 1945.

Piggott, Stuart. *Ancient Europe*. Edinburgh: The University Press, 1965.

_______ *The Druids*. New York: Praeger, 1975.

Pimentel, David et al. «Food Production and the Energy Crisis.» *Science*. vol. 182 (1973).

_______. «Energy and Land Constraints in Food Protein Production.» *Science*. vol. 190 (1975).

Pinchbeck, Ivy. *Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850*. New York: Kelley Reprints, 1969.

Ping-ti Ho. «The Indigenous Origins of Chinese Agriculture.» In: C. Reed (ed.). *Origins of Agriculture*. The Hague: Mouton, 1975.

Pires-Ferreira, J., E. Pires-Ferreira & P. Kaulicke. «Preceramic Animal Utilization in the Central Peruvian Andes.» *Science*. vol. 194 (1976).

Polanyi, Karl. *The Great Transformation*. New York: Rinehart, 1944.

_______. Arensberg & H. Pearson (eds.). *Trade and Markets in the Early Empires*. Glencoe, Ill.: The Free Press, 1957.

Pond, W. G. & J. H. Manes. *Swine Production in Temperate and Tropical Environments*. San Francisco: Freeman, 1974.

Postan, Michael. *The Medieval Economy and Society: An Economic History of Britain in the Middle Ages*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1972.

Prakash, Om. *Food and Drinks in Ancient India: From Earliest Times to C. 1200 A.D.* Delhi: Munshi Ram Manohar Lal, 1961.

Price, Barbara. «Prehispanic Irrigation Agriculture in Nuclear America.» *Latin American Research Review*. vol. 6 (1971).

_______ «Turning State's Evidence: Problems in the Theory of State Formation.» Unpublished paper, 1977.

Prideaux, Tom (ed.). *Cro-Magnon Man*. New York: Time-Life, 1973.

Puleston, D. E. & O. S. Puleston. «An Ecological Approach to the Origin of Maya Civilization.» *Archaeology*. vol. 24 (1971).

Raj, K. N. «Investment in livestock in Agrarian Economies: An Analysis of Some Issues Concerning 'Sacred Cows' and 'Surplus Cattle'.» *Indian Economic* Review. vol. 4 (1969).

_______. «India's Sacred Cattle: Theories and Empirical Findings.» *Economic and Political Weekly*. vol. 6 (March 27, 1971).

Rathje, William. «Socio Political Implications of Lowland Maya Burials: Methodology and Tentative Hypotheses.» *World Archaeologgy*. vol. 1 (1970).

_______. «The Origin and Development of Lowland Classic Maya Civilization.» *American Antiquity*. vol. 36 (1971).

Reed, C (ed.). *Origins of Agriculture*. The Hague: Mouton, in press.

Reed, Evelyn. *Woman's Evolution*. New York: Pathfinder Press, 1975.

Reifenberg, A. «The Struggle between the Desert and the Sown.» Desert Research. Proceedings, International Symposium held in Jerusalem. May 1952. Jerusalem: Research Council of Israel Special Publication, 1953.

Renfrew, Colin (ed.). *The Explanation of Culture Change: Models in Prehistory*. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1974.

Roper, Marilyn. «A Survey of the Evidence for Intrahuman Killing in the Pleistocene.» *Current Anthropology*. vol. 10 (1969).

_______. «Evidence of Warfare in The Near East from 10,000 to 4000 BC.» In: Martin Nettleship, R. Givens & A. Nettleship (eds.). *War, Its Causes and Correlates*. The Hague: Mouton, 1975.

Rosaldo, M. Z. & L. Lamphere (eds.). *Women, Culture and Society*. Stanford: Stanford University Press, 1974.

Rosengarten, Yvonne. *Le Regime des offrandes dans la societe sumerienne d'apres les textes presargoniques de Lagas*. Paris: E. de Boccard, 1966.

Ross, Eric. «Food Taboos, Diet and Hunting Strategy: The Adaptation to Animals in Amazon Cultural Ecology.» *Current Anthropology* (in press).

Ross, Jane. «Aggression as Adaptation: The Yanomamo Case.» *Mimeographed*. Columbia University, 1971.

Rowe, John. «Inca Culture at the Time of the Spanish Conquest.» In: Julian Steward (ed.). *Handbook of South American Indians*. no. 143. Washington, DC: Bureau of American Ethnology Bulletin, 1947.

Rusche, Georg & O. Kirchheimer. *Punishment and Social Structure*. New York: Columbia University Press, 1939.

Russel, Josiah. *British Medieval Population*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1948.

Russell, Claire & W. Russell. «The Natural History of Violence.» In: Charlotte Otten (ed.). *Aggression and Evolution*. Lexington, Mass.: Xerox College Publishing, 1973.

Sagan, Eli. *Human Aggression, Cannibalism, and Cultural Form*. New York: Harper & Row, 1974.

Sahagun, Bernardino de (1950).

Sahlins, Marshall. *Social Stratification in Polynesia*. American Ethnological Society Monographs. Seattle: University of Seattle Press, 1958.

_______. *Stone Age Economics*. Chicago: Aldine, 1972.

Salzman, Philip (ed.). «Comparative Studies of Nomadism and Pastoralism.» *Anthropological Quarterly*. vol. 44, no. 3 (1971).

Sanders, W. T. & B. Price. *Mesoamerica: The Evolution of a Civilization*. New York: Random House, 1968.

Scheele, Raymond. «Warfare of the Iroquois and Their Northern Neighbors.» PhD dissertation, Columbia University, 1950.

Schneider, Harold. «The Subsistence Cattle Among the Pakot and in East Africa.» *American Anthropologist*. vol. 59 (1957).

Service, Elman. «The Prime-Mover of Cultural Evolution.» *Southwestern Journal of Anthropology*. vol. 24 (1969).

Shen, T. H. *Agricultural Resources of China*. Ithaca: Cornell University Press, 1951.

Shipman, Pat & J. Phillips-Conroy. «Hominid Tool-making Versus Carnivore Scavenging.» *American Journal of Physical Anthropology*. vol. 46 (1977).

Shorter, Edward. *The Making of the Modern Family.* New York: Basic Books, 1975.

Singh, R. L. (ed.). *India: A Regional Geography.* Varanasi: National Geographic Society of India, 1971.

Siskind, Janet. *To Hunt in the Morning. New* York: Oxford University Press, 1973.

Smith, William. *The Religion of the Semites*. New York: Meridian Books, 1956.

Smole, William J. *The Yanomamo Indians: A Cultural Geography*. Austin: University of Texas Press, 1976.

Soustelle, Jacques. *Daily Life of the Aztecs on the Eve of the Spanish Conquest.* Stanford: Stanford University Press, 1962.

Spengler, Joseph. *Indian Economic Thought: A Preface to Its History*. Durham, NC: Duke University Press, 1971.

_______. *Population Change, Modernization, and Welfare.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1974.

Spooner, Brian (ed.). *Population Growth: Anthropological Implications*. Cambridge: MIT Press, 1972.

Sprague, G. F. «Agriculture in China.» *Science*. vol. 188 (1975).

Steinhart, J. & C. Steinhart. «Energy Use in the US Food System.» *Science*. vol. 184 (1974).

Stevenson, Robert. *Population and Political Systems in Tropical Africa*. New York: Columbia University Press, 1968.

Steward, Julian. *Theory of Culture* Urbanatems: University of Illinois, 1955.

Sweet, Louise. «The Women of 'Ain and Dayr'.» *Anthropological Quarterly*. vol. 40 (1967).

Tannahill, Reay. *Flesh and Blood: A History of the Cannibal Complex*. New York: Stein & Day, 1975.

Taylor, C. M. & O. F. Pye. *Foundations of Nutrition*. 6th ed. New York: Macmillan, 1966.

Thapar, Romila. *A History of India*. Baltimore: Penguin, 1966.

Thompson, J. E. *The Rise and Fall* of *Maya Civilization.* Norman: University of Oklahoma Press, 1954.

Thwaites, Reuben. *The Jesuit Relations and Allied Documents*. New York: Pageant Book Co, 1959; [1637]. vol. 13.

Trexler, Richard. «Infanticide in Florence: New Sources and First Results.» *History of Childhood Quarterly*. vol. 1 (1973).

_______. «The Foundlings of Florence, 1395-1455.» *History of Childhood Quarterly*. vol. 1 (1973).

Turner, B. L., II. «Prehistoric Intensive Agriculture in the Maya Lowlands.» *Science*. vol. 185 (1974).

Uberoi, J. P. Singh. *Politics of the Kula Ring: An Analysis of the Findings of Bronislaw Malinowski.* Manchester: Manchester University Press, 1962.

Ucko, Peter & G. W. Dimbley (eds.). *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals*. Chicago: Aldine, 1969.

_______, _______ & R. Tringham (eds.). *Man, Settlement and Urbanism*. London: Duckworth, 1972.

Ulmen, G. L. «Wittfogel's Science of Society.» *Telos*. vol. 24 (1975).

Van Bath, B. H. *The Agrarian History of Western Europe: AD 500-1850*. London: Edward Arnold, 1963.

Van Ginneken, J. K. «Prolonged Breastfeeding as a Birth-Spacing Method.» *Studies in Family Planning*. vol. 5 (1974).

Varma, K. N. *Population Problem in the Ganges Valley*. Agra: Shiva Lal Agarwala, 1967.

Vayda, Andrew P. «Expansion and Warfare among Swidden Agriculturalists.» *American Anthropologist*. vol. 63 (1961).

_______. «Phases of the Process of War and Peace Among the Marings of New Guinea.» *Oceania*. vol. 42 (1971).

Vishnu-Mittre. «The Archaeobotanical and Palynological Evidences for the Early Origin of Agriculture in ·South and Southeast Asia.» In: M. Arnott (ed.). *Gastronomy: The Anthropology* of *Food and Food Habits.* The Hague: Mouton, in press.

Wade, Nicholas. «The World Food Situation: Pessimism Comes Back into Vogue.» *Science*. vol. 181 (1973).

Wallerstein, Immanuel. *The Modern World-System*. New York: Academic Press, 1974.

Walsh, Maurice & B. Scandalis. «Institutionalized Forms of Intergenerational Male Aggression.» In: Martin Nettleship, R. Givens & A. Nettleship (eds.). *War, Its Causes and Correlates*. The Hague: Mouton, 1975.

Warner, William Lloyd. «Murngin Warfare.» *Oceania*. vol. 1 (1930).

_______. *A Black Civilization*. New York: Harper & Bros, 1937.

Watt, Kenneth. *Ecology and Ressource Management: A Quantitative Approach*. New York: McGraw-Hill, 1968.

Weaver, Muriel. *The Aztecs, Maya, and Their Predecessors*. New York: Seminar Press, 1972.

Webb, Malcolm. «The Flag Follows Trade: An Essay on the Necessary Integration of Military and Commercial Factors in State Formation.» In: Jeremy Sabloff & C. C. Lamberg Karlovsky. (eds.). *Ancient Civilization and Trade*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1975.

Webster, David. «Warfare and the Evolution of the State.» *American Antiquity*. vol. 40 (1975).

Wedgwood, Camilla. «Some Aspects of Warfare in Melanesia.» *Oceania*. vol. 1 (1930).

Weight for Height Necessary for Their Maintenance or Onset.» *Science*. vol. 185 (1974).

White, Benjamin. «Demand for Labour and Population Growth in Java.» *Human Ecology*. vol. 1, no. 3 (1973).

_______. «The Economic Importance of Children in a Japanese Village.» In: Moni Nag (ed.). *Population and Social Organization*. The Hague: Mouton, 1975.

Whyte, R. D. «Evolution of Land Use in Southwestern Asia.» In: L. D. Stamp (ed.). *A History of Land Use in Arid Regions*. UNESCO Arid Zone Research, 1961.

Wilkinson, Richard. *Poverty and Progress: An Ecological Perspective on Economic Development*. New York: Praeger, 1973.

Willey, Gordon. *An Introduction to American Archaeology*. vol. 1. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1966.

Wittfogel, Karl A. *Wirtschaft und Gesellschaft Chinas*. Leipzig: C. L. Hirschfeld, 1931.

_______. *Oriental Despotism: A Comparative Study* of *Total Power.* New Haven: Yale University Press, 1957.

_______. *Agriculture: A Key to the Understanding of Chinese Society Past and Present*. Canberra: Australian National University Press, 1970.

Wolf, Eric. *Peasants*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1966.

Wood, Corinne. «New Evidence for the Late Introduction of Malaria into the New World.» *Current Anthropology.* vol. 16 (1975).

Wright, Quincy. *A Study of War*. Chicago: University of Chicago Press, 1965.

Wyon, John & J. Gordon. *The Khanna Study. Population Problems in the Rural Punjab*. Cambridge: Harvard University Press, 1971.

Yerkes, Royden. *Sacrifice in Greek and Roman Religions and Early Judaism*. New York: Scribners, 1952.

Zeuner, Frederic. *A History of Domesticated Animals*. New York: Harper & Row, 1963.

Zohary, Daniel & M. Hopf. «Domestication of Pulses in the Old World.» *Science*. vol. 182 (1973)·



فهرس عام

-ح-

-خ-

-د-